

غالب الشابندر

ليس من سيرة الرسول الكريم

صلى الله عليه وسلم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ لَمْ يَرْوِ عَنِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ
وَالْحَاكِمِ وَالْبَيْهَقِيِّ وَالْبُخَارِيِّ
وَالْمُسْلِمِيِّ وَالطَّبْرَانِيِّ وَالصَّغِيرِيِّ
وَالْبُرْهَانِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ وَالْبُخَارِيِّ
وَالْمُسْلِمِيِّ وَالطَّبْرَانِيِّ وَالصَّغِيرِيِّ
وَالْبُرْهَانِيِّ

دار العلوم
بمكة المكرمة
الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ

٢٤
٢٣
٢٢
٢١
٢٠
١٩
١٨
١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
٢
١

دارالعلوم

ليس من سيرة الرسول الكريم

غالب الشايندر



دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - بئر العبد - شارع السيد عباس الموسوي
تلفاكس: ٠١/٥٤٥١٨٢ - ٠٣/٤٧٣٩١٩
هاتف: ٠١/٥٤١٦٥٠ - ص.ب: ١٣/٦٠٨٠
www.daraloloum.com
E-mail: info@daraloloum.com



ليس من سيرة الرسول الكريم

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



المكتب : حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 13/6080 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail: info@daraloloum.com

ليس من سيرة الرسول الكريم

غالب حسن السابندر





المقدمة

تشكل السيرة النبوية الكريمة إحدى المصادر الجوهرية في تشكيل العقل المسلم، لما للنبي العزيز محمد بن عبد الله من قيمة روحية عليا في نفس كل مسلم، ويكفي أن تكون السنة النبوية هي المصدر الثاني للإسلام خاصة على مستوى التشريع لدى كل فقهاء المسلمين، وسيرته ﷺ من السنة كما هو معلوم. وأقصد بالسيرة هنا مواقفه الشريفة مع الآخرين، وتعامله مع الأحداث الكبيرة، وما جرى عليه من وقائع وهو يكافح ويعمل ويجاهد من أجل الرسالة التي بعثه الله بها إلى الناس أجمعين.

هذه السيرة لم تنل حظها في تصوري من الفكر والنقد والتمحيص إلا في حدود سريعة، وربما لغايات مرسومة سلفاً، فهناك نقول غير مُمَحَّصَة، وهناك إستشهادات غير محققة ومدروسة، وهناك استعراضات لم تخضع للتشريح السندي والعقلي والفكري، الأمر الذي قاد إلى الكثير من الملاحظات في حق هذه السيرة الكريمة، بل إلى الكثير من الإساءات لهذه السيرة، فيما هي كما نفترض، أظهر وأشرف وأقدس سيرة في التاريخ البشري إطلاقاً.

لقد طرحَت السيرة وللأسف الشديد في كثير من المحاولات وكأنها قطعة من دماء، وطرحَت في محاولة أخرى وكأنها أحداث لا تمت بصلة إلى الأرض، فهي سيل من المعجزات والغرائب والمهولات، وطرحَت ثالثاً وكأنَّ النبوة استحوذَ شخصي، وسبيل للإثراء والتجاوز على حقوق الناس، فكانت مرتعاً للإساءة إلى النبي والإسلام، فهو نبي حرب، والدين الإسلامي شريعة قتال صرف! وكانت مرتعاً للتغذي بغذاء خطير، ذلك هو الفكر الإرهابي، فليس سراً أن هؤلاء الإرهابيين، سواء على صعيد القادة أو صعيد المُغرَّرِ بِهِم، كثيراً، بل أكثر شواهدهم وأدلتهم المزعومة لتبرير مقاتلتهم وظلمهم وتخريبهم منتزعة من السيرة النبوية!

وقد استفاد أعداء الإسلام من هذه الشغرة، فراحوا يغرفون على هواهم من مصادر السيرة الكريمة ليبرهنوا حسب زعمهم تبعية الإسلام لسابقه من أديان، وأن الدين الذي جاء به هذا العبد الصالح إنما هو دعوة صريحة للدم المباح ظلماً وعدواناً، بل في الأيام الأخيرة شهدنا حملة شرسة على النبي الكريم بالاعتماد على السيرة النبوية كما يقولون أكثر من أي مصدر آخر، بما في ذلك القرآن الكريم.

هذه الأسباب وغيرها تدعوننا جدياً إلى مراجعة السيرة النبوية بكاملها، دون استثناء، بما في ذلك ما وَقَرَ في أذهان الأمة من كونه حقائق لا مجال للشك فيها، كما في قضية الحمامة والعنكبوت مثلاً، وغيرها من ثقافة شائعة ربما لا شاهد عليه من تاريخ معتبر، أو هناك شاهد ولكنه ضعيف هش. وفي سياق هذه العملية الخطيرة يجب عدم

إمضاء ما يعتبره الكثيرون بأنه من المحرمات ، فليس هناك كتاب أو مصدر صحيح بالمرة غير كتاب الله تعالى ، ومن هنا نقول وبكل صراحة ، لا يمنع عقل ولا نقل من أن يكون الكثير من الأوهام والخرافات تسربت إلى مصادر الحديث النبوي ، بما في ذلك الصحاح ، ومن هنا يجب عدم التوقف عندها ، وإمضاءها مسبقاً ، بل لا نبالغ أن هذه المصادر التي تسمى صحاح مثلاً ، قد أساءت للرسول الكريم بقدر ما أساءت بعض المصادر التي يسمونها سير ، وعلى رأسها سيرة ابن هشام .

إن مثل هذه العملية الجبارة تستدعي في البداية نقد المصادر الأساسية للسيرة الشريفة ، وعلى رأسها سيرة ابن هشام التي هي أصلاً سيرة ابن إسحاق ، ومغازي الواقدي ، وطبقات بن سعد ، وهذا النقد ينبغي أن يقدم له بنقد جوهرى وتشريح دقيق لرواة السيرة ، خاصة رواة المغازي .

إن نقد هذه المصادر ضرورة علمية تاريخية ، فمن الملاحظ هناك شبه ثقة مسبقة فيها ، ولذا قلّ ما يقوم باحث في السيرة الكريمة من إجراء عمليات تشريح شاملة لهذه المصادر ، سواء بما يتعلق بكتابتها أو برواتها ، وقلّما نجد عملية مقارنة بين روايات هذه المصادر كي نخرج بنتيجة تطمئن إليها القلوب ، ويبدو أن بعض الكتاب يتأثر ببعض المعاني الجميلة لما تنقله هذه المصادر عن الرسول ، فيطمئن قلبه ويسطره في بحوثه ، ومنهم من يستعذبه ما ورد في هذه المصادر من صور القتال ، لما يحمله من غيرة على الإسلام ، فيستشهد بكل ما ورد في هذه المصادر في هذا المجال ، رغم ما ينطوي عليه من غرائب ومشاهد تتناقض مع خلق الرسول ورحمته ورحمة الرسالة التي جاء

بها، فضلاً عن ذلك هناك فقر علمي واضح في عملية تحليل النصوص، فهي تؤخذ كما وردت، دون التفتيش عمّا بين السطور، متناسين أن النصوص قد تكون مجرد ظاهر، يخفي من الباطن ما يصدم الفكر، ويصدم الروح، بل أن ما تخفيه بعض النصوص قد لا يمت إلى ظاهرها بتلك الدرجة من متانة العلاقة.

لقد كان بودي أن أقوم بدراسة مستفيضة لهذه المصادر، ولكن الظروف حالت دون ذلك، إلا أنّ ذلك لا يحول من قراءة بعض نصوص هذه المصادر، وتشريحها، ونقدها، وتفكيك أسرارها، ومن هنا لم أجد ضيراً من أن أقدم للقراء الكرام هذا المجهود المتواضع، حيث هو مجموعة بحوث عن بعض الوقائع التي مرت بها سيرة النبي الجميل، وقد اخترتها من هنا وهناك، أي من دون مراعاة التسلسل الزمني، ذلك أنني كنت أختار بعض النصوص وأفضل البحث فيها على غيرها، لأهميتها التي قد تكون تقرررت في وقتها، ومن هنا أعتذر للقارئ الكريم من هذا التشتت في الموضوعات، ذلك أنّ الأمر كان يخضع للظرف. على أن تضاعيف البحوث لم تخل من نقد للمصادر أحياناً، ولبعض رواة السيرة، ولكن ليست على نحو تفصيلي، يشعر بأنه مقصود على نحو الإستقلالية، بل ضمن بحث في موضوع هو المقصود أساساً. وأعاهد السادة القراء بأنني سوف أتوكل على الله تبارك وتعالى للقيام بقراءة موسعة لمصادر السيرة المباركة، وفي مقدمتها سيرة ابن هشام وابن إسحاق، وأتوسل إلى الله تعالى أن يمد في عمري لإنجاز ذلك في أقرب وقت.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

البشارات اليهودية بميلاد النبي الكريم

تدعي بعض الروايات أنّ اليهود في الجزيرة العربية كانوا يتنبأون بأنّ نبياً سوف يظهر ويُحدث أثراً كبيراً في مسيرة التاريخ الإنساني، وتتجاوز هذه الروايات الفكرة في إطارها العام وتتحدّث عن بعض الخصوصيات المهمّة والأساسية لهذه النبوة المرتقبة، حتى وصل الأمر إلى تحديد الصفة والإسم والعائلة، وتأخذ هذه الروايات صفة الحدث التراجيدي المتلاصق، وفي الوقت ذاته تشير إلى أنّ اليهود ذو بصيرة دينية نافذة، وأنّهم أهل علم ومعرفة وصنعة وفن، بل إنّ اليهودي في بعض موحيات هذه الروايات عارف بأسرار التاريخ والمستقبل، الأمر الذي حُرِمَ منه الناس الآخرون، وليس شيئاً يُعدُّ من الإكتشافات إذا قلنا إنّ مثل هذه المفارقات تستدعي الحذر الشديد، ولكي تتّضح الصورة في الإطار وتبين أهميّة هذا الإستدراك نستعرض الروايات المذكورة.

الرواية الأولى

في سيرة ابن هشام (قال ابن إسحق : وحدّثني عاصم بن عمر بن

قتادة، عن رجال من قومه، قالوا : انّ ممّا دعانا إلى الإسلام، ومع
رحمة الله تعالى وهداه لنا، لمّا كنّا نسمع من رجال يهود، وكنّا أهل
شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت
لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا :
قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وأرم، فكنا كثيراً
ما نسمع ذلك منهم، فلمّا بُعث رسول الله أجبناه حين دعانا إلى الله
تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به... (١).

وهذه الرواية كما هو واضح غامضة المصدر (... عن رجال من
قومه...).

الرواية الثانية

في سيرة ابن هشام (قال ابن إسحق : وحدّثني عاصم بن عمر بن
قتادة، عن شيخ من بني قريضة، قال لي :

هل تدري عمّ كان إسلام ثعلبة بن شعبة وأسيد بن سغية، وأسيد بن
عبيد، نفر من بني هلال بني قريضة، كانوا معهم في جاهليتهم، ثمّ
كانوا سادتهم في الإسلام، قال : قلتُ : لا والله، قال : فإنّ رجلاً من
يهود أهل الشام يُقال له : ابن الهبيّان قدم علينا قبل الإسلام بسنتين،
فحلّ بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط يصلي الخمس أفضل منه،
فأقام عندنا، فكنا إذا قحط المطر قلنا له : أخرج لنا يا ابن الهبيّان
فاستسق لها، فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة،
فنقول له : كم؟ فيقول : صاعاً من تمر أو مُدّ من شعير، قال :

(١) المصدر ١ / ٢٢٥.

فخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرّتنا فيستسقي الله لنا، فوالله ما يبرح من مجلسه، حتى يمرّ علينا السحاب ونسقي، وقد فعل ذلك غير مرّة، ولا مرتين ولا ثلاث، قال: ثمّ حضرته الوفاة عندنا، فلمّا عرف أنّه ميّت، قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع، قال: قلنا إنّك أعلم، قال: قدّمت هذه البلدة اتوكّف خروج نبي قد أظلمّ زمانه، وهذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلمّ زمانه فلا تُسبّقن إليه يا معشر يهود، فإنّه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممّن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، فلمّا بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حاصر بني قريضة، قال هؤلاء الفتية وكانوا شباباً أحداثاً: يا بني قريضة، يا بني قريضة، يا بني قريضة، والله إنّ للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيّان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله، وإنّه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا واحرزوا دمائهم وأموالهم وأهليهم^(١).

الرواية في مصدرها النهائي أكثر غموضاً من سابقتها (... عن شيخ من بني قريضة...)، وهي تحمل صراحة الإساءة إلى رسول الله ﷺ، هذا الرسول المعروف بحبه للسلام، إذ يصوّر نبوته الرحمة الشفافة إلى قطعة متوتّرة من القتل والسبي والإرهاب، وهي الصورة التي طالما أضفاها عليه أعداء الإسلام والمسلمين، وكرامات هذا اليهودي المجهول (الهيّان) لا تتيح أي مجال للتشكيك في الرواية، واكتشاف طبيعتها الدعائية المغرضة، إلّا أنّ ممّا يثير الإستغراب حقاً هذا التزواج

(١) المصدر ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

الغريب بين صاع التمر ودعاء الإستسقاء، فلم نعرف كنهه ولا حقيقته. وأغرب منه إستجابة الدعاء في الحال، فهذه حلقات مجهولة العلاقة مجهولة الرابطة، وكما نقرأ: فإن الرواية تدّعي بأن اليهودي (اللغز) كان يصلي الخمس، تُرى أي صلاة هذه؟! وكيف؟! لا أستبعد أنها محاولة من يهودي ذكي لتأصيل اليهودية في الإسلام الذي جاء ناسخاً لكل الأديان بحق وحقيقة، على أن هذا الإطراء والمديح ليهودي قد يُقنعنا بأن الراوي المذكور (أي عاصم بن عمر...) قد إلتقى فعلاً هذا اليهودي، فألقى في روعه هذه الأفكار، وإذا كان ذلك صحيحاً، فإنه بلا ريب، يكشف عن سذاجة الراوي وبساطته.

رواية هشة ساذجة من الصعب الإطمئنان إليها.

الرواية الثالثة

روى البيهقي (... أخبرنا يوسف بن موسى، قال: أخبرنا عبد الملك بن هارون بن عنتر، عن أبيه، عن جدّه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلمّا التقوا هزمت يهود خيبر، فعادت بهذا الدعاء، فقالت: اللهم إنا نسألك بحق محمّد وآل محمّد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا إلتقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم كذبوا به^(١).

أخرجه الحاكم في مستدرکه^(٢) عن طريق عبد الملك بن هارون بن

(١) المصدر ٢ / ٧٦ - ٧٧. بتحقيق عبد المعطي قلعجي.

(٢) مستدرک الحاكم: ٢ / ٢٦٣.

عترة، عن أبيه، عن جدّه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

في السند : عبد الملك بن هارون بن عترة، عن أبيه.

قال الدار قطني : هما ضعيفان. وضعف عبد الملك هذا أحمد
وكذبه يحيى بن معين، قال عنه أبو حاتم : متروك الحديث، وقال ابن
حيان : يضع الحديث^(١).

الرواية الرابعة

روى البيهقي (. . . حدثنا أبو غسان محمد بن يحيى الكنانى، قال :
حدثني أبي، عن ابن إسحق، قال : كان هشام بن عروة يحدث، عن
أبيه، عن عائشة، قالت : كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها، فلما
كانت الليلة التي وُلد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في
مجلس من قريش : يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال
القوم : والله ما نعلمه، قال : الله أكبر أما إذا أخطأتم فلا بأس،
إنظروا واحفظوا ما أقول لكم، ولد فيكم هذه الليلة نبي هذه الأمة
الأخيرة، بين كتفيه علامة، وفيها شعرات متوترات كأنهم عرف فرس،
ولا يرضع ليلتين، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه في فمه
فمنعه الرضاع . . .)^(٢) وتستمر الرواية فتقول إن قريشاً تحققت من
الخبر، فكان طبق ما قاله اليهودي المزعوم، فلما أخبر بصحة نبوته وقع
مغشياً عليه، حزناً على خروج النبوة من دائرة بني إسرائيل، وقال لهم :
أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب^(٣).

(١) لسان الميزان ٢ / ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) لسان الميزان: ١ / ٩٠ - ٩١.

(٣) لسان الميزان: ١ / ٩٠ - ٩١.

ابن إسحق هنا لم يرو عن عروة، وصيغة نقله للخبر لا تكشف عن قناعة أو توثيق (قال - يعني ابن إسحق - كان عروّة يتحدث عن عائشة)، والحديث محتشد بالغرائب والمثيرات، ومن الملفت للنظر حقاً هذا الوصف المنقّر للشعرات المتوتّرات، كذلك مسألة العفريت، ولا نستبعد أنه من دسائس اليهود لاظهار خلقة النبي الكريم خارج دائرة الإستواء البشري، والرواية تعطي لليهود القدرة على التنبؤ بالمستقبل.

الرواية لا تحمل أي عنصر عقلائي، فهي في كل تضاعيفها تصطدم بالعقل والمنطق والطبيعة، وقد لا تكون محض خيال إذا قلنا، ربما كان هناك جهد يهودي ينشر ويؤسّس مثل هذه الثقافة المدسوسة في الوسط الديني آنذاك.

الرواية الخامسة

في سيرة ابن هشام (قال ابن إسحق : حدّثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري، قال : حدّثني من شئت من رجال قومي، عن حسان بن ثابت : والله إني لغلام يفقه، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كلّ ما سمعت، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمّة يثرب : يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك، مالك ؟ قال : طلع والله نجم أحمد الذي ولد فيه)^(١).

في السند : من شئت من رجال قومي.

(١) سيرة ابن هشام: ١ / ١٦٨.

الرواية تفيد أن اسم النبي الكريم كان شائعاً ومعروفاً في الوسط اليهودي، ولهذا كان الفرع المزعوم الذي يُشتَم من الرواية بالنسبة لليهود آنذاك، ومرة أخرى نلتقي بعلم اليهود وإطلاعهم غير العادي، واليهودي المُدعى هنا مجهول الإسم والأوصاف.

الرواية السادسة

في مسند أحمد (. . . حدّثني أبي عن ابن إسحق قال : حدّثني صالح ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد اخي بني عبد الأشهل، عن سلمة بن سلامة بن وقش، كان من أصحاب بدر قال :

كان لنا جار من يهود بني الأشهل قال : فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي بيسير، فوقف على مجلس بني الأشهل وقال سلمة : وأنا يومئذ أحدث من فيه سنّاً، علي بردة مضطجعاً فيها بفناء أهلي فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنّة والنار، فقال : ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له : ويحك يا فلان ترى هذا كائناً أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنّة ونار. ويجزون فيها بأعمالهم، قال : نعم - وهنا وصف مشاهد من النار والجنّة - قالوا له : ويحك وما آية ذلك؟ قال : نبي يُبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكّة واليمن، قالوا : ومتى تراه؟ قال : فنظر اليّ وأنا من أحدثهم سنّاً، فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو حي بين أظهرنا فأمنّا به

وكفر به بغيا وحسدا، فقلنا : ويلك يا خلّان ألسْتَ بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى وليس به^(١).

أخرجه ابن هشام في السيرة^(٢) عن طريق ابن إسحق، قال : حدّثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد بن سلمة به، وعن طريق ابن إسحق أخرجه الطبراني الكبير في حديث (٦٣٢٧)، والبخاري في التاريخ الكبير^(٣)، والبيهقي في دلائل النبوة^(٤) بتحقيق عبد الرحمن بن محمّد بن عثمان، والحاكم في المستدرک^(٥)، وصحّحه الذهبي في التلخيص بهامش المُستدرک، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد^(٦) بحذف السند.

هذه هي الرواية العمدة في بشارات اليهود بنبوة محمّد ﷺ، وقد أُدرجت عند قوم في خانة الروايات الصحيحة، فإذا كانت الروايات السابقة (١ - ٥) محل تردّد فإنّ هذه الرواية ذات قدر كبير من الصّحة عندهم^(٧).

الرواية تنتهي عند صحابي معروف هو (سلمة بن سلامة بن وقش) وهو قد شهد العقبتين وأخى رسول الله بينه وبين أبي سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى أو بينه وبين الزبير بن العوام، وشهد بدرّاً والخندق

(١) مسند أحمد ٣ / ٥٦٨ ح ١٥٨٤٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ١ / ٢٢٥.

(٣) التاريخ الكبير للبخاري: ٢ / ٢ / ٦٨ - ٦٩.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي: ٢ / ٣٤٦.

(٥) المستدرک للحاكم ٣ / ٤١٧ - ٤١٨.

(٦) مجمع الزوائد للهيثمي: ٨ / ٢٣٠.

(٧) طبقات ابن سعد ٣ / ٤٣٩ - ٤٤٠.

والمشاهد كلها مع رسول الله، ومات سنة خمس وأربعين وهو ابن السبعين سنة، ودفن في المدينة وقد أنقرض عقبه^(١).

فالصحابي المذكور إذن معروف ومتغلغل في الحياة الإسلامية آنذاك، فهل يُعقل مع ذلك أن يخصَّ في حديثه هذا شخصاً واحداً هو (محمود بن لبيد)؟! خاصة وإن هذا الأخير لم يكن من أرباب الرواية ولا من المتغلغلين في الحياة الإسلامية، وقد اختلف في أمره هل هو صحابي أم تابعي^(٢)، فمثل هذا الحديث ينبغي أن يتجاوز بل بطبيعته يتجاوز هذا الحد أو هذه المساحة من الإنشغال والانبساط والإتساع.

لقد كان (سلمة) كما تدعي الرواية دقيقاً في وصف اليهودي المزعوم، دقيقاً في وصف مجريات الحدث وكأنه ينقل شهادة مسؤول عن إستحقاقاتها، ثرى هل يمكن مع هذه الإحاطة الشاملة لم يعرف أسم اليهودي المتنبئ؟ ولعلّ الإحتفاظ بالاسم يوازي الإحتفاظ بكل حركة جرت آنذاك من حيث الأهميّة، وليس سرّاً إذا قلنا أنّ قضايا التنبؤ يمتزج في داخل إطارها الحدث الغريب مع الاسم بطريقة لاصقة ملتحمة، ومن الصعب إنفكاك أحدهما عن الآخر، لأنّ التنبؤ حادثة فريدة خارقة للعادة والقوانين الطبيعية، فتتعلق بصاحبها أكثر ممّا تتعلق بمفردتها أو مفرداتها. وتتوالى أهمية الاسم الغائب عندما نتذكّر حالة عناده الغريب، فهذا اليهودي كان عالماً بالمستقبل القريب الذي سوف يغيّر التاريخ، ولكن ما أن حطّ المستقبل بأولى إرهاباته المنذرة

(١) طبقات ابن سعد: ٤٣٩/٣ - ٤٤٠.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠ / ٦٦ رقم (١١٠).

والمبشرة حتى صدر منه هذا الموقف السلبي، ولكن ما هو أكثر إثارة ودهشة موقفه من إحتفاء إسمه من على لسان الراوي المباشر، وقد عاصره شاهداً ومنكراً في أخطر قضية عرفها تاريخ الإنسانية! إلا أن (محمد بن سلمة) يقول (. . . لم يكن في عبد الأشهل إلا يهودي واحد يُقال له يوشع، فسمعتة يقول: فأني لغلام في إزار، قد أظلمكم خروج نبي يُبعث من نحو هذا البيت، ثم أشار بيده إلى بيت الله، فمن أدركه فليصدّقه^(١) وروى ذلك أبو نعيم في الدلائل عن (محمد بن سلمة) هذا^(٢)، ونظرة بسيطة تكشف عن تطابق الروايتين في المحصلة العامة.

فإين الحقيقة؟!

إبن إسحق مِفْضَلُ الحدث، وهو مرفوض عند الكثير من المحدثين والرجاليين مثل عروة بن الزبير ومالك وغيرهما ممّن أخرجوه من دائرة الثقات، ويدافع بعضهم عن هذا الخلل بأعتباره - إبن إسحق صرّح بالسماع عن صالح إبن إبراهيم الثقة عندهم^(٣)، ولكن في خبرة الحياة، لا يمكن للتصريح بالسماع أو التحديث أن يذلل المشكلة إذا كان إبن إسحق غير موثّق.

هذه أهم الروايات التي تتحدّث عن بشارة اليهود بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، ذات مسانيد مخدوشة، إمّا لغموض أحد وسائطه كما في الرواية الأولى والثانية والرابعة والخامسة، أو لوجود الضعيف كما في الرواية الثالثة، أو لأن السند مرتبك العلاج واهن الإنقاذ كما في

(١) سيرة إبن كثير ١ / ٢٩٣.

(٢) نفس المصدر ١ / ٢٩٤.

(٣) صحيح السيرة النبوية هامش ٢٣.

الرواية السادسة، ومما يلفت النظر حقاً في هذه الروايات إنها لم تُروَ عن صحابة كبار، لهم صولة في حياة النبي الكريم، كما أنها محتشدة بالدلالات على مكانة اليهود في العلم والتنبؤ، خاصة وأنّ إعلامهم عن الرسول يتعدّى الأسم إلى الخصائص والمواصفات وكثير من القضايا بل وتتطرق إلى مستقبل النبوة والعالم! وتكشف الرواية الأولى عن إتجاه واضح في تكريس الشخصية اليهودية وسط مجتمع جاهل بعلوم الأديان، والرواية الثانية تنطوي على محاولة خبيثة بتجسيم الإسلام كحقيقة يهودية سابقة، والرواية الثالثة محض خرافة باهتة، والرواية الرابعة تصوّر رسول الله من خلال تلك العلامة البشعة، وما عرفنا أنّ له مثل هذه العلامة المُدعاة، كما أنّها تثير شبهة الدم كإشارة على دين الرحمة والحب، والرواية الخامسة إمتداد لسابقتها في إجلال اليهود وتضخيم علمهم المزعوم، والرواية السادسة تثير أكثر من إشكال، وفي مقدمتها هذا الغياب الغريب الذي يلفّ اليهودي المتنبئ.

لننظر مرّة أخرى إلى تركيبة المسانيد :

الرواية الأولى : [قال ابن إسحق، حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن (رجل من قومه)...].

الرواية الثانية : [قال ابن إسحق، وحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن (شيخ من بني قريضة)].

الرواية الثالثة : [... أخبرنا عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه، عن جدّه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (عبد الملك وابوه ضعيفان)].

الرواية الرابعة]... عن ابن إسحق، قال : كان هشام بن عروة يحدث عن أبيه] ولم يبيّن ابن إسحق كيفية حمله للرواية.

الرواية الخامسة :]... عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري، قال حدثني (من شئت من قومي)].

الرواية السادسة :]... عن ابن إسحق، قال : حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل، عن سلمة بن سلامة بن وقش...] وابن إسحق غير موثّق عند بعض المحدثين والرجاليين.

إن الرواية السادسة هي العمدة في هذا النسيج من الروايات، وهي حشد من المفارقات التي يصعب معها بناء تصوّر دقيق عن مثل هذه البشارات المزعومة.

الفصل الثاني

معجزات الولادة المباركة

إطالة سريعة

أُحيطت ولادة رسول الله ﷺ بفيض من المعاجز والأحداث الخارقة التي لم تكن ذا صلة بظروف البيئة التي عاش بها نبينا وحسب، بل لتتصل بكل أرجاء العالم، وتمسّ أطراف الوجود وصميم التاريخ، فهي حوادث كونية شمولية إتسعت لمساحة خلق الله الرحيب، لتصيب ثباته وتزلزل ثوابت الناس وعاداتهم وأديانهم.

يقول اليعقوبي (ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم رُجمت الشياطين، وانقضت الكواكب، فلما رأت ذلك قريش أنكرت إنقضاض الكواكب، وقالوا: ما هذا إلا قيام الساعة وأصابنا الناس زلزلة عمّت جميع الدنيا حتى تهدّمت الكنائس والبيع، وزال كل شيء يُعبد من دون الله عزّ وجل عن موضعه، وعميت على السحرة والكهان أمورهم، وحُبست شياطينهم، وطلعت نجوم لم تُر من قبل، فانكرتها كهان اليهود، وزُلزل إيوان كسرى، فسقطت منه ثلاث عشر شرفة، وخدمت

نار فارس، ولم تكن قد حدث قبل ذلك بألف عام...^(١).

اذن وتأسيساً على ما يقوله اليعقوبي كانت هناك سلسلة من المعجزات الخارقات التي تتسم بصفة الصدمة، صدمت العادة والمألوف، وتجاوزت مبدأ التحذير المحلي إلى التحذير العالمي، وجمعت في نطاق مجابقتها ومباغتتها المحسوس وغير المحسوس، ويبدو من هذا النص وغيره من النصوص في هذا الميدان أن هذه المعجزات حصلت جميعها في لحظة الولادة المباركة أو ليلتها الميمونة.

يقول ابن الجوزي (...). ولما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وغاضت بحيرة ساوة، وخدمت نار الفرس، ولم تخدم قبل ذلك بألف عام...^(٢).

يقول الطبري (...). ولما كانت ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم إرتجس أيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخدمت نار الفرس، ولم تخدم قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة...^(٣).

اذن هذه السلسلة من الخوارق إنما كانت في ليلة واحدة، هي ليلة الميلاد الطاهر، وهي خوارق تفوق حدّ التخوم المحسوبة بالأرقام

(١) التاريخ ٢ / ٨ - ٩.

(٢) المتظم لابن الجوزي ٢٠ ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٣) الطبري ٢ / ٢٥٨.

العادية، أقصد المحلية، علماً أنّ هذا الكم من الخوارق المذهلة لم ترد إدعاءً أو إخباراً عن النبي نفسه، ولم يذكر لنا التاريخ أن النبي العظيم قرن ذلك بنبوته، ولعل حصول كل هذه الخوارق في ليلة واحدة هي ليلة ولادته الميمونة تفرض هذا القرن، وليس من المعقول أن يغيب تماماً، إن واحدة من هذه المعجزات الضخام تكفي لتأسيس هذا القرن، فكيف والحال هذه الكمية المذهلة من الخوارق التي هزّت العالم كله؟!

إذا كان هناك شيء يحير العقل هو أمر هذه النار العجيبة التي إستمرت ألف عام مشتعلة تقهر الريح والنسيان والفكر، ففي هذا المجال يستوقفنا موضوع إيوان كسرى، فإذا كان في ليلة الولادة الرائعة قد تهاوى منه أربع عشرة شرفة، فأنه في ليلة المبعث قد أنقضم من وسطه من غير ثقل، كما انخرقت عليه دجلة العوراء، فحزن كسرى كما حزن في الأولى، ودعى الكهنة والعُرفاء لحل هذا اللغز العجيب كما فعل في ليلة الميلاد^(١) هذا التواصل الحميم بين ليلة الميلاد وليلة المبعث في تأثيره الإعجازي على الطاق يصمت التاريخ عن أي إلتفاته يمكن أن تبقى في ذهن كسرى، وهو الذكي اللبيب، خاصة وأنه عاش بعد البعثة سنين، تُرى هل عُدم المراجعة للربط بين الزمنين وهذا التلاقي في الإنعكاسات الحادة على طاقه المشهور؟

مجرّد سؤال عابر!

قريش ذاكرة حادة، ذاكرة عربية شديدة الحساسية للحوادث الكبيرة

(١) الطبري ٢ / ٢٧٩ - ٢٨٠.

الغريبة، فليس من المعقول أن تهمل هذا القرن بين ليلة الولادة وإنقضاء النجوم واهتزاز الدنيا وتصدع الكنائس والبيع في كل أرجاء العالم، ومن حقنا أن نسأل كيف عرف الراوي هذه المعجزة التي تقول إن كل مكان أو موضع لا يُعبد فيه الله قد تهدم وانهار وتداعى؟!!

ينتهي الطبري وغيره في هذه الرواية إلى (مخزوم بن هاني المخزومي عن أبيه) وقد مضت على الحادثة مائة وخمسون سنة بنص الطبري والبيهقي -^(١) هذا ومن حقنا أن نسأل عن مصدر هاني هذا خاصة وإن المدة الفاصلة مائة وخمسون سنة، ولم يرد ذكر لمخزوم هذا في تهذيب التهذيب وغيره من كتب رجالية.

تقول الرواية السابقة ان كسرى إرتج وهو يرى تداعي الطوق وحمود النيران المقدسة وغيرها من الظواهر الخارقة الأخرى، فاستدعى (الموبدان) -^(٢)، لحلّ هذا الإشكال المرعب، فأخبره الموبدان برؤية عرضت عليه، وكان تفسيرها عنده (حدث يكون في ناحية العرب...)-^(٣)، ثم أتمس عالماً عند النعمان بن المنذر، وذلك هو عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن ببيعة الغساني، فلم يجد عنده جواباً، وأخبره أن علم ذلك عند خالة المدعو سطيح، ويروي أنه أجاب بما يفيد نبوة الرسول الكريم ﷺ، ولسطيح هذا أخبار عجيبة غريبة / منها أنه تنبأ بظهور النبي العربي، ومنها أنه تنبأ بخلافة الصديق ومقتل عثمان بن عفان وبما يحدث في خلافة بني أمية والعباس وما

(١) دلائل النبوة ١ / ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٢١٥.

بعدهما من فتن واضطرابات، ويروون كل ذلك عن ابن عباس، قالوا :
إنه عاش ثلاثمائة سنة أو خمسمائة أو سبعمائة - (١)، ليس من ريب أن
كل هذا الحشد من الأخبار الغريبة كان من الضروري أن تقتصر
بالمعاجز السالفة، ومن ثمّ تنعكس بدلالاتها على لحظة المبعث
العظيم، وبشكل عام على قضية نبوة الرسول الكريم بما يدخلها في
سجال فكري ودلالي بين المؤمنين من جهة وعتاة الكافرين من جهة
أخرى، وهو الأمر الذي نفقته تماماً. لم نقرأ هذه المعاجز في كتب
الحديث المعتبرة ويعلق الذهبي على الرواية السابقة (هذا حديث منكر
غريب) - (٢).

(١) نفس المصدر ١ / ٢١٥ - ٢٢٢.

(٢) السيرة النبوية للذهبي ص ٣٨.

رواية النور

مصفوفة المتون

١ : في طبقات ابن سعد (أخبرنا سعد بن منصور، أخبرنا فرج بن فضالة، عن لقمان بن عامر، عن إمامة الباهلي، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت قصور الشام)^(١).

وفي السند فرج بن فضالة وقد ضعفه جداً^(٢)، والسند ينتهي إلى أبو إمامة الباهلي وكان عمره في حجة الوداع ثلاث سنوات، فالرواية على لسانه تدليس فضلاً عن كونها بحكم المرسلة في هذه الحالة، أي من مراسيل الصحابة، وفي السند أيضاً لقمان بن عامر، ذكره الذهبي في الضعفاء ولم يوثقه إلا ابن حبان، وفي توثيقه نظر^(٣).

٢ : في طبقات ابن سعد (... أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء العجلي، عن ثور بن يزيد، عن أبي العجفاء، عن النبي صلى الله عليه

(١) طبقات ابن سعد ١ / ١٠٢.

(٢) مغني الذهبي ٢ / ٥٠٩. تهذيب التهذيب ٨ / ٢٦٠ رقم ٤٨٥.

(٣) مغني الذهبي ٢ / ٥٣٥، تهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٥ رقم ٨٢٧.

وسلم قال : رأَت أُمِّي حين وضعتني سَطَعَ مِنهَا نور أضَاءت له قُصور بُصْرِي^(١) .

في السند عبد الوهاب بن عطاء العجلي ، ضَعَفَه احمد -^(٢) ، وليَّته آخرون -^(٣) ، وفي السند أيضاً أبو العجفاء ، وهو ليس من الصحابة ، وقال الحاكم : حديثه ليس بالقائم ، وقد أُخْتَلِفَ في إسمه ، قيل إنَّه هرم بن نسيم ، وقيل نسيم بن هرم ، وقال البخاري : في حديثه نظر^(٤) ، وحديثه مرسل كما هو واضح .

٣ : وفي الطبقات أيضاً (. . . أخبرنا معاذ بن العنبري قال : حدَّثنا ابن عون ، عن ابن القبطية في مولد النبي صلى الله عليه وسلم قال : قالت أمّه : رأيت كأن شهاباً خرج مني أضاءت له الارض)^(٥) ، ومن الواضح أنّ ابن القبطية لم يبين مصدره عن أم الرسول الكريم التي توفيت ، فالرواية مرسلة لأن ابن القبطية هو عبيد الله بن القبطية^(٦) .

٤ : وفي الطبقات أيضاً (١ : قال : أخبرنا محمّد بن عمر ، أخبرنا محمّد بن عبد الله بن مسلم عن الأزهرى ، ٢ : قال وحدَّثنا موسى بن عبيدة عن أخيه ومحمّد بن كعب القرظي ، ٣ : قال وحدَّثنا عبد الله بن

(١) المصدر ١٠٢ .

(٢) مغني الذهبي ٢ / ٤١٣ .

(٣) تهذيب التهذيب ٦ / ٤٥٠ رقم ٩٣٥ .

(٤) تهذيب التهذيب ١٢ / ١٦٥ .

(٥) المصدر ص ١٠٢ .

(٦) تهذيب التهذيب ٧ / ٤٤ .

جعفر الزهري، عن عمّته أم بكر بنت المسور، عن أبيها، ٤ : قال
وحدّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المدني وزياد بن حشرج، عن أبي
وجزة، ٥ : قال وحدّثنا معمر بن أبي نجيح، عن مجاهد، ٦ : قال
وحدّثنا طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس، دخل حديث بعضه
في حديث بعض...

إنّ آمنة بنت وهب قالت : لقد علقتُ به - تعني رسول الله صلى
الله عليه وسلم - فما وجدت له مشقّة حتى وضعتّه، فلما فصل منّي
خرج معه نور أضواء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثمّ وقع على
الأرض معتمداً على يديه، ثمّ أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه
إلى السماء، وخرج معه نور أضواء له قصور الشام وأسواقها، حتى
رأيت أعناق الإبل ببصرى) - (١).

وهذه الأسانيد إمّا مرسلّة أو موقوفة - والمتن كما نرى غير متّسق
العناصر، كما أنّه يختلف في بعض فقراته عن المتون السابقة، وفي
الحقيقة أنّ هذه اللحظة الكونية الرهيبة - أي أضواء العالم - بهذه
الشموليّة والدرجة لم يسجلها لنا التاريخ العربي في ذاكرته، ولم تتحوّل
إلى مادّة سجاليّة وهو أمر لا بدّ أن يحدث في خضم معركة التصديق
والتكذيب التي استمرت (٢٣) عاماً.

إنّ الحدث هو المكوّن الجوهري للتاريخ، ومثل هذه الإضاءة
المدهشة كان لا بدّ أن تأخذ مجراها في بنية الرواية العربية وشعرها
ونثرها، تماماً مثل حادثة الفيل مثلاً، ولكن للأسف الشديد أنّ شيئاً من

(١) المصدر ص ١٠١ - ١٠٢.

هذا القبيل لم يحصل، ولا نعتقد أن ذلك يعود إلى إهمال الذاكرة العربية، وهي المغرمة آنذاك بالغريب، بل لأن هذا الغريب لم يكن له نصيب من الحقيقة، وإلا ما المانع؟! وهذه أبسط الوقائع نجد صداها في شعر هذه الذاكرة وحكاياتها، كما أن هذا التداخل يجعل من فرز الحديث بقبال سنده الحقيقي أمراً عسيراً، وهذا يزيد في صعوبة الحكم.

٥: وفي سيرة الذهبي (وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحق، حدّثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معران، عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: انا دعوة إبراهيم، وبُشرى عيسى ﷺ، ورأت أمي حين حملت بي كأن نوراً خرج منها أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام) - (١).

والسند مقطوع... .

٦: وفي دلائل البيهقي عن معاوية بن صالح أن ام رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت نوراً أضاءت له قصور الشام، وفي رواية أضاءت منه قصور الشام - (٢)، وفي السند معاوية بن صالح، منهم من يرى أنه وسط، وليس بالثبت، ولا بالضعيف، ومنهم من يضعفه - (٣)، وقال أبو حاتم: لا يُحتجّ به وكان القطان لا يرضاه - (٤)، وفي السند

(١) المصدر ص ٤٢.

(٢) دلائل النبوة للبيهق ١ / ٦٨ - ٦٩.

(٣) تهذيب التهذيب ١٠ / ٢١١.

(٤) مغني الذهبي ٢ / ٦٦٦ رقم ٦٣١٥.

أيضاً سعيد بن سويد، فهو مجهول لم ينسب^(١)، وفي الضعفاء الكبير (قال البخاري سعيد بن سويد لا يُتابع في حديثه ٣ / ٤٠٨) -^(٢)، ولم نعثر له على ترجمة في كتب الرجال مثل تهذيب التهذيب والجرح والتعديل.

الينابيع الأولى

من حقنا أن نسأل عن الينابيع الأولى لرواية النور، أي على سعيد المصادر الأساسية الروائية التي تنتهي إليها سلسلة هذه الأحاديث.

* أبو إمامة الباهلي (صحابي) كان عمره إبان حجة الوداع ثلاث سنوات.

* أبو العجفاء (تابعي).

* ابن القبطية (تابعي).

* الزهري (تابعي).

* محمد بن كعب العرضي (تابعي) ولد في آخر خلافة علي عليه السلام.

* المسور (صحابي) ولد بعد الهجرة بستين، فيكون عمره عند رحيل رسول الله ﷺ حوالي ثمان سنوات.

* أبو وجزة (تابعي).

* ابن عباس (صحابي) وأحاديثه عن الرسول ﷺ بحكم المرسل لصغر سنه.

(١) لسان الميزان: ٢ / ٣٣.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠ / ١٥١ رقم ٢٨٨.

* خالد بن معدان (تابعي) - (١).

* العرباض بن سارية (صحابي).

وبالعودة إلى هذه الأسماء نكتشف أنّ طابع الإرسال يغلب على مسانيد الرواية التي نحن بصددّها، فهي تنتهي عند تابعي أو صحابي صغير السن، ولا يُعقل أنّه سمع رسول الله ﷺ وأدرك مغزى كلامه، ورواية العرباض موقوفة كما هو واضح، والرجل كان من أبناء الصقّة، والشيء الذي أريد قوله هنا، أنّ مثل هذه الأحداث الضخام لا يمكن أن تقف عند تابعي أو صحابي واحد لم يُعرّف عنه التوغل الشديد في حياة رسول الله ﷺ، إنّ الأحداث ذات الطابع الإعجازي الخارق المتوتّر روحياً إذا إقتصرت روايتها على تابعي أو صحابي غير متغلغل... إنّ مثل هذه الأحداث تثير الشك في حصولها، ونحن نقول هذا لا لأنّ مثل هذا النور المزعوم أو تلكم الظاهرة الإعجازية كثيرة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو أعظم وأشرف من كل ذلك، بل لأنّ طريقة روايتها لا تساعد على التثبيت منها، فمثل هذه الأحداث ننتظرها في رواية كبار الصحابة، وننتظرها في روايات متواترة على لسان رسول الله، وننتظرها في وقائع من السجّال والحجاج والافتخار... كل هذا لم يحصل للأسف الشديد، ذلك أنّ هناك علاقة أكيدة بين جلال الحدث - في حياة رسول الله ﷺ - والوسط الصحابي الذي كان يعيش في كنفه الشريف.

الرواية (١) مخدوشة السند بـ (فرج بن فضالة) كما أن سعد بن

(١) علوم الحديث لصبحي صالح ص ١٠٨ الهامش.

منصور مجهول، ولم يُعرَف^(١)، ومصدر الرواية إمامة الباهلي كان عمره في حجة الوداع ثلاث سنين فروايته بحكم المرسلة.

الرواية (٢) مخدوشة السند بـ (عبد الوهاب بن عطاء العجلي وأبي العجفاء) كما أنّ ثور بن زيد وإن وثقه جماعة وأثنى عليه بعض الرجاليين، إلا أنّه كان قدرياً وكارهاً لعلي بن أبي طالب عليه السلام -^(٢)، والرواية مرسلة، ثمّ أنّ عبد الوهاب يدلّس عن ثور^(٣).

الرواية (٣) مرسلة.

الرواية (٤ - ١) مرسلة أساساً، لأنّها تنتهي عند الزهري التابعي، وهي مخدوشة السند بـ (محمّد بن عبد الله بن مسلم)، فقد ضعّفه ابن معين وقال: لا يُحتجّ بحديثه، وقال كل من ابن أبي خيثمة عن ابن معين، وأبو حاتم ليس بالقوي، وقال ابن حبان: كان رديء الحفظ كثير الوهم^(٤).

الرواية (٤ - ٢) مرسلة أساساً، لأنّها تنتهي عند محمّد بن كعب القرظي، وفي السند موسى بن عبيدة وقد ضعّفوه جدّاً، وكانت روايته عن أخيه (وهي في السند الآنف) -^(٥) مرسلة.

الرواية (٤ - ٣) بحكم المرسلة لأنّ المسوّر كان صغيراً، إذ ولد بعد سنتين من الهجرة المباركة (وأم بكر) هذه لم يرد بها مدح أو ذم -^(٦).

(١) لسان الميزان ٣ / ٢٠ رقم ٦٩.

(٢) تهذيب التهذيب ٢ / ٣٤ رقم ٥٧.

(٣) تهذيب التهذيب ٦ / ٤٥٣ رقم ٩٣٥.

(٤) نفس المصدر ٩ / ٢٧٨ - ٢٨٠ رقم ٤٥٨.

(٥) نفس المصدر ١٠ / ٣٥٦ رقم ٦٣٦.

(٦) نفس المصدر ١٢ / ٤٦٠ رقم ٢٩١٧.

الرواية (٤ - ٤) مرسلة أساساً، فإبن وجزة هذا ليس صحابياً وقد توفي سنة ١٣٠ للهجرة.

الرواية (٤ - ٥) مرسلة أساساً، وابن أبي نجیح لم يرو عن مجاهد سماعاً، ذكره النسائي في المدلسين^(١).

الرواية (٤ - ٦) بحكم المرسلة لأن ابن عباس كان صغير السن في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثلاث عشر سنة، وفي سندها (طلحة بن عمرو) وهو ضعيف جداً، متروك^(٢).

الرواية (٥) مرسلة أساساً.

الرواية (٦) مخدوشة السند بمعاوية بن صالح وسعيد بن سويد.

هل هناك غاية مبطنة؟

* خرج منها نوراً أضاءت له قصور بصرى (الرواية ٢).

* خرج منها نور أضاءت له قصور الشام (الرواية ١).

* كأن شهاباً خرج مني أضاءت له الأرض (الرواية ٣).

* خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب (الرواية ٤).

وليس من ريب أن الرواية (٥) التي تقول (أضاءت له قصور بصرى من الشام) إنما هي محاولة واضحة للجمع بين أكثر من رواية تتصل بمكان محدد ومسمى، ذلك أن (بصرى من بلاد الشام)، الأمر الذي يجعل هذه الرواية مصدر تشكيك بالمساحة العالمية التي تدعيها

(١) نفس المصدر ٦ / ٥٥ رقم ١٠١.

(٢) الطبقات ١ / ١٠٢.

روايات أخرى، بل تجعلنا نشكك بإنارة الشام الصريحة في الرواية (٦)، حيث في ذيل الرواية نقرأ (. . .) خرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الابل ببصرى) - (١).

هذا التصاعد العجيب في منطقة الإنارة أو الإضاءة يكشف عن رغبة في المبالغة، بل يشكف عن تفاعل حي مع الغريب وتضخيمه وتعميقه وتأسيسه، ولكن الرواية التي تقول (أضاءت منه قصور الشام)، وهذا التأكيد على الشام، بكل تفاصيلها، القصور والابل والبيوت، هل هو بريء؟ النص سلطة خفية، والتحليل الدقيق يفتش عن السلطة الخفية.

أضاءت له قصور الشام!

أضاءت منه قصور الشام!

هي الشام!

هل هناك محاولة لتكون الشام هي المعادل الموضوعي للعالم كله؟ البعد ليس خاصّة شامية فريدة، هناك من بلاد الله ما هو أبعد من الشام، ولكنها صناعة المجد بطريقة تثير ذاكرة الإقتران بين نور النبوة ومكان بعينه، والمقصود هو المكان وليس النور.

لنقرأ هذه الرواية كي نعرف مزيداً من الأسرار هنا (حدّثنا أبو العباس محمّد بن يعقوب قال : حدّثنا أحمد بن عبد الجبار قال : حدّثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحق قال : وكانت آمنة بنت وهب أم

(١) الطبقات ١ / ١٠٢.

رسول الله ﷺ تُحَدَّثُ أَنَّهَا أُتِيَتْ حِينَ حَمَلَتْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهَا : إِنَّكَ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَيَّ الْأَرْضِ فَقُولِي : أَعِيْذُهُ بِالْوَاحِدِ ، مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ فِي كُلِّ بَرِّ عَاهِدٍ وَكُلِّ عَبْدٍ رَايِدٍ ، وَيُرُودٍ غَيْرِ رَايِدٍ فَإِنَّهُ عَبْدُ الْحَمِيدِ الْمَاجِدِ ، حَتَّى أَرَاهُ قَدْ أَتَى الْمَشَاهِدَ . . . فَإِنَّ آيَةَ ذَلِكَ أَنْ يُخْرَجَ مَعَهُ نُورٌ يَمَلَأُ قُصُورَ بَصْرَى مِنْ بِلَادِ الشَّامِ . . .)^(١) ، فَهَذِهِ الرَّوَايَةُ تَرْتَفِعُ بِقُصُورِ بَصْرَى فِي الشَّامِ ، فَهِيَ لَمْ تُضِيءَ لِلنُّورِ ، بَلْ تَمْتَلِئُ بِالنُّورِ عَلَى بَعْدِ آلَافِ الْأَمْيَالِ ، فَهِيَ مُبَارَكَةٌ ، هِيَ مُقَدَّسَةٌ ، نَالَتْ مِنَ النُّورِ حِظْوَةً عَظِيمَةً !

الرَّوَايَةُ ضَعِيفَةٌ ، وَيَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ يُونُسَ بْنَ بَكِيرٍ ضَعَّفَهُ وَلِيْنَهُ جَمَاعَةٌ^(٢) ، أَمَّا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ فَقَدْ كَذَّبَهُ مَعِينٌ ، وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ الْحَاكِمُ : لَيْسَ بِالْقَوِيِّ عِنْدَهُمْ ، تَرَكَهُ ابْنُ عَقْدَةَ ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ : رَأَيْتُ أَهْلَ الْعِرَاقِ مُجْمَعِينَ عَلَى ضَعْفِهِ ، وَقِيلَ : لَا يَتَوَرَّعُ فِي أَنْ يُحَدَّثَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ ، وَقَدْ ضَعَّفَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَلْقَ مِنْ يَحْدِثُ عَنْهُمْ^(٣) .

٧ : فِي سِيْرَةِ ابْنِ كَثِيْرٍ (ابْنِ أَبِي سُوَيْدِ الثَّقَفِيِّ ، عَنْ عَثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ حَدَّثْتَنِي أُمِّي : إِنَّهَا شَهِدَتْ وِلَادَةَ آمَنَةَ بِنْتِ وَهْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ وِلَادَتِهِ ، قَالَتْ : فَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنْظَرَهُ فِي الْبَيْتِ إِلَّا نُورٌ ، وَانِي أَنْظَرْتُ إِلَى النُّجُومِ تَدْنُو حَتَّى أَنْيَ لِأَقُولُ لِتَقَعَنَّ عَلَيَّ)^(٤) ، يَبْدُو أَنَّ أُمَّ عَثْمَانَ كَانَتْ بِخَيْلَةٍ بِالْخَبْرِ ، فَلَمْ تَسْرُبْهُ إِلَّا ابْنَهَا ، وَفِي السَّنَدِ

(١) المصدر ١ / ٧٠ .

(٢) مغني الذهبى ٢ / ٧٦٥ .

(٣) تهذيب التهذيب ١ / ٥١ - ٥٢ رقم ٨٨ .

(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٢٠٧ .

إبن أبي سويد، يروي عن (عبد العزيز بن عمران) الضعيف المتروك^(١).
٨: في الطبقات (قال أخبرنا عفان بن مسلم، أخبرنا حمّاد بن سلمة، عن أيوب، عن عكرمة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ولدته أمّه وضعتّه تحت بُرمة فأنفلقت عنه، قالت : فنظرتُ إليه فإذا هو قد شقَّ بصره إلى السماء)^(٢).

الرواية مرسلة، وحمّاد بن سلمة تغيّر حفظه في آخر عمره، وله أوهام وغرائب^(٣)، وكذب عكرمة مجاهد وإبن سيرين ومالك^(٤).

(١) تهذيب التهذيب ٦ / ٣٥٠ رقم ٦٧١.

(٢) المصدر ١ / ١٠٢.

(٣) مغني الذهبي ١ / ١٨٩.

(٤) نفس المصدر ٢٠ / ٤٣٨ رقم ٤١٦٩.

رواية السجود والختان

٩ : في الطبقات (قال أخبرنا الهيثم بن خارجة، أخبرنا يحيى بن حمزة، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وُلِدَ وقع على كفيهِ وركبتيهِ، شاخصاً بصره إلى السماء)^(١).
الرواية مرسلة.

من ظاهرة النور إلى الركوع والسجود مروراً بتلك النظرة التأملية في أرجاء السماء، وقبل ذلك إمتحان طاق كسرى ونار المجوس... من هذه السلسلة من الخوارق يطلُّ من الراوي ظاهرة جديدة، خاصة برسول الله ﷺ، إنها إحدى عمليّات التطهير الجسدي، فقد خضع هذا الجسد الطاهر لأكثر من عمليّة قيصرية على نحو إعجازي، والغاية من ذلك الطهارة والنظافة...

لقد وُلِدَ رسول الله مختوناً!

١٠ : في دلائل البيهقي (... حدّثنا الحكم بن ابان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال : ولد رسول الله

(١) المصدر ١ / ١٠٣.

صلى الله عليه وسلم مختوناً مسروراً، قال : فأعجب به جدُّه عبد
المطلب، وحضي عنده، وقال : ليكوننّ لأبني هذا شأن، فكان له
شأن^(١).

في السند الحكم بن ابان، ذكره الذهبي في المغني، قال ابن
المبارك أرم به^(٢)، وفيه عكرمة وحاله مردّدة، وله رواية مخالفة تماماً!
قال ابن كثير (وهذا الحديث في صحّته نظر)^(٣).

١١ : (روى الحافظ بن عساكر، من حديث سفيان بن محمّد
المصيصي، عن هشيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن بن أنس،
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كرامتي على الله أني
وُلِدْتُ مختوناً ولم ير سواي أحد)^(٤).

أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به^(٥)، ثمّ أورده من
طريق محمّد بن محمّد بن سليمان - وهو الباغندي - حدّثنا عبد الرحمن
بن أيوب الحمص، حدّثنا موسى بن أبي موسى المقدس، حدّثني خالد
بن سلمة، عن نافع، عن ابن عمر قال : وُلِدَ رسول الله صلى الله عليه
وسلم مسروراً مختوناً^(٦).

يعلّق ابن كثير على ذلك بقوله (وفي هذا كله نظر)^(٧).

(١) المصدر ١ / ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) المصدر ١ / ١٨٣ رقم ١٦٤٧.

(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٢٠٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

عملية الختان هذه أخذت مساراً آخر في إحدى روايات الحافظ بن عساكر، فقد روى ابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن عيينة البصري، حدّثنا علي بن محمّد المدائني السلمي، حدّثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد، عن أبيه عن بكرة (أن جبريل ختن النبي صلى الله عليه وسلم حين طهر قلبه)^(١)، قال ابن كثير (وهذا غريب جداً) -^(٢)، وقال الذهبي : قلتُ : هذا منكر^(٣) .

في قبال هذه الروايات الإعجازية نقرأ الحديث بشكل طبيعي (وقد روي أنّ جدّه عبد الملطب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها)^(٤)، وفي هذا الصدد يطالعنا الذهبي بالرواية التالية (وقال الوليد بن مسلم، عن شعيب بن حمزة، عن عطاء الخراساني، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما : إنّ عبد الملطب ختن النبي يوم سابعه وصنع له مأدبة وأسماه محمّداً)^(٥) .

قال الذهبي (هذا أصحّ ما رواه سعد)^(٦) .

أعتقد أن ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت عادية كأي ولادة عرفها بنو البشر، لا معجزات ولا خوارق، ولم يكن محمّد العظيم يحتاج إلى كل هذه المعاجز، بل ولا إلى معجزة واحدة منها، فإنّ نوره في هديه وفي ذلك كفى.

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٢١٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) مغني الذهبي ص ٢٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) المصدر ص ٢٧ .

(٦) المصدر والصفحة.

الفصل الثالث

زواج عبد الله بن عبد المطلب

أُحيط بزواج عبد الله بن عبد المطلب والد النبي الكريم ﷺ بمعجزات كثيرة، تلفت النظر وتسترعي الانتباه، فمن لحظة القرار تبدأ سلسلة وقائع غريبة في خصوص عبد الله، والملاحظ أنها تتلاحق بمعدل قياسي سرعة وتتابعاً وتوالياً، وكأنها موقوفة ومرسومة كي تأدي دوراً تمهيدياً كونياً فيما يتصل بنبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

تقول الرواية (. . . حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال : حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال : حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق قال : ثم إنصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله فمرّ به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد عبد العزى . . . عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ فقال : مع أبي، قالت : لك عندي من الابل مثل التي نحررت عنك وقع عليّ الآن . . . فقالت : إن معي أبي الآن لا أستطيع خلافه ولا فراقه ولا أريد أن

أعصيه شيئاً فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة... فزوجه آمنة وهب بن عبد مناف... وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً... وذكروا أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها عبد الله فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم.. ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي قالت له ما قالت... وهي في مجلسها فجلس إليها وقال لها : مالك لا تعرضين عليّ اليوم مثل الذي عرضت أمس؟ فقالت : قد فارقك النور الذي كان فيك، فليس لي بك اليوم حاجة^(١).

في رواية أخرى (... حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال : حدثنا يونس بن عبد بكير، عن محمد بن إسحق قال : حدثني والدي إسحق بن يسار قال : حدثت : إنه كان لعبد الله بن عبد المطلب امرأة مع آمنة بنت وهب... فمرّ بامرأته تلك وقد أصابها أثر من طين عمل به، فدعاها إلى نفسه، فأبطت عليه لما رأت من أثر الطين، فدخل فغسل عنه أثر الطين، ثم دخل عامداً إلى آمنة، ثم دعت صاحبه التي كان أراد إلى نفسها، فأبى للذي صنعت به أول مرة، فدخل على آمنة فأصابها، ثم خرج فدعاها إلى نفسه فقالت : لا حاجة لي بك، مررت بي وبين عينيك غرة، فرجوت أن أصيبها منك، فلما دخلت على آمنة ذهبت بها منك، قال ابن إسحق : فحدثت أن امرأته تلك كانت تقول : فمرّ بي وإنّ بين عينيه لنوراً مثل الغرة، فدعوته له رجاء أن يكون لي، فدخل على آمنة فأصابها فحملت برسول الله...^(٢).

(١) دلائل النبوة ١ / ٨٤، ٨٥ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.

(٢) نفس المصدر ص ٨٦.

في رواية الثالثة (... حدّثنا مسلمة بن علقمة، عن داوود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : كانت امرأة من خثعم تعرض نفسها في موسم الحج، وكانت ذات جمال، وكان معها آدم تطوف بها، كأنها تبيعها، فأتت عبد الله بن عبد المطلب فاظن أنه أعجبها، فقالت : إنني والله ما أطوف بها لأروم، ومالي إلى ثمنها حاجة، وإنما أتوسّم الرجل، هل أجد كفواً، فإن كانت لك إليّ حاجة فقم، فقال : مكانك حتى أرجع إليك، فانطلق إلى رحله، فبدأ فواقع أهله فحملت بالنبي صلى الله عليه وسلم، فلما رجع إليها قالت : ألا أراك ها هنا، قالت : ومن كنت ؟ قال : الذي واعدتك، قالت : لا، ما أنت هو، ولئن كنت هو لقد رأيت بين عينيك نوراً، وما أراه الآن...) (١).

إذا راجعنا السند في الرواية الأولى سوف نلتقي بـ (أحمد عبد الجبار) ولأهل الرجال كلام كثير في هذه الرواية، فقد ضعّفه أهل العراق مجمعون^(٢) وفي السند أيضاً يونس بن بكير، وقد ضعّفه أبو داود والنسائي وأحمد العجلي^(٣) والغريب أنّ يونس هذا شيعي مشهور حسب المصدر^(٤) ولكن كتب الرجال الشيعية لم تتعرّض له، نعم هناك يونس بن بكار وهو لم يوثق^(٥). وفي الرواية الثانية نلتقي أيضاً بـ (أحمد بن عبد الجبار) و(يونس بن بكار) والرواية عن محمّد بن

(١) نفس المصدر ٨٧.

(٢) تهذيب التهذيب ١ / ٥١.

(٣) الذهبي ٢ / ٧٦٥ رقم ٧٢٦١.

(٤) المغني ٢ / ٧٦٥.

(٥) معجم الرجال ٢٠ / ١٨٩.

إسحق، عن أبيه إسحق بن يسار، وإسحق هذا موجود في كتب الرجال
الشيعة وقد سكتوا عنه^(١).

السند مخدوش أيضاً بقول ابن إسحق هذا (حُدِّثْتُ) أي هو مجهول
المصدر بالنسبة لنا، ولا أدري لماذا يخفي سنده؟ وأعتقد أن مثل هذه
الظاهرة أي عدم ذكر المصدر تستحق الدراسة والتمعن.

في الراوية الثالثة نلتقي بـ (مسلمة بن علقمة) وقد ضعفه المازني،
عن داود بن أبي هند، قال أحمد (ضعيف الحديث، روى مناكير)^(٢).

لقد تباين الرأي في صدد المرأة التي عرضت لعبد الله كما هي في
صيغتها العامة في الرواية الأولى، فقد قيل هي أخت ورقة بن نوفل،
وهي (قتيلة)، وقد ورد ذلك في طبقات بن سعد (قال: أخبرنا محمد
بن واقد الأسلمي قال: حدثنا محمد بن عبد ابن أخي الزهري عن
عروة قال: حدثني عبيد الله بن محمد بن صفوان، عن أبيه، وحدثنا
إسحق بن عبيد الله، عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم قالوا
جميعاً: وهي قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل، وكانت تنتظر
وتعتاف، فمرّ بها عبد الله بن عبد المطلب، فدعته يستبضع منها،
ولزمت طرف ثوبه فأبى، وقال: حتى آتيك، وخرج سريعاً حتى دخل
على آمنة بنت وهب فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه
وسلم، ثم رجع عبد الله بن عبد المطلب إلى المرأة فوجدها كانت
تنتظره فقال: هل لك في الذي عرضت عليّ؟ فقالت: لا، مررت

(١) مجمع الرجال ١ / ١٩٩.

(٢) المغني ٢ / ٦٥٧ رقم ٦٢٣٥.

عليّ وفي وجهك نور ساطع ثم رجعت وليس فيه ذلك النور، وقال بعضهم : قالت : مرّرت وبين عينيك غرّة مثل غرّة الفرس ورجعت وليس هي في وجهك^(١).

الرواية من المراسيل.

في الطبقات أيضا (قال : أخبرنا هشام بن محمّد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أنّ المرأة التي عرضت على عبد الله بن عبد المطلب امرأة من بني أسد بن عبد العزى، وهي أخت ورقة بن نوفل)^(٢).

وفي السند هشام عن أبيه، وكلاهما متروكان^(٣).

وقيل إن المرأة هي فاطمة بنت مر، وفي ذلك رواية، فقد جاء في الطبقات (وأخبرنا هشام بن محمّد السائب الكلبي، عن أبي الفياض الخثعمي قال : مرّ عبد الله بن عبد المطلب بامرأة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر، وكانت من أجمل الناس... وكانت قد قرأت الكتب... قرأت نور النبوة في وجه عبد الله، فقالت : يا فتى من أنت؟ فأخبرها، فقالت : هل لك أن تقع عليّ وأعطيك مائة من الإبل؟ فنظر إليها وقال :

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حلّ فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تنوينه؟

(١) الطبقات ٩ / ٩٦.

(٢) الطبقات ١٠ / ٩٦.

(٣) مغني الذمبي ٢ / ٧١١

ثم مضى لامرأته آمنة بنت وهب فكان معها، ثم ذكر الخثعمية وجمالها وما عرضت عليه، فأقبل إليها فلم ير منها الإقبال عليه آخراً، كما رآه منها أولاً، فقال: هل لك فيما قلت لي؟ فقالت: قد كان ذلك مرة فاليوم لا، فذهبت مثلاً، وقالت: أي شيء صنعت بعدي؟ فقال: وقعت على زوجتي آمنة بنت وهب، قالت: إنني والله لست بصاحبة ريبة، ولكنني رأيت نور النبوة في وجهك، فأردت أن يكون ذلك في، وأبى الله إلا أن يجعله الله حيث جعله...^(١).

في السند هشام وابوه وقد مرّ حالهما.

روى ذلك ابن كثير (وقال أبو بكر بن محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي، حدّثنا علي بن حرب، حدّثنا محمد بن عمارة القرشي، حدّثنا مسلم بن خالد الزنجي، حدّثنا ابن جريح، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس... وساق الحديث^(٢)).

في السند: مسلم بن خالد الزنكي، ضعفه النسائي وجماعة، وقال البخاري وأبو زرعة: منكر الحديث^(٣).

وفي السند أيضاً ابن جريح المتوفي سنة ١٤٩ للهجرة (قال أبو بكر: ورأيت في كتاب علي بن المدني: سألت يحي بن سعيد عن حديث ابن جريح، عن عطاء الخراساني فقال: ضعيف، قلت: إنّه يقول أخبرني قال: لا شيء كله ضعيف)^(٤) فضلاً عن تضعيفات

(١) الطبقات ١ / ٩٦، ٩٧.

(٢) سيرة ابن كثير ١ / ١٨٧، ١٧٩.

(٣) مغني الذهبى ٢ / ٦٥٥ رقم ٦٢٠٢.

(٤) تهذيب التهذيب ٦ / ٤٠٦ رقم ٨٥٦.

أخرى، روى ذلك البلاذري وفي سنده ما سبق^(١).

أورد ابن هشام والطبري القصة السالفة، وكلاهما قال (فيما يزعمون)، وهذا تعبير دقيق - لا يورد جزافاً، وهي تدل على الشك المائل إلى التكذيب، وهذه عادة الطبري وابن هشام وغيرهما فيما يروون من أخبار ليس لها سند قوي، بل ليس لها حتى سند ضعيف^(٢) ومسانيد الطبري لا تختلف عن المسانيد السابقة التي أتضح أن جميعها مخدوشة^(٣).

وهناك اضطراب شديد في إسم المرأة المزعومة، فتارة هي أخت ورقة بن نوفل المدعوة قتيلة، وتارة هي فاطمة بنت مر، وأخرى أنها ليلة العدوية^(٤) وقد نصّ على هذا الاختلاف الكبير كل من نقل هذه القصة كما في الطبقات وابن هشام والبيهقي وغيرهم^(٥).

وهناك اختلاف واضح في الشارة التي جلبت إنتباه المرأة المزعومة في وجه عبد الله، تارة هي نور، وأخرى هي غرة.

وهناك في الحقيقة ملاحظة جديرة بالانتباه، ألا وهو موقف عبد الله من هذه المرأة الطالبة، فالروايات تنصّ أنه رفض في البداية، وقد اختلف في سبب هذا الإعراض من رواية إلى أخرى، منها...

* بسبب صحبته لأبيه عبد المطلب، فكأنه إمتنع لسبب خارجي،

(١) أنساب الأشراف ١ / ٧٩ فقرة ١٣٩.

(٢) منتظم ابن الجوزي ٢ / ٢٠٣ الهامش

(٣) الطبري ٢ / ٣٢٨ وما بعد.

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ١٦٥ الهامش نقلاً عن الروض الآنف.

(٥) منتظم ابن الجوزي ٢ / ٢٠٣ الهامش.

وليس لرادع أخلاقي، أو عرفي أو روحي، جاء ذلك في رواية ابن إسحق.

* بسبب ديني أخلاقي ملتزم، وفي هذا السياق يأتي الشعر المنسوب إليه، وهو شعر ينطق بألفاظ دينية شرعية تنم عن وعي ديني عميق أو سابقة علمية بالشرائع وأحكامها، كما في رواية الطبقات .
والغريب أنه في كلا الحالتين رجع وعاود هذه المرأة المزعومة، وهو يتنافى ومقدمات الرفض خاصة على المستوى الثاني، وخاصة وقد قضى وطراً مع آمنة بنت وهب لتوه! كما أنه قد لا ينسجم إلى حد لا بأس به مع كونه متزوجاً حديثاً، بل كما يبدو أن ذلك كان بعد لحظة الزواج كما في بعض الروايات! فكل هذا يكشف عن اضطراب الخبر وعدم أهليته للإطمئنان.

لم نعرف حقيقة هذا النور المزعوم، وكيف تم اكتشافه، والواقع أن النبوة أو بتعبير أدق أن نور النبوة ليس إفرازاً أو ترشحاً أو ظهوراً أو تجلياً في عضو، والرواية ذم قبيح في صورة مدح^(١).

حدث وهي التي تستخرج النتائج من مقدماتها، وهي القادرة على التمييز بين الملك والشيطان، وكان محمد يستمع إليها بأمانة التلميذ المخلص الخالص، وكان يستمع ليمض أحكام ودروس خديجة، ليبنى عليها المستقبل والسيرة والموقف.

(١) سيرة ابن كثير ١ / ١٧٧ الهامش.

الفصل الرابع

لحظة الوحي الأولى وقصة الغار

لحظة الوحي الأولى من المسائل المهمة والحساسة في عقيدة الإنسان المسلم، فهي نقطة الدخول إلى عالم التكليف والمسؤولية، وهي لحظة تجتذب الفكر والشعور، لأنها أخطر لحظة في تاريخ البشرية، ولا يماري في ذلك غير المعاندين، كانت بداية تاريخ جديد، وأي تاريخ، تاريخ يتجدد باستمرار، لا يلغي الوافد ولا يلغي ذاته، بل يمارس عملية الصهر الحيوي النشط، فكان حضارة وكان جغرافية وكان سعة بشرية متنامية وكان مناهج فكر، وبالتالي كان طرفاً ذا ثقل كوني في تقدير مسيرة الكون.

هناك نوعان من الروايات تتعرض لهذه البداية الانقلابية الجذرية الهائلة، نوع من الروايات يكشف عن ضمير خال بالمرّة من أي استعداد لهذه الوظيفة الثقيلة، لأنها تشير إلى كينونة مضطربة قلقة خائفة، فاجأها شيء غريب عليها في كل الأحوال، ونوع آخر من الروايات يكشف عن قلب مملوء بالاستعداد الكامل لهذه الوظيفة المقدسة، إنها تصف قلب النبي الكريم وكأنه مهياً لتلقي الثقل الكوني

الكبير. في هذه المحاولة نريد معالجة النظرية الأولى، على أن نستعرض توجهات وتصورات النظرية الثانية فيما بعد بإذن الله تعالى. روايات النظرية الأولى لها مصادرها المعتمدة ومنابعها المهمة، وهي عادة ثلاثة أصناف...

الأولى : المصادر الحديثية (البخاري، مسلم، الترمذي...).

الثانية : التراجم والسير (طبقات ابن سعد، أنساب الأشراف...).

الثالثة : التاريخ (الطبري، اليعقوبي...).

الروايات المعالجة

رواية البخاري

١ : (١ - أ) : [حدّثنا يحيى بن بكير قال : حدّثنا الليث بن عقيل عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنّها قالت : أول ما بدء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤية الا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّب له الخلاء، وكان يخلو في غار حراء فيتحنّث فيه وهو التعبّد في الليالي ذات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال : اقرأ، قال : ما أنا بقارئ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي

خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم)، فرجع بها رسول الله يرتجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه، حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة وأتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان أمرا تنصراً بالجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الانجيل بالعبرانية، ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن العم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعا، ليتني اكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟ فقال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١).

٢: (١ - ب): [حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل، عن شهاب، وحدثني سعيد بن مروان، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة، أخبرنا أبو صالح سلمويه، قال حدثني عبد الله بن يونس بن يزيد قال: أخبرني ابن شهاب أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي

(١) صحيح البخاري ١ / ١٤ ح ٣.

صلى الله عليه وسلم...^(١) وساق الحديث، وزاد عليه (وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي)^(٢).

٣: (١ - ج) : [حدّثنا يحيى بن بكير، حدّثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب وحدثني عبد الله بن محمّد، حدّثنا عبد الرزاق، حدّثنا معمر قال : قال الزهري : فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها...^(٣) وساق الحديث، وزاد عليه (وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما بلغنا حزناً غداً منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل كي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال : يا محمّد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال مثل ذلك)^(٤).

٤: (١ - د) : [عبد الله بن يوسف، حدّثنا الليث، قال : حدّثني عقيل، عن ابن شهاب سمعت عروة قال : قالت عائشة رضي الله عنها : فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خديجة يرجف فؤاده، فأطلقت به إلى ورقة بن نوفل وكان رجلاً قد تنصّر يقرأ الإنجيل بالعربية، فقال ورقة : ماذا ترى ؟ فأخبره فقال ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وإن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً]^(٥).

(١) صحيح البخاري ٣ / ٣٢٧ ح ٤٩٥٣.

(٢) نفس المصدر ٣ / ٣٢٧ ح ٤٩٥٣.

(٣) نفس المصدر ٤ / ٢٩٥ ح ٦٩٨٢.

(٤) نفس المصدر والصفحة والحديث.

(٥) نفس المصدر ٣ / ٣٧٣ ح ٣٣٩٢.

٥ : (١ - هـ) : [حدَّثنا ابن بكير، حدَّثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت : أوَّل ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فجاءه الملك فقال له : إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم] ^(١).

٦ : (١ - و) : [حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا الليث، عن عُقيل، عن ابن شهاب، قال : سمعت عروة قالت عائشة رضي الله عنها أوَّل ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، جاءه الملك فقال : إقرأ..] ^(٢).

٧ : (١ - ز) : [حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال : سمعت عروة، قالت عائشة رضي الله عنها : فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خديجة فقال زمّلوني زمّلوني، فذكر الحديث] ^(٣).

رواية مسلم

٨ : (٢ - أ) : [(حدَّثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح، أخبرنا ابن وهب، قال : أخبرني يونس، عن ابن شهاب، قال : حدَّثني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته...)] وساق الحديث كما في (١ - أ) ^(٤).

(١) نفس المصدر ٣ / ٣٢٨ ح ٤٩٥٥.

(٢) نفس المصدر ٣ / ٣٢٨ ح ٤٩٥٦.

(٣) نفس المصدر ٣ / ٣٢٨ ح ٤٩٥٧.

(٤) صحيح مسلم ١ / ٧٣ ح ٢٥٢.

٩ : (٢ - ب) : [حدّثني محمّد بن رافع، حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، قال : قال الزهري : أخبرني عروة عن عائشة : إنها قالت : أوّل من بدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي، وساق الحديث بمثل حديث يونس، غير أنه قال : فوالله لا يُخزيك الله أبداً، وقال : قالت خديجة : أي ابن العم : أسمع من ابن أخيك^(١) .

١٠ : (٢ - ج) : [وحدّثني عبد الملك بن شعيب بن الليث، قال : حدّثني أبي عن جدي، قال : حدّثني عقيل بن خالد، قال ابن شهاب : سمعت عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خديجة يرتجف^(٢) .

رواية أحمد

١١ : (٣ - أ) : [حدّثنا عبد الله، حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، حدّثنا معمر، عن الزهري، فذكر حديثاً، ثم قال : قال الزهري : فأخبره عروة، عن عائشة، أنها قالت : أوّل ما بدء به رسول الله...^(٣) وفي الزيادة الواردة في (١ - أ) .

رواية ابن سعد

١٢ : (٤ - أ) : [أخبرنا محمد بن عمر قال : حدّثني معمر بن راشد، ومحمّد بن عبد الله عن الزهري، عن عروة عن عائشة، قالت : كان أوّل ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا

(١) صحيح مسلم ١ / ٧٣ ح ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر ح ٢٥٤ .

(٣) مسند أحمد ٦ / ٢٥٩ ح ٢٦١٠٤ .

الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلها فلق الصبح، وقالت فمكث على ذلك إلى ما شاء الله، وحبّب له الخلوة فلم يكن شيء أحبّ إليه منها، وكان يخلو في غار حرّاء يتحنّث في الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حرّاء^(١).

١٣ : (٤ - ب) : [أخبرنا محمّد بن عمر قال : حدّثني إبراهيم بن اسماعيل بن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وهو بأجياد إذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجله على الأخرى في أفق السماء يصيح : يا محمّد انا جبرائيل، يا محمّد انا جبرائيل، فدعر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك، وجعل يراه كلّما رفع رأسه إلى السماء، فرجع سريعاً إلى خديجة يخبرها خبرها، وقال : يا خديجة والله ما بغضتُ بغض هذه الاصنام شيئاً قط، ولا الكهّان، وإني أخشى أن أكون كاهناً، قالت : يا ابن عمّ، لا تقل ذلك، فإنّ الله لا يفعل ذلك بك أبداً، أنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وإن خُلِقَ لكريم، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهي أوّل مرّة أتته، فاخبرته ما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ورقة : والله ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وإنّه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه أن لا يجعل على نفسه إلاّ خيراً^(٢).

(١) المصدر ج ١ (١٩٤ - ١٩٥).

(٢) المصدر ج ١ (١٩٤ - ١٩٥).

١٤ : (٤ - ج) : [أخبرنا عفان بن مسلم، أخبرنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، وإني أخشى أن أكون كاهناً، فقالت : إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم] ^(١).

١٥ : (٤ - هـ) [أخبرنا يحيى بن عباد وعفان بن مسلم قالا : أخبرنا حماد بن سلمة، قال : أخبرنا عمّار بن أبي عمّار، قال يحيى بن عباد، قال حماد بن سلمة : أحسبه عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا خديجة إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً وإني أخشى أن يكون في جنن، فقالت : لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك، فقال : إن يك صادقاً فهذا ناموس موسى، فإن يُبعث وأنا حي فسأعزّره وأنصره وأؤمن به] ^(٢).

رواية البلاذري

١٦ : (٥ - أ) : [حدّثني محمّد بن سعد، عن محمّد بن عمر الواقدي، عن ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس . . .] وساق حديث ابن سعد في (٤ - ب) ^(٣).

١٧ : (٥ - ب) : [حدّثني محمّد بن سعد، عن الواقدي، عن معمر بن راشد ومحمّد بن عبد الله الزهري، عن عروة، عن عائشة

(١) المصدر ج ١ (١٩٤ - ١٩٥).

(٢) المصدر ج ١ (١٩٤ - ١٩٥).

(٣) المصدر ج ١ (١٠٤ - ١٠٩).

قالت... [١] وساق حديث ابن سعد في (٤ - أ)، مع اختلاف ملحوظ.

١٨ : (٥ - ج) : [حدّثنا عمرو بن محمّد الناقد، حدّثنا إسحق بن منصور السلولي، حدّثنا إبراهيم بن يوسف بن أبي اسحق، عن أبيه، عن ابن اسحق قال : حدّثني أبو ميسرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أوّل ما بُعث يدعى يا محمّد ولا يرى شيئاً غير أنّه يسمع الصوت، فيهرب منه في الأرض، قال : فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد وقال : خشيت أن يكون قد عرض لي أمر، قالت : وما ذاك : قال : إذا خلوت دُعيتُ فأسمع صوتاً ولا أرى شيئاً، فقد خشيت، قالت : ما كان الله ليفعل بك سوءاً، إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتؤدي الأمانة ثم إن خديجة قالت لأبي بكر الصديق، انطلق مع محمد إلى ورقة بن نوفل فإنه رجل يقرأ الكتب، فليذكر له ما يسمع، فأطلقا حتى أتيا ورقة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إني إذا خلوت دُعيت يا محمّد فأسمع صوتاً ولا أرى شيئاً، قال له ورقة : ليس عليك بأس، فإذا دُعيت فأثبت، حتى تسمع ما يقال لك، فتثبت للصوت، فقال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم، فقال بسم الله الرحمن الرحيم، فأعادها عليه ثلاث مرّات، ثمّ قال : قل الحمد لله رب العالمين ثلاث مرّات حتى ختمها، فقال له : قل آمين، ثمّ رجع النبي إلى ورقة، فذكر له ذلك، فقال : أشهد أنك النبي الذي بشرّ به عيسى بن مريم، وأنت الذي نجد في الكتاب، وأنت لنبي مرسل، ولتؤمّرَن بالقتال، ولئن كانت لي الحياة لأقاتلن معك] (٢).

(١) المصدر ج ١ (١٠٤ - ١٠٩).

(٢) المصدر ج ١ (١٠٤ - ١٠٩).

١٩ : (٦-أ) : [قال ابن إسحق، وحدثني وهب بن كيسان مولى ابن الزبير، قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي : حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، من النبوة حين جاءه جبرائيل عليه السلام، قال : فقال عبيد - وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في غار حراء كل سنة شهراً، وكان ذلك ممّا تتحنّث به قريش في الجاهلية . . . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة . . . حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته . . . جاءه جبرائيل عليه السلام بأمر الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءني جبرائيل، وأنا نائم بنمط من ديباج في كتاب فقال إقرأ، قال : قلت : ما أنا أقرأ، قال فعتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال : إقرأ، قال : قلت ماذا أقرأ؟ فعتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال : اقرأ، قال قلت ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا إفتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال : اقرأ باسم ربك . . . قال : فقرأتها، ثم أنتهى فانصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابا، قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل فسمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل، قال : فوقفتم أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال : فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي

حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدّثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن العم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم إنطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمّها، وقد تنصّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وهو لنبي هذه الأمة، فقولني له ليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف، صنع كما يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقية ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: يا بن أخي خبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ورقة بن نوفل: والذي نفسي بيده، إنك لنبيّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكدّبته ولتؤذينه... ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم أدنى رأسه فقبّل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله^(١).

(١) سيرة ابن هشام ج ١ (٢٥١ - ٢٥٤).

٢٠ : (٦ - ب) : [قال ابن اسحق : وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير، أنه حدث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أي ابن عمّ أستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال : نعم، قالت : فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة : يا خديجة هذا جبريل عليه السلام قد جاءني، قالت : هل تراه؟ قال : نعم، قالت : فتحول فاجلس على فخذي اليمنى، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذه اليمنى، فقالت : هل تراه؟ قال : نعم، قالت : فتحول فاجلس في حجري، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها، قالت : هل تراه؟ قال : نعم، قال : فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها، ثم قالت له : هل تراه؟ قال : لا، قالت : يا بن عم أثبت وأبشر، فوالله إنّه لملك، وما هذا بشيطان.

قال ابن إسحق : وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث، فقال : قد سمعت أُمي فاطمة بنت الحسين تحدّث بهذا الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خديجة، إلّا أنّي سمعتها تقول : أدخلت رسول الله بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ هذا لملك وما هو بشيطان^(١).

(١) السيرة الهشامية (٢٥٤ - ٢٥٥).

رواية الطبري

- ٢١ : (٧ - أ) : [حدّثني أحمد بن عثمان المعروف بأبي الجوزاء
قال : حدّثنا أبي، قال : سمعت النعمان بن راشد يحدث الزهري عن
عروة، عن عائشة، أنها قالت...^(١)] وساق الحديث كما في البخاري
- ٢٢ : (٧ - ب) : [حدّثني يونس بن عبد الاعلى قال : أخبرنا ابن
وهب قال : أخبرني يونس بن شهاب قال حدّثني عروة أنّ عائشة
أخبرته، ثمّ ذكر نحوه]^(٢) [- اي نحو الحديث السابق -].
- ٢٣ : (٧ - ج) : [حدّثنا محمّد بن عبد الملك بن أبي الشوارب،
قال حدّثنا عبد الواحد بن زياد قال : حدّثنا سليمان الشيباني قال :
حدّثنا عبدالله بن شداد، قال : أتى جبرائيل محمّداً فقال : يا محمّد
إقرأ، فقال : ما أقرأ، قال فضّمه، ثمّ قال : يا محمّد اقرأ، قال : ما
أقرأ، قال : فضّمه ثمّ قال : يا محمّد اقرأ، وقال : إقرأ باسم ربك
الذي خلق...]
- قال : فجاء إلى خديجة، فقال : يا خديجة ما أراني إلّا وقد عُرض
لي، قالت : كلا والله، ما كان ربك يفعل ذلك بك، ما أتيت فاحشة
قط، قال : فأنت خديجة ورقة بن نوفل فأخبرته الخبر، فقال : لئن
كنت صادقة إنّ زوجك لنبيّ، وليلقين من أمّته شدة، ولئن أدركته
لأؤمنن به.
- قال : ثمّ أبطأ عليه جبريل، فقالت له خديجة : ما أرى بك إلّا قد

(١) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

(٢) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

قلاك، قال : فأُنزل الله عزّ وجلّ والضحى والليل إذا سجى... [١].

٢٤ : (٧ - د) : [حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا سلمة، عن محمّد بن إسحق قال : حدّثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال : سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبد الله بن عمير بن قتادة الليثي : حدّثنا كيف كان ما ابتُداً به رسول الله... [٢] وساق الحديث الوارد في سيرة ابن اسحق مع اختلاف ملحوظ (٦ - أ).

٢٥ : (٧ - هـ) : [حدّثنا سلمة قال : حدّثني محمّد بن اسحق، عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير، وأنّه حدّث عن خديجة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يثبته فيما أكرمه الله به من نبوّته : يا ابن العم أتستطيع... [٣] وساق الخبر كما في سيرة ابن إسحق (٦ - ب).

٢٦ : (٧ - و) : [حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثني محمّد بن اسحق قال : وحدّثت بهذا الحديث عبد الله بن الحسن فقال : سمعت أمي فاطمة... [٤] وساق الحديث في سيرة ابن اسحق (٦ - ب).

٢٧ : (٧ - ز) : [حدّثنا ابن المثنى قال : حدّثنا عثمان بن عمر بن فارس قال : حدّثنا علي بن المبارك، عن يحيى - يعني ابن أبي كثير - قال : سألت أبا سلمة أي القرآن نزل أوّل؟ فقال : يا أيها المدثر،

(١) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

(٢) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

(٣) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

(٤) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

فقلت : يقولون أقرأ باسم ربك، فقال أبو سلمة : سألتُ جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل أول؟ فقال : يا أيها المدثر، فقلت : أقرأ باسم ربك، فقال؟ لا أخبرك إلا ما حدّثنا النبي صلى الله عليه وسلم قال : جاورت في غار حرّاء فلما قضيت جوارى هبطت فأستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني وعن شمالي و خلفي وقدامي، فلم أر شيئاً، فنظرت فوق رأسي فإذا هو جالس على عرش بين السماء والارض فخشيت منه - قال ابن المثنى هكذا قال عثمان بن عمر - وإنما هو فُجئتُ منه فلقيت خديجة فقلت : دثروني دثروني، وصبوا عليّ الماء، وأنزل عليّ يا أيها المدثر، ورواه أيضا عن كريب بن وكيع عن علي بن المبارك الى آخر السند السابق^(١).

رواية البيهقي

٢٨ : (٨ - أ) : [قال ابن شهاب... وحدثني... سعد بن المسيب : وكان فيما بلغنا أول ما رأى أن الله عز وجل أراه رؤية في المنام فشق ذلك عليه، فذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمراته خديجة بنت خويلد بن اسد فعصمها الله عز وجل من التكذيب، وشرح صدرها للتصديق، فقالت : أبشر، فإن الله عز وجل ما يصنع بك إلا خيرا، ثم إنه خرج من عندها ثم رجع إليها، فأخبرها بأنه رأى بطنه شق، ثم طهر وغُسل، ثم أعيد كما كان، قالت : عدل خير فابشر، ثم أستغلق له جبريل عليه السلام وهو بأعلى مكة فاجلسه على مجلس كريم مُعجب، كان النبي يقول : أجلسني على بساط كهيئة الدرنوك، فيه

(١) الطبري ج ٢ (٢٨٣ - ٣٩١).

الياقوت واللؤلؤ، فبشره برسالة الله عزّ وجل، حتى أطمأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له جبريل ﷺ: إقرأ، فقال: كيف أقرأ، قال: إقرأ باسم ربك الذي خلق... ويزعم ناس أن يا أيها المدثر أول سورة أنزلت عليه والله أعلم.

قال ابن شهاب: وكانت خديجة أول من آمن بالله وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تُفرض الصلاة، قال: وقبل الرسول رسالة ربه عزّ وجل واتبع ما جاء به جبريل ﷺ من عند الله عزّ وجل، فلما قبل الذي جاءه به من عند الله تعالى، وانصرف منقلباً إلى بيته جعل لا يمر على شجرة أو صخرة إلا سلّم عليه، فرجع مسروراً إلى أهله موقناً قد رأى أمراً عظيماً، فلما دخل على خديجة قال أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام، فإنه جبريل ﷺ إستعلن لي، أرسله ربي، وأخبرها بالذي جاءه من الله عزّ وجل، وما سمع منه، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فاقبل الذي جاءك من عند الله، فإنه حق... ثم انطلقت مكانها حتى أتت غلاماً لُعبة من ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل بنيوى يُقال له عداس، فقالت: يا عداس أذكرك الله أما أخبرتني هل عندك علم من جبريل، فقال عداس: قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان! خبريني بعلمك فيه، قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى ﷺ، فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل... فلما وصفت خديجة له حين جاءته شأن محمد صلى الله عليه وسلم ذكرت له جبريل ﷺ، قال لها ورقة: يا بنية أخي: ما

أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، وأقسم بالله لئن كان أياه ثمّ أظهر دعاءه وأنا حيّ لأبليّن الله في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وحسن مؤازرته الصبر والنصر فمات ورقة^(١) ورواها بسند (عن ابن لهيعة، عن أبي الاسود، عن عروة)^(٢).

٢٩ : (٨ - ب) : [... قال حدّثنا عبيد بن شريك قال : حدّثني يحيى، قال : حدّثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب : إنّ محمّد بن النعمان بن بشير الانصاري كان يسكن دمشق أخبره : إنّ الملك جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اقرأ، قال : فقلت ما أنا بقارئ، فعاد إلى مثل ذلك، ثمّ أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فعاد إلى مثل ذلك، ثمّ أرسلني فقال لي : اقرأ باسم ربك ...]^(٣).

هذه هي أهم الرويات التي تتحدّث عن إبتداء الوحي بالنسبة لنبيينا الكريم محمّد ﷺ وما واكب تلك اللحظة الكونية الخطيرة من أحداث وملابسات وظروف، وكل الروايات الأخرى لا تخرج عن هذه المضامين والتصورات والاستحقاقات والأسانيد، ولك أن تراجع في ذلك أمهات الكتب والمصادر والأسفار الحديثية والرجالية والتاريخية^(٤).

(١) دلائل النبوة ج ٢ (١٤٢ - ١٤٥).

(٢) نفس المصدر ص ١٤٦.

(٣) المصدر ص ١٣٩.

(٤) سنعرض لروايات أخرى في هذا الموضوع في المكان المناسب.

فرز الروايات المعنيّة

نحن نتحدّث ونعالج لحظة الوحي الأولى، لحظة معينة في حياة الرسول الكريم ﷺ، تلك هي لحظة الوحي الأولى، أو بالدقة لحظة إبتداء الوحي، ولذا فإنّ بعض الروايات السابقة لا تدخل في هذا المجال رغم إيهامها بذلك، ورغم إندراجها عند روايتها ومصنفها تحت عنوان يغري بأخذها في هذا النطاق، وعليه لابد من طرحها على صعيد صياغة تلك اللحظة التي تشكّل أخطر بداية عرفها التاريخ البشري سابقاً ولاحقاً في تصورنا نحن أتباع هذا النبي الأمي العظيم.

أولاً : إنّ روايات البخاري (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧) تنصبّ بشكل وآخر على تلك اللحظة أو بعض حولياتها القريبة، فهي تصف لنا كيف أستقبل الرسول الوحي، وكيف تصرّف بعيد ذلك، وما هي مستحقات العملية في كثير من الأمور والمجالات، وفي الروايات زيادة ونقص واختلاف، سوف نأتي على التأمل مع هذه المفارقات.

ثانياً : روايات مسلم [٨، ٩، ١٠] هي الأخرى تصب في هذا الاتجاه، مع الأخذ في نظر الاعتبار مفارقات الزيادة والنقصان والاختلاف في تضاعيف الروايات.

ثالثاً : رواية أحمد في مسنده رقم (١١) منسجمة مع رواية البخاري خاصة (١ - ب) أي تتعلّق باللحظة التاريخية الكونية بالذات مع استحقاقاتها التي تذكرها الرواية.

رابعاً : أما روايات ابن سعد فالذي يمكن أن نلاحظه عليها

ما يلي : -

* ان الرواية رقم (١٢) تتحدّث عن (إعداد) ما قبل اللحظة إذا صحّ التعبير، فهي تستعرض موضوع الرؤيا الصادقة والتحنّث ثمّ تختم (حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء)، وعليه تكون هذه الرواية غريبة عن النقطة الأساسية التي نحن في صدها.

* الرواية رقم (١٣) هي الاخرى غريبة لا تتصل بابتداء الوحي الفعلي، الوحي القرآني الذي يعتبر البداية الحقيقية للوظيفة النبوية.

* الرواية رقم (١٤) كسابقتها.

* الرواية رقم (١٥) لا تختلف عن أخواتها على صعيد عدم تصديها لموضوع النقطة الجوهرية في الموضوع الذي نحن في شأنه.

إنّ روايات ابن سعد تتحدّث عن ظواهر معينة صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا ندري هل هي قبل لحظة الوحي أم أثناءها أم بعدها، وإنّ كان الاحتمال الأول أقرب للفهم كمن يعطيه لحن الخطاب.

خامساً : روايات البلاذري (١٦ ، ١٧) ذاتهما روايتا ابن سعد عن الواقدي أي (١٢ ، ١٣)، التي تكلمنا عنهما سابقاً، والرواية رقم (١٨) ليس لها علاقة بالوحي القرآني الكريم، وظاهرها أنها تتعلّق بالجنبه الاستعدادية أو جنبه الإعداد إذا صحّ التعبير.

سادساً : رواية ابن اسحق رقم (١٩) تعالج القضية في روحها، أي لحظة الوحي القرآني، فهي على وزان روايات البخاري ومسلم وأحمد.

سابعاً : رواية ابن اسحق المرقّمة (٢٠) يبدو أنّها تتحدّث عن مرحلة لاحقة من الوحي القرآني الكريم.

ثامناً : روايات الطبري (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ١٧) فانها لاشك
تعالج لحظة الوحي القرآني.

تاسعاً : روايات الطبري رقم (٢٥، ٢٦) فهما بعيدتان عن اللحظة
المقصودة.

عاشراً : رواية البيهقي رقم (٢٨) تعالج المسألة بنقطتها
الجوهريّة، كذلك روايته رقم (٢٩).

وبناء على ذلك تكون كل من الروايات (١٢، ١٣، ١٤، ١٥،
١٦، ١٧، ٢٠، ٢٥، ٢٦) لا تنطرق إلى لحظة الوحي المحمّدي
الأولى، وإنّما تتحدّث عن مراحل لاحقة أو سابقة، ولكن لا يعني هذا
أننا سوف نهملها تماماً في البحث، بل قد نحتاجها في تفصيل مجمل
أو ايضاح مبهم، أو دعم برهان، وخدمة للبحث سنعمل إضافة لذلك
على دراسة شيء من سندها ومنتها.

مسانيد الروايات غير المعنيّة

الرواية رقم (١٣) : في سندها داود بن حصين وقد ضعّفه جمع من
الرجالين، منهم ابن عيينة وأبو زرعة وأبو حاتم والساجي والجوزاني^(١)
وفي سندها أيضاً (اسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة)، فقد قال عنه ابن
معين ليس بشيء، وقال مرّة : يكتب حديثه ولا يُحتج به، وقال أبو
حاتم : شيخ ليس بالقوي، يُكتب حديثه ولا يُحتج به، منكر الحديث،
وقال البخاري : منكر الحديث، وقال النسائي : ضعيف^(٢) وقد ضعّفه

(١) تهذيب التهذيب ٣ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢) نفس المصدر ١ ص ١٠٤ وقد ضعّفه كثيرون.

كثيرون غير الذين ذكرنا - هذا فضلاً عن التردد في شخصية عكرمة، والرواية في حكم المرسلة، لأن ابن عباس لم يروها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي من مراسيل الصحابة.

لست من المُغرمين بفحص السند والتعويل عليه، ولا من المُغرمين بالكشف عن المعاني والدلالات بقدر هيامي باكتشاف الوظيفة، وظيفة النص ضمن علاقة جدلية حية بين المعرفة والقوة، فليس هناك نص بريء حتى إذا كان رواة الحديث ثقة، بل توثيق الرواة ذاته لا يسلم بأي حال من الأحوال من الانحياز بدرجة من الدرجات، ولكن عملاً بمجارات العرف العلمي السائد في الخطاب الديني، أراني مضطراً إلى اللجوء لذلك في حدود فائدة قد نجنيها، ولو على صعيد التواصل مع محبي ورواد هذه المدرسة، وسوف نحاول تشريح وظيفة النص آجلاً، ولكن هل يعني هذا إهمال الدرس التاريخي الذي يؤكد على تناقض النص والحادثة والزمن؟ بطبيعة الحال أن مثل هذا الإهمال يقود إلى جذب غير مرغوب فيه، لأن العمل الذي نحن في صدده هو أقرب إلى التحقيق منه إلى استخلاص قوانين أو شروط تمظهر التاريخ.

الرواية تجسّم عمل جبرائيل بنمط بدائي خيالي، وتكشف عن شخصية محمّدية غير واثقة من نفسها، ضعيفة مرتبكة، وهو الأمر الذي يتناقض في كل الأحوال مع واقع هذا الإنسان الرّصين، الذي غيّر مجرى التاريخ بمعدلات كونية ولا يزال! فمن غير المعقول، وذلك على ضوء معطيات حياته وسيرته أن يكون نهب هوس الاصابة بالكهانة أو ما يشبه ذلك.

الرواية رقم (١٤) في سندها (حماد بن سلمة) وهو وإن وثقه جماعة، ولكن البخاري تركه لأنه أُصيب بالنسيان، ثم هنا كلام حول نزاهة ما يُنسب إليه من حديث! ومرة أخرى أجدني لا أتفاعل مع مثل هذه الروايات التي تتضمّن خوف محمّد من الإصابة بمرض الكهانة، فذلك ما لم يطرأ على بال في ضوء كل الحالات التي نعرفها عن محمّد، ثم إن الحديث يجمد عند (عروة)!)، ذلك أن عروة لم يكشف لنا عن مصدره، وعروة من التابعين، إنّه حديث مرسل، فقد ولد لست سنين خلت من خلافة عمر ومات بعد المائة^(١) وأعتقد من الصعب الاعتماد على الروايات المرسلة ليس في الأحكام وحسب، بل في التاريخ وخاصّة إذا كانت القضية تمس عقيدة أمة بكاملها.

الرواية رقم (١٥) في سندها خلل واضح، ذلك قول حماد بن سلمة (أحسبه عن ابن عباس)، فضلاً عن (عمّار بن أبي عمار)، فقد تكلم فيه شعبة، وقيل عنه (كان يخطئ)^(٢).

الرواية رقم (١٦) في سندها داود بن حصين وابن أبي حبيبة وقد مرّ حالهما.

الرواية رقم (١٧) في سندها محمّد بن عمر الواقدي وهو عند الجمهور (مُجمع على تركه)^(٣) و(محمّد بن عبد الله) ضعّفه ابن معين ويحيى، وقال أبو داود ليس بقوي^(٤).

(١) نفس المصدر ٧ ص ١٨٤.

(٢) تهذيب التهذيب ٧ ص ٤٠٤.

(٣) المغني في الضعفاء ٢ ص ٦١٩.

(٤) تهذيب التهذيب ٩ ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

الرواية رقم (١٨) في سندها إبراهيم بن يوسف بن إسحق، قال ابن معين : ليس بشيء، وقال النسائي : ليس بالقوي، وقال الآجري : سألت عنه أبا داود فقال ضعيف^(١) قال ابن كثير (وهو مرسل وفيه غرابة، وهو كون الفاتحة أول ما نزل)^(٢).

الرواية رقم (٢٠) في سندها اسماعيل، وهو ليس من الصحابة، ثم هناك ثغرة في السند تكمن في قوله (حُدِّثَ عن خديجة) فالواسطة بينه وبين خديجة مجهولة.

الرواية رقم (٢٥) مضى نقدها في الرواية رقم (٢٠).

الرواية رقم (٢٦) منقطعة.

قراءة في المتون السابقة

هذه الروايات مخدوشة السند بشكل وآخر، ومتونها مثيرة، خاصة تلك التي تصوّر النبي بالوجل الخائف المرتعب من هاجس الكهانة، كما في الروايات (١٣، ١٤، ١٦)، وتلك الرواية التي تنسب هذا الرجل خوفه من (الجنون) كما في الرواية رقم (١٥)، لا أنطلق في ذلك من قبليات دينية، بل من الواقع، فإنّ قوّة شخصية محمّد تنازع هذا الهاجس، لا تخضع له، وليس هناك من شاهد تاريخي يثبت بأنه تعرّض أو سلك بما يشير إلى هذا الهاجس الغريب، ولم يساوره شك في لحظة من اللحظات بنبوته ورسالته، كان يتابع شؤونها بالتفصيل، يناضل من أجلها باستمرار.

(١) تهذيب التهذيب ١ ص ١٨٣.

(٢) سيرة ابن كثير ١ ص ٣٩٩.

الرواية رقم (١٨) واضحة الوضع، فهي إضافة إلى تضمّنها الخوف الذي ترفضه شخصية محمّد فإن راويها يدّعي أنّ خديجة أرسلت مع النبي أبا بكر إلى ورقة بن نوفل ممّا يصطدم بكل الروايات الأخرى، وفي النص تتجلى وظيفة الصراع على القرب الشخصي من محمّد ﷺ، هناك إنحياز في النص المزعوم، ثمّ تدّعي الرواية بأنّ ورقة كان يعرف الفاتحة، فهل هو توظيف آخر لصالح ورقة مثلاً؟ سوف ندرس بعض معالم شخصية ورقة في السطور التالية. نقرأ في هذه الروايات بأن ورقة بن نوفل كان يماهي بين محمّد وموسى، ولكن كلمة الله عيسى حلّ هنا محل الكليم موسى، فهل هناك مواقف خفية تعمل على تصميم التفضيل في سياق الاقتراب والابتعاد عن النبوة الجديدة؟ النصوص ليست بريئة أبداً... لقد زُجّ إسم أبي بكر في متن الرواية بطريقة إعتباطية غير مدروسة.

إن الرواية رقم (١٨) مرتبكة في كل دواعيها وأركانها، من السند إلى المتن إلى اجوائها وظروفها وإيحائاتها، وقد جاء في السيرة الحلبية عن الخبر أو الرواية (قال بعضهم: أسناده ليس بالقائم)^(١).

الرواية رقم (٢٠) المنقطعة (لسقوط الواسطة بين اسماعيل بن ابي حكيم وخديجة التي يدّعي أنّها أصل الرواية) فإن مضمونها يثير الشفقة والرثاء، ذلك أن خديجة تحتل مرتبة الأستاذية لمحمّد، فهي تفسّر الخبر. إن هذا الانتقال في المشاهد بين فخذ وآخر، والتقلّب بالحالات الخارجية من الخمار إلى الحجاب، قد يشي عن نوازع جنسية مخيالية

(١) السيرة الحلبية: ١ / ٢٤٥.

لدى الراوي، وربما أراد الاستفادة منها لتقريب الغرض، ومهما يكن يكشف عن مخيال مسرحي مخدوم الوظيفة والفن، ومما يثير الاستغراب حقاً أن محمّداً كان يؤمن بأن الذي كان يأتيه هو جبرائيل (يا خديجة هذا جبرائيل ﷺ قد جاءني)، ولذا نتساءل عن موقع كل الذي جرى بعد هذا اليقين؟ أنّها رواية مضطربة المتن متألّكة الاطراف متنافية التضاعيف، وعلى وزانها في السند والمتن الرواية رقم (٢٥) والرواية رقم (٢٦)، تتعارض شيئاً ما، بل في عنصر جوهرى مع الروايتين (٢٥، ٢٠)، ذلك أنّ خديجة هنا أدخلت محمّداً (بينها وبين درعها فذهب عند ذلك جبرائيل)، حيث تبقى خديجة محافظة على مركزها في الرواية كمفسّرة، عالمة، عارفة، ومحمّد هو المتلقي!

تتجلى حقيقة العلاقة بين النص والسلطة هنا، فخديجة هي المعنية في النص وليس محمّداً ولا الوحي، نحتاج إلى مزيد من تحليل، وهذا ما سوف نلتقيه بعد حين.

إن أي دور لخديجة يتعدّى مهمة الاسناد المادي والمعنوي في علاقتها بالرسول الكريم يثير الشكوك، وإنّ أي دور لخديجة يجسّد الاستاذية أو يعطيها مهمّة توضيح وبيان قضايا الوحي مرفوضة ليس في المنطق الإسلامي وحسب بل في المنطق العادي أيضاً، بل حتى في ضوء معلوماتنا عن محمّد، فنحن لم نعهد لخديجة أيّ دور إرشادي توجيهي في حياة النبي الكريم ﷺ، لم يشر التاريخ إلى أي دور قيمى أو قيادي أو تعليمي لخديجة بالنسبة للرسول في حياتها منذ الزواج وحتى وفاتها، كانت طائعة مطيعة لمحمّد في كل حركاته وسكناته،

وعليه يكون إعطاء دور الترشيد الفكري والميتافيزي لخديجة بالنسبة لمحمد يصطدم مع التاريخ.

نظرة بسيطة لهذه الروايات تقودنا إلى ما تجيش به من اضطراب واختلاف وتضارب في أكثر من عنصر وآخر في داخل بنياتها التكوينية.

* إن خشية محمد تأخذ صوراً متعددة من متن لآخر، فهي تتردد بين الكهانة كما في الرواية (١٣، ١٤)، والجنون كما في الرواية رقم (١٥) ومجهولية هذا الخوف في حقيقة الهوية المرتقبة طبق الرواية رقم (١٨)، ومن الطبيعي أن عدم التطابق بين هذه الحالات يُضعف من قيمة الإطمئنان إليها، خاصة وأن الكهانة مُصطلح له خواصه وفضائياته، والجنون حالة أخرى تختلف عن الكهانة، وهناك تقريب للجنون غير المتعارف عليه، ينسبه إلى الجن، أي كون صاحبه مسكوناً بالجن، فيما الغموض يُلّف الموقف في الرواية رقم (١٨) فضلاً عن أنّ الثبات والإصرار والقوة التي يتمتع بها محمد تنفي كلها مثل هذه الإمضاءات الهشة.

* نقرأ في الرواية رقم (١٣، ١٥) أنّ خديجة ذهبت لوحدها إلى ورقة بن نوفل لتقصّ عليه نبأ محمد أما الرواية رقم (١٨) فتطالعنا بشيء جديد، مغاير تماماً، ذلك أنّ خديجة أرسلت أبا بكر ومحمداً المُبتلى إلى القس المزعوم ورقة بن نوفل كي يحلّ اللغز، وهناك دار حوار بين ورقة ومحمد، هذا فضلاً عن أنّ هناك روايات أخرى تدّعي أن خديجة والرسول ذهبا معاً إلى ورقة، كما أنّ دوري خديجة وورقة يغيبان تماماً في الرواية رقم (١٤).

* نقرأ أنّ خديجة عندما كانت تريد أن تخفف من روع النبي تارة تناديه يا ابن العم، وأخرى يا ابن عبد الله.

* وتتباين هذه الروايات في تشخيص أوليات الأزمة، فهي تارة صورة جبريل في السماء، وأخرى الصوت والنداء، وثالثة الضوء، وهكذا. هذا وربما نواصل المعالجة في السطور التالية.

الروايات المعنيّة

١

تتحدّث الروايات (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٢٩) عن لحظة الوحي الأولى بوضوح، أي عن لحظة المشروع النبوي الكبير في بدايته المجسّمة المسّمات على صعيد الفعل والقول والمهمة والتكليف، سواء كان أوّل ما نزل من القرآن سورة (اقرأ) أو سورة (يا أيها المدثر) كما في رواية جابر الأنصاري (٢٧ / ٧ - ز) أو سورة الفاتحة (١٨ / ٥ - ج)، وسواء كان ذلك في اليقظة أو في المنام كما في رواية ابن إسحق (١٩ / ٦ - أ)، وأمضاها الطبري في تاريخه^(١)، والمطلوب هو إجمالة النظر في هذه الروايات سنداً ومتناً. وفي الحقيقة هناك أكثر من رواية في هذا الكم تستدعي النظر قبل غيرها لأسباب فنيّة وعلمية.

الرواية (١٩ / ٦ - أ)

هذه الرواية مرسلة لأنّ عبيد بن عمير بن قتادة الليثي تابعي توفي

(١) تاريخ الطبري ٢٤ / ٧ - د.

سنة ٦٨ للهجرة^(١) وروايته اشبه بالقصة، ومن غرائب هذه الرواية مفادها الصريح أن الوحي زار النبي في حالة النوم، حيث يقول صاحبها على لسان النبي (... فجاءني جبرائيل وأنا نائم بنمط من الديباج فيه كتاب فقال إقرأ... .) لكن أكثر أهل الأخبار بأن الوحي كان في اليقظة (لأن الوحي بالنبوة لا يمكن أن يكون في حالة نوم، ثم إنه لا يختلف في هذه الحالة عن الرؤيا التي تظهر للأشخاص في الأثناء)^(٢) وفي الرواية نجد ما لم نجده في روايات أخرى، مثل مقابلة ورقة للنبي أثناء طوافه بالكعبة وتقيله يافوخه، والغريب أن الرواية تنبئ عن معرفة خديجة لظواهر النبوة!

الرواية أشبه بالقصة، ذلك أن مصدر الرواية هو (عبيد بن عمير بن قتادة الليثي)، وهذا الرجل (كان أول من قص)^(٣) بل هو متخصص في هذا الفن فقد عُرف عنه أنه (كان قاص مكة)^(٤).

حاول بعضهم تأويل موضوع النوم بقوله (ويحتمل أن هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلة إذ ويحتمل أنه كان بعده، والله أعلم)^(٥). هذا التأويل في تصوري بارد جداً، لأنه خلاف اللفظ الواضح الصريح القاطع.

روى الطبري هذه الرواية كما ذكرنا آنفاً (٢٤ / ٦ - أ) بسنده

-
- (١) تهذيب التهذيب ٦ ص ١٤٧ رقم ١٤٨
 - (٢) تاريخ العرب في الإسلام لجواد علي ص ١٥٥.
 - (٣) سير أعلام النبلاء ٤ ص ١٥٧.
 - (٤) المعرفة والتاريخ ٢ ص ٢٤.
 - (٥) سيرة ابن كثير ١ ص ٤٠٤.

المذكور الذي ينتهي فيه إلى محمّد بن اسحق عن وهب بن كيسان سماعاً عن عبيد وهو يقصّ، وفيه زيادة أو زيادات مهمة (قال - أي رسول الله في حديثه إلى خديجة بعد أن فجأه الوحي باقراً - ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إليّ من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر اليهما، قال : قلتُ إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون، ولا تحدث بها عني قريش أبداً، لأعمدّنّ إلى حالق من جبل، فلا طرحنّ نفسي منه، فلاقتلنها فلاستريحنّ)^(١) وروى البيهقي الرواية ذاتها مع هذه الزيادة أي طبق ما ورد في الطبري، ونقله الذهبي في تاريخ الإسلام (٣ / ١٣٠ - ١٣٢)، عن ابن إسحق مشيراً إلى الزيادة أعلاه، ولم يعط رأياً في الرواية، وآخرون بذات السند القصصي السالف.

الرواية رقم (٢٧ / ٧ - ز)

هذه الرواية نجدها في غير الطبري أيضاً، فقد أخرجها البخاري ح ٤٩٢٢ عن يحيى، عن وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة، كذلك في تفسيره لسورة العلق، ثمّ مسلم في كتاب الأيمان ٧٣ باب بدء الوحي إلى رسول الله ح ٢٧٥ بسنده عن يحيى بن أبي سلمة عن جابر.

في سنده : علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير ولكن (رواية يحيى عن أبي كثير منها رهماء)^(٢) والغريب أنّ الزهري يروي عن أبي

(١) الطبري ٢ ص ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) تهذيب التهذيب ٧ ص ٣٧٥ رقم ٦٠٩.

سلمة عن جابر أن قوله تعالى (يا أيها المدثر) نزلت على رسول الله بعد فترة الوحي بل بعد فتوره المعروف (عن ابن شهاب قال : سمعتُ أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ثم فتر الوحي عني فترة فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني في غار حراء قاعد على كرسي فجثيت منه فرّقا، حتى صرت إلى الأرض، فجثت أهلي فقلت : زملوني زملوني، فزملوني فأنزل الله عز وجل يا أيها المدثر) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب وثيابك فطهر^(١)، كذلك مسلم^(٢) ومسنده أحمد بن حنبل^(٣)، ولا يخفى وجه التناقض بين الروایتين، قال الإمام النووي (القول بأن أول ما نزل يا أيها المدثر ضعيف باطل)^(٤).

الرواية (٢٨ / ٨ - أ)

رواها البيهقي في سنده السالف ونقلها ابن كثير في البداية والنهاية^(٥) عن موسى بن عقبة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، وذكره السيوطي^(٦) عن أبي النعيم، وعن البيهقي عن طريق موسى بن عقبة، عن ابن شهاب أي الزهري، وأول ما يُلاحظ على الرواية

(١) صحيح البخاري ح ٤٩٢٤، ٤٩٢٥.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٧٣) ح ٢٥٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٣/٣٢٥.

(٤) السيرة الحلبية ٢ / ٢٥١.

(٥) البداية والنهاية: ٣/١٣.

(٦) الخصائص الكبرى ١/٩٣.

الإرسال، فضلاً عن أن ابن معين كان يضعف موسى بن عقبة بعض الشيء^(١) (وقال الاسماعيلي في كتاب العتق : يُقال لم يسمع موسى بن عقبة من الزهري شيئاً)^(٢) وقد ذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير هذه القصة وزاد عليها (ففتح جبرائيل عيناً من ماء فتوضأ ومحمد صلى الله عليه وسلم ينظر إليه فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين ثم نضح فرجه وسجد سجدين في مواجهة البيت ففعل محمد كما رأى جبريل يفعل)^(٣) وهي رواية مرسلة بهذا السند.

الرواية تتألف من مقاطع . . .

المقطع الأول : نقرأ أكثر من مفردة ملفتة للنظر، منها شق البطن المزعوم، ومنها إجلاس جبرائيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الكرسي الياقوتي، وفي هذه الأثناء حصلت لحظة الوحي القرآني.

المقطع الثاني : نقرأ مفردات غريبة أخرى منها رؤية النبي ﷺ جبرائيل في المنام، وفي الأثناء بشر جبرائيل محمداً بالنبوة! وفيها تبشير خديجة لمحمد بالنبوة أيضاً.

المقطع الثالث : نقرأ عن ذهاب خديجة إلى (عدّاس) المزعوم الذي أعطاها فكرة واضحة عن الوحي وفلسفته ومهمته.

المقطع الرابع : نقرأ عن ذهاب خديجة إلى (ورقة بن نوفل)

(١) تهذيب التهذيب ١٠ ص ٣٦٥ رقم ٦٣٨.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠ ص ٣٦٥ رقم ٦٣٨.

(٣) البيهقي ٢ / ١٤٥.

فقصّت عليه ما حصل لرسول الله ، فأمضى نبوّته ومات ورقة بن نوفل في الحال .

الواقع : إن إتصال الوحي برسول الله أبان اليقظة وهو يتلو عليه إقرأ أو يا أيها المدّثر تكفي لأثبات نبوّته ، وعندها لا حاجة إلى ذلك الدليل البائس برواية عروة على لسان النبي ، أي الرؤية في المنام التي جعلها عروة الدليل التأسيسي على نبوة محمّد ، وأنها هي ذاتها التي فسرت ماهية وحقيقة الإتصال الأوّل الذي تدشّن بأوّل آية نزلت على قلب الرسول الكريم ، وهذا التصوير إفتئات على العلم وتعدي على الحقيقة ، وهو أشبه بذلك الذي يستدلّ بالاخفى على الخفي ، خاصّة وإنّ الوحي كان قد أعدّ للنبي ذلك الكرسي الخيالي الرائع ، الذي لا يخرج عن مملكة المخيال الاجتماعي المتعلّق بصور الأحجار والمعادن الكريمة ، فأى دلالة أجلى من هذا الاتصال الحسيّ بين النبي وجبرائيل ؟ فما قيمة تلكم الرؤية إذن لتكون مُفسّرة لهذا الوضوح الصريح ؟ ونحن هنا نناقش الرواية على ضوء منطقتها الداخلي المتداعي ، وإلا فإنّ مسألة هذا الكرسي هي الأخرى تدعو إلى الرثاء ، لأنها تمثل بحق العقلية التجسيمية الخرافية ، ولا أعتقد أن تقدير النبي وإجلاله يتم بهذه الطريقة الحسية الغليظة ، ومهما يكن من أمر ، فإنّ موضوع (شق البطن) أثار فضول أهل الغرب استفساراً وتفسيراً وتوجيهاً ، فقد إدعى بعضهم أنها ذات العملية المزعومة التي حصلت معه قبل البعثة والمعروفة بـ (شق الصدر) ، ويرى آخرون أنّها حصلت مرّة أخرى ، وأوصلوها إلى ثلاث مرّات !! وهذا يعني أن رسول

الله ﷻ (ظَهَرَ) داخلياً ثلاث مرّات أيضاً، مما يشير حقاً استغراب الفطرة والعقل معاً^(١).

في المقطع الثالث نصادف هذ الذي اسمه (عدّاس)، تلتقيه خديجة كي يُفسّر لها أو يعطيها فكرة عن جبرائيل، فيما محمّد النبي الذي أنزل عليه هذا الملك إلى جانبها، يحدّثها عنه، وعن علاقته به ودوره في توجيهه!! فما هي حاجة خديجة إذن إلى عدّاس هذا؟.

أربع روايات

الرواية (٢٣) يرويها الطبري مُرسّلة، ذلك أنّ مصدرها هو (عبد الله بن شدّاد) وهو وإن ولد في زمن النبوة، لكنّه لم يحدّث عن رسول الله، ولذا عُدّ تابعياً^(٢) وتتضمّن الرواية كسابقتها ونظيراتها هذا التشويش المرفوض بحق محمد العظيم (فقال: يا خديجة ما أراني إلّا عُرض لي)، ومن المستبعد أن تقول خديجة لمحمّد بعد أن أبطأ عليه الوحي هذا الكلام القاسي وهي التي آمنت به وصدّقته، وهناك روايات أن قائل هذا الافتراء هم أهل قريش وصناديد الشرك آنذاك^(٣).

الرواية رقم (٢٤) مرّ الكلام عنها في التعليق على الرواية رقم (١٨). والرواية رقم (٢٩) مُرسّلة لأنّ محمّد بن نعمان بن بشير تابعي^(٤) والرواية رقم (٢١) في سندها (النعمان بن راشد) قال علي بن المدني:

(١) دلائل النبوة ٢ ص ١٤٦.

(٢) تهذيب التهذيب ٥ ص ٢٥١ رقم ٤٤١.

(٣) مجمع البيان مجلد ١٠ ص ٧٦٥.

(٤) تهذيب التهذيب ٩ ص ٤٩٢ رقم ٨٠٣.

ذكره يحيى بن القطان فضّعه جداً، وقال ابن معين : ضعيف جداً،
وقال أبو داود : ضعيف، وقال النسائي : ضعيف، وهناك تضعيفات
أخرى في شأنه^(١).

تصفية الروايات

بقي لدينا من الروايات التي تتحدّث عن المفاجأة الكبيرة (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ٢٢)، وهي روايات البخاري ومسلم وأحمد، وبالتدقيق في هذه الروايات سوف نجد أنها تنتهي إلى الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين، ومن الواضح أنّ رواية ابن سعد (١٢) لا تتحدّث عن لحظة الوحي الأولى، ولا تتطرق إلى حيثيات ومستحقات المفاجأة الكبيرة، ولا ننسى أنّ محمّد بن عبد الله هذا هو ابن أخ الزهري وقد ضّعّفه ابن معين وذكر ذلك المغني في الضعفاء^(٢) كذلك رواية البخاري (٤) فإنها تتحدّث عمّا بعد (إقرأ) كذلك الرواية رقم (٥) والرواية (٦) والرواية (٧) وعلى إمتداد ذلك الرواية رقم (١٠) في صحيح مسلم، وبهذا فإن الروايات التي تروي لنا لحظة الوحي الأولى، أي لحظة (إقرأ) أو أيّا كان الأول من النازل من القرآن الكريم منحصرة في الأرقام (١، ٢، ٣، ٨، ٩، ١١)، ومجرد نظرة إلى هذه الروايات سنرى أنّها ترجع إلى (الزهري عن عروة عن عائشة) وذلك بدون استثناء، وبالتالي يكون مصدر الرواية هو عائشة لا غير، والسؤال المنطقي هنا هو من أين أخذت عائشة هذا العلم؟

(١) نفس المصدر ١٠ ص ٤٥٢ رقم ٨١٩.

(٢) المصدر ٢ ص ٥٩٧ رقم ٥٦٦٦.

ونحن نطرح هذا السؤال لأن لحظة الوحي الأولى تمثل مكانة مهمة من خارطة العقل الإسلامي، فنريد معرفة هذا البيان المهم.

لم تكن عائشة مع رسول الله عند لحظة الوحي الأولى، هذه حقيقة معروفة فلا بد أنها استقت هذه المعرفة من رسول الله أو من مصدر آخر قريب جداً على الرسول الكريم، وفي سياق هذه الصيغ من الصعب إنحصار الخبر بمتلقي واحد هو عائشة، ويزداد هذا السؤال موضوعية إذا علمنا أن خديجة كانت على تماس رئيسي وجوهري بالحدث بنص رواية عائشة، فلماذا لم يُنقل عنها ذلك؟! ثم السؤال نفسه يسمح بتسلسله، إذن ما السبب وراء إنحصار عروة بالخبر عن عائشة وهي التي كانت تحدّث عروة وغيره؟ إنّ هذه الانحصارية غريبة جداً، لا تتناسب أبداً مع طبيعة الحدث ولا رموزه الفاعلة أو الناقلة.

الملفت للنظر في هذا الخصوص أن العصبية الزبيرية مولعة جداً بهذا الخبر، فهنا نلتقي مع عروة باعتباره الواسطة الوحيدة بين عائشة ومن تلاه، وفي مسانيد أخرى نجد (إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير)

يمثل أحد مسانيد الرواية المذكورة في نقطتها الجوهرية وحولياتها الاخرى، كما في رواية ابن إسحق (١٩) التي نقلها الطبري وابن كثير وغيرهما من المؤرخين وأصحاب السير، وهشام بن عروة أدلى بدوره في هذا المجال، ومن الملاحظ أنها كانت مادة تثقيفية في مجالس عبد الله بن الزبير. هذه الظاهرة ينبغي أن توضع بنظر الاعتبار وسوف نعود لها في الوقت المناسب، ونعود للقول بأنّ أحاديّة المنبع لمثل هذه

الروايات تثير السؤال الحساس والمخرج، لأن المفروض في مستوى هذا الحدث هو الإنتشار، وكثرة الرواية، وقبل ذلك تعددية المصدر والمنبع، وفي سند الرواية رقم (١) نلتقي بـ (عُقيل بن خالد بن عقيل الأربلي أخو الأموي مولى عثمان) حيث يثور في النفس منه شيء عندما نعلم أنه كان شرطياً في نظام بني أمية في المدينة^(١)، ولهذا ضعفه ابن سعد^(٢) ونصادف في سند الحديث رقم (٨) يونس المعروف بروايته عن الزهري، هذا الرجل هو مولى معاوية بن أبي سفيان، قال وكيع: كان سيئ الحفظ، وكان يكتب الحديث مضطرباً وسئل عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: روى أحاديث منكراً، وقال ابن سعد كان حلو الحديث وليس بحجة، وربما جاء بالشئ المنكر، وقال ابن يونس: كان من موالي بن أمية^(٣).

وفي الواقع حتى إذا تجاوزنا كل هذه التضعيفات التي تنتاب هذا السند أو ذلك، فإن إنحصارية الأصل في مصدر واحد يثير الريب حول صدق الرواية في هذا الجزء الحساس من بنية الحدث، لأن دواعي التعدد في المصدر متوقفة، ولا نعتقد يوجد ما يوجب إحجام رسول الله صلى الله عليه وسلم من إلقاء هذا السر إلى غير عائشة من زوجاته، أو حواريه، وإذا كان قد حصل ذلك فعلاً، فلا داعي لستره عن أسماع المسلمين وجمهور الصحابة، خاصة وأنه مادة نشيطة للتداول والتحدث.

إن المرء ليتساءل بعفوية الفطرة وحاكمية العقل وصراحة المنطق

(١) سير أعلام النبلاء ٦ ص ٣٠١ رقم ١٢٧.

(٢) تهذيب التهذيب ٧ ص ٢٥٦ رقم ٤٦٦.

(٣) المصدر نفسه ١١ ص ٤٥٢ رقم ٨٦٩.

عن أكثر من ظاهرة تتصل بحوليات الحدث الكبير.

سؤال (١) : تُرى أيّ مبرّر لمثل هذه الممارسات القاسية من قبل جبرائيل مع أعزّ إنسان على الله تبارك وتعالى ؟ وذلك من عصر شديد وعنت وغط قاس.

سؤال (٢) : ولماذا أعاد القراءة ثلاث مرّات لا أكثر ولا أقلّ^(١) ؟

سؤال (٣) : وما السرّ وراء إستجابة النبي للأمر في المرّة الثالثة دون غيرها مثلاً ؟

هذه أسئلة موضوعيّة وطبيعية، ولا نجد في تضاعيف وأعطاف الرواية أيّ إجابة على أيّ سؤال من هذه الأسئلة المطروحة.

تحليل عنصر المفاجأة

رواية البخاري ومسلم وأحمد وكل الروايات ذات الوزن تؤكد خاصيّة مهمة في لحظة الوحي الأولى، تلك هي خاصيّة المفاجأة...

تُرى هل هي مفاجأة اللقاء ؟

أم هي مفاجأة الأمر بالقراءة ؟

أم هي مفاجأة الصورة التي تبدّى فيها جبرائيل ؟

أم هي مفاجأة الاصوات الغريبة التي صاحبت اللحظة الكونية

الهائلة ؟

مهما يكن نوع المفاجأة إلا، أن الرواية متوزّعة البيان في

(١) الصحيح في السيرة ١ ص ٢٢٣.

خصوصها، لأنها تحمل طابع الغرابة والدهشة والفرع، ولذا يستغرب القاريء العادي من كل ذلك، لأن رسول الله ﷺ كان قد مرّ عشرات المرّات بحوادث وظواهر تفوق أو توازي اللحظة الأولى، ذلك على إمتداد عمره الشريف، وسندنا في هذا روايات كثيرة تنسجم مع الخط الذي يُمضي تلك المفاجأة كحقيقة قاطعة لأنها وردت في كتاب البخاري مثلاً أو مسلم أو أحمد.

إنّ تلکم الحوادث الغريبة كانت ميتافيزية غيبية خارقة، وقد تكرّرت وتواترت وفي هذا الصدد تنتصب ثلاث ملاحظات أساسية : -

الأولى : لم تحدّثنا كتب التاريخ والسنن والتراجم أيّ ردود فعل أزاء تلك الحوادث كالتّي ترتبت على لحظة الوحي الأولى، مع أنّها لا تقل عنها غرابة إن لم تكن أكثر دهشة وخروجاً عن مظاهر الحياة الطبيعية والسنن الكونية.

الثانية : إن تلکم الحوادث كما يقول أصحاب الفكرة المذكورة - كانت من أجل إعداد محمّد لتلقّي الوحي - وبالتالي من حقنا السؤال عن هذا الإعداد، أين تأثيره في استقبال تلك اللحظة العظيمة، لقد تعامل معها بدهشة وغرابة وخوف ووجل وشك!

الثالثة : وفي الواقع أنّ الذي يمرّ بتلك الغرائب لا يفجأه الوحي بالصورة التي مرّت علينا، الشك والخوف والتردد والجهل، فقد مرّ حسب هذه النظرية بأحداث تهيئة للتعامل مع تلك اللحظة الكبيرة بانسراح وتفاعل وفهم ووعي، واستكمالاً منا لإطار ومضمون هذه النقطة الأساسية الصميمية في محاكمة نص البخاري أو بالأحرى روايته

ورواية نظائره نرى من الأفضل إدراج بعض مفردات تلکم الحوادث :

منها (١) حادثة شق الصدر.

منها (٢) إنّ الوحي كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قبل اللحظة الأولى وذلك لفترة طويلة، وتلك كما يُقال سنّة مع كل الانبياء (حتى تهتأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد ذلك)^(١).

ومنها (٣) ما يرويه مسلم عن جابر بن سمرة من أنّ رسول الله ﷺ قال (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على رسول الله قبل أن يُبعث إني لأعرفه الآن)^(٢).

تُرى كيف تنسجم تلك المزاعم حول حوليات تلك اللحظة القدسيّة مع هذه المقدمات العجيبة؟

لقد شقّ الملائكة صدر الرسول...

وكان الحجر يسلمّ عليه قبل النبوة...

وكان يرى الوحي في المنام...

بعضها ليس مرّة ولا مرّتين بل مرّات...

إذن لا بد أن تكون لحظة استقباله للوحي نوعاً من التماهي والتوافق بين المقدمات وهذه النتيجة، وقد كان رسول الله واعياً يمتلك المقدمات، عارفاً بجوهرها الخارج عن نطاق المادّة وقوانينها.

أين نضع هنا ذلك الخوف المزعوم من الكهانة والشعر والجنون؟

(١) سيرة ابن كثير ١ ص ٣٨٨.

(٢) نقله ابن كثير في سيرته ١ ص ٣٨٩.

أين نضع ذلك الخوف المزعوم من المجهول؟

أين نضع دعوى الإقبال على الانتحار؟

أين نضع كل ذلك من هذه المُقَدِّمات التمهيدية العجيبة؟

الزيادة المطروحة في حديث البخاري (١ - ج) كذلك صحيح مسلم تستدعي الإنتباه وتثير الجدل لأنها تشبك بأواصر نافية مع جوهر النبوة.

إنّ مسألة (الانتحار) هذه تثير السخرية، لا تمت بأي صلة إلى واقع النبوة فضلاً عن خصائص محمّد الإنسان، تلك الخصائص التي تبلورت في ثقته المطلقة بنفسه وبما يفعل ويقول، وإذا أمكن القبول بأن هذه الحادثة حصلت مرّة فليس من المقبول ولا من المعقول القول بأنها حصلت أكثر من مرّة كما تفيد هذه الرواية الجانية، فإن الحالة هذه تفيد قطعاً بأنّ محمّداً غير واثق من نبوته الكريمة، وهو خلاف قوانينها وخلاف مجريات حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذه الزيادة لم نجد لها في الرواية الأصل (١ - أ) التي هي بسند يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين، ولم نجد لها في كل المسانيد الأخرى، لماذا غابت هذه الزيادة هنا؟ وهو سؤال مهم، لأنها ليست بالزيادة التي تستحق الإهمال، بل تستحق الذكر والمحافظة عليها وعلى نقلها، وفي الجزء الثاني سوف نتابع بقية الموضوع بإذن الله تعالى.

النص الذي بين أيدينا بشكل عام وبصرف النظر عن الكثير من المفردات يعبر عن استراتيجية بعيدة المدى، تترجم مبدأ المعرفة / السلطة، فخديجة باعتبارها زوج الرسول الأول اكتسبت شرف العلم بالوحي كحدث كوني هائل شريف مُقدَّس مفعم بالأسرار اللاهوتية القريبة من السماء، فهي كانت على مقربة زمانية ومكانية وروحية متواصلة مع النبي، وقد فاجأه الوحي وهي تحته، زوجة صادقة مُطبعة مُعضدة مادياً ومعنوياً، وسواء صحَّ دورها التربوي والتعليمي والإرشادي لظاهرة الوحي بالنسبة للرسول أو لم يصح - وهو ما أراه -، فإنها كانت على مقربة من حامل سر السماء جبرائيل بصورة من الصور، وكانت على مقربة أشد من حامل رسالة هذا السر، وكل ذلك يوجب في نطاق صراع ملحمة الفضائل التي لم تنفصل بأي حال من الأحوال عن الصراع القبلي والعشائري في صدر الإسلام.

خديجة تشكل عنصر الشهادة الحية على لحظة الوحي الأولى، عائشة تحتل مهمة الموازنة، ولكن ليس الموازنة التي من شأنها الحد من سلطة خديجة وموقعها، بل الموازنة التي من شأنها طرح عائشة كمعادل موضوعي لخديجة، فإن اختصاصها بنقل تفاصيل الحدث، يُضفي عليها الشيء الكثير من القداسة والبركة والمنزلة، فهي ليست الزوجة الأصغر والمدللة من بين زوجات النبي الكريم وحسب، بل هي التي كانت أمينة سر الوحي، لولاها لضاع التاريخ، هي التي حفظت مكارم اللحظة الأولى، هي التي حفظت لخديجة دورها في التاريخ،

وبالتالي لن تخسر موقعها في ملحمة لحظة الوحي الأولى، تلك اللحظة التي دشنت إسم خديجة في جسد التاريخ الجديد للإنسانية.

إن إختصاص عائشة بالرواية ذات مغزى كبير، مغزى لاهوتي منغمس بالتاريخ الملهب بالصراع من أجل الخلود، فكأن عائشة هي الوحيدة التي كانت تحيط بسرّ تلك اللحظة الكبيرة، وهي الوحيدة التي تحتل مكانة الإهتمام على سرّها العظيم، وبالتالي بروايتها لذلك تكون قد أنقذت التاريخ من الضياع، وأي تاريخ، تاريخ اللحظة التي تأسس بها الإسلام.

حقاً إنها لحظة ذات وقع هائل في ضمير المسلم وضمير مؤسسي الفكر الديني واللاهوتي، فبروايتها نشق الطريق إلى السماء، نكتنه السرّ العزيز ودروبه بالصعود والنزول، فليس خديجة وحدها تستأثر بطرف من ذلك، مسألة النص في مثل هذه المجالات لا يمكن أن تعامل بسذاجة، لأنها تتصل بأفاق عريضة من الصراع وتزاحم القوى والمصالح.

في التراث الشيعي

سجّل التراث الشيعي حضوره بكثافة في مجال النبوة المحمّدية، وقد ترك لنا التراث المذكور الكثير من الروايات فيما يتصل بولادة النبي وما قبل الولادة واستحقاقات كثيرة تتصل بعموم النبوة قبل تحققها فعلاً. وقد ضمّن المجلسي الجزء ١٥ من كتاب البحار العديد من الروايات في هذا السياق، أكثرها مناقبي إعجازي، ولكن تفتقد لكثير من موضوعيّة السند ومعقوليّة المضمون، فقد أورد الكافي (٣٩) رواية

عن شؤون ولادة النبي ﷺ ووفاته لم يصح منها سوى رواية واحدة لدى اليهودي وهي رواية عادية لا تحمل شيئاً مثيراً^(١)، وقد قام بشرح هذا التراث الشيخ آصف محسني وخرج بنتيجة مؤداها أنّ هذه الروايات ضعيفة ولا يمكن الإعتماد عليها بتأسيس عقيدة أو رؤية رصينة، فهو يعلّق على الباب الأول من الجزء ١٥ من البحار حيث يتحدّث عن بدء خلق النبي الكريم والأنوار التي حفّت به قبل الخلق فيقول عنها ضعيفة سنداً متعارضة متدافعة يتعذر الجمع بينها وغامضة - ص ٣٠١ - وفي خصوص الولادة ومتعلقاتها يشكك الكاتب بالروايات التي جاءت في صدها، وفي ذلك يقول (لا حجّة ولا إعتماد على ظواهر روايات ضعيفة وليست هي كثيرة توجب الإطمئنان بصدورها عن النبي الأكرم أو الأئمة) ص ٣٠٦ - ولا توجد مادة شيعية خصبة في كنيّة تلقي الرسول الوحي في اللحظة الأولى، ولكن غاية ما في الأمر يؤكد هذا التراث على أن النبي كان محاطاً برعاية ربانيّة بواسطة الملائكة، بل هناك من الملائكة مَنْ كان يكلمه ويهديه ويرشده، وكل ذلك ليس من لوازم النبوة في تصوري، ويكفي أن يرعاه الله تعالى بتوفيقه وهدايته من غير حاجة إلى مباشرة الملائكة بشكل وآخر.

(١) صحيح الكافي ٥١/١.

الفصل الخامس

دور ورقة بن نوفل في توجيه النبوة المُحمديّة

يتميّز ورقة بن نوفل بموقع مرجعي مهم في بنية الحدث - لحظة الوحي الأولى - ويرتبط هذا الموقع بشبكة متداخلة من الإدعاءات والممكنات، فهو لم يكن ذلك الإنسان العادي مثل ميسرة أو غيره، بل هو تأريخ وحضور وانتظار، والمرجعية التي يكتسبها ورقة من رواية البخاري وغيره تعود إلى هذه الشبكة المتداخلة في عالم المعرفة والنسب والعمر والفكر والرواية. ومن هنا فإن دراسة موضوع (ورقة بن نوفل) ينبغي أن تُردّ إلى هذا الجذر التكويني، فهو منبع دوره في عملية الوحي.

الأخبار التي تخص ورقة تتسم بالقلق والاضطراب، وذلك رغم هذه الإحالات الكبيرة إلى شخصه وأدواره، بل نقرأ (ولا نعرف من أمره شيئاً واضحاً صريحاً يلقي الضوء على حياته وعلى معتقده وآرائه ومواقفه من اليهود والنصرانية غير تلك الروايات المهلهلة الغامضة التي يرويها أهل الأخبار...^(١)).

(١) تاريخ العرب في الإسلام - ص ١٨٢.

لقد كانت مهمة ورقة بن نوفل في لحظة الوحي الأولى خطيرة للغاية كما رأينا في الروايات السابقة، انها مهمة الكشف عن حقيقة هذه اللحظة، وتسليط الأضواء على الجانب السري منها، وتجلية الظاهرة وفق ناموسها الرباني الحقيقي، وقد كانت ايضاحاته بمثابة ورقة الانقاذ للرسالة بل لمحمد بكل خصوصياته النبوية والرسالية التي هزت الكيان العالمي برمته. فهل من المعقول أن تغيب أخباره بهذا الشكل المأساوي؟! وفي الحقيقة أن أكثر من مؤرخ يقف متردداً أمام هذا القس، أو هذا الحنفي، وبالتالي يكون رأياً آخر حول دور صاحبنا المنسوب له في البخاري وغيره.

محطات مفصليّة

يقولون إنه (ورقة بن نوفل بن سعد بن عبد عزي بن قصي)^(١). ولا يغري النسب بالحقيقة في تراثنا العربي، فربما نسب لا وجود له في الواقع، وهذا هو نسب رسول الله صلى الله عليه وآله، يختلفون في وسائطه بين تقديم وتأخير وبين وجود وعدم. فكيف بأنسب أهل الجاهلية وصدر الإسلام؟!

ولكن ما قيمة النسب إلى هذا الإضطراب الهائل في شبكة أخباره هنا وهناك؟ إن استعراض هذه الأخبار سوف يقودنا إلى ضرورة إعادة النظر في أوضاع هذه الشخصية الغريبة الغامضة.

(حدثني عباس بن هشام، عن أبيه، عن جده، عن أبي صالح أو

(١) الاغاني ١١٣/٢.

عكرمة: أنّ قليمة سفير رسول الله ﷺ لما قدمت به من بلادها، اضلّته بأعلى مكة، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش، فأتيا عبد المطلب، وقالوا: هذا أبناك وجدناه متلداً بأعلى مكة. فسألناه من هو؟ فقال. أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فأتيناك به، فنزل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) (١).

في هذه الرواية نفهم أنّ العلاقة الرعوية بين ورقة ومحمد لم تكن في لحظة الوحي الأولى وحسب بل لها تاريخ طويل يعود القهقري إلى أيام الطفولة. وسنرى أنّ هذه العلاقة سوف تأخذ منحىً تصاعدياً خطيراً. ولا بد من أن نتتبع مفاصل هذه العلاقة الغريبة. فورقة هنا يلعب دوراً إنقاذياً تراجيدياً، فمن يدري، وبغض النظر عن الدواعي الغيبية وفلسفة النبوة... من يدري... لو لم يعثر ورقة على محمد الطفل في الجبل لكان قد أكلته الذئاب أو يقضي نحبه من الجوع أو يقتله عابر جبل؟! إنّ دور ورقة هنا يرتبط بسلسلة أدوار أخرى يلعبها هدف متجانس!! ان سمة «المنقذ» تمارس صياغة جوهرية أساسية، مورثة بطلاً في حياة محمد منذ نعومة اظفاره، ويرتبط دور المنقذ ورقة بأفق الغيب البعيد، حيث يشرق المستقبل بأشارة إلى الماضي، فإن لورقة فضلاً كبيراً، وإن إنقاذ محمد على يد ورقة في تلك اللحظة لا بد أن يسجله الوحي في صميم التاريخ.

في الرواية (هشام بن محمد بن السائب الكلبي... قال احمد بن حنبل إنما كان صاحب سحر ونسب ما ظننت أنّ أحداً تحدث عنه،

(١) أنساب الأشراف ٩٥/١.

فقال الدار قطني وغيره متروك... وقال يحيى بن معين: غير ثقة وليس عن مثله يروى الحديث...^(١). وفي الرواية أيضاً هذا التردد بين راويين (أبي صالح وعكرمة).

هذه الحادثة تعود إلى جذر تأسيسها، ففي طبقات ابن سعد، نقرأ أنّ امرأة كانت قد عرضت نفسها على عبد الله (والد النبي) بغرض الزواج منه وذلك لجماله وحسنه. هذه المرأة هي (قتيلة بنت نوفل)، أي أخت ورقة، ولكن عبد الله رفض ذلك^(٢).

هكذا تبدأ القصة، إنها ذات تأريخ، فليس الأمر يتعلق بورقة وحسب، بل بأخته قتيلة، فمن الواضح، أننا بين يدي قصة تكوّنت فصولها بالتدرّج، ولكن فن اتصال حلقاتها لم يكن بتلك الدرجة من الإحكام.

الرواية مرسلة لأنها تقف عند عروة، وفي سندها ابن أخ الزهري وقد ضُغِفَ كما في مغني الذهبي^(٣). وفي سند آخر تقف عند سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، فهي هنا رواية مقطوعة مع العلم لم يوثق سعيد هذا غير ابن حيان وتوثيقه غير معتد به إذا اقتصر عليه^(٤). وجاءت هذه القصة بسند (هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن أبي عباس...)^(٥) وفي السند هاشم المتروك^(٦). ويحدثنا في هذا السياق البلاذري، أنّ امرأة كانت قد التقت عبد الله، والد النبي

(١) لسان الميزان ١٩٦/٦.

(٢) طبقات ابن سعد ٩٥/١.

(٣) المغني ج ٢ ص ٥٩٧ رقم (٥٦٦٦).

(٤) تهذيب التهذيب ٧٦/٤ رقم (١٣٣).

(٥) طبقات ابن سعد ٩٦/١.

(٦) المغني الذهبي ٧١١/٢ رقم (٦٧٥٦).

الكريم، وبشرته (بأنه أبو النبي الذي أطل وقت مولده)^(١)، وأشعرته في ذلك شعراً دينياً جميلاً يصب في هذا الإتجاه، وكانت قد إستقرأت ملامح وجهه الشريف بعد أن دخل بآمنة بنت وهب، فأدركت هذه النبوءة، الأمر الذي دعاها إلى تبشيرها بإبنة النبي الذي سيكون نبياً.

ترى من هذه المرأة المتنبئة؟!!

قال الواقدي (الإمرأة التي قالت لعبد الله ما قالت هي قتيلة بنت نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصي، أخت ورقة بن نوفل، كانت تنظر في الكتب)^(٢). وفي الرواية التي ينقلها البلاذري هشام بن محمد السائب السابق، وطريف الواقدي مجهول، والغريب أن صدى كل هذه الروايات غاب تماماً في لقاء خديجة لورقة في خصوص لحظة الوحي الأولى، كما إنها ضعيفة الارتباط الإشاري التنبهية في حادثة الجبل المصيرية، كذلك في قضية ورقة في احتفال زواج الرسول من خديجة، هل من المعقول أن يضيع كل هذا التراث في مناسبات تدعو بالبحاح إلى الإشارة إليه والإستشهاد به بشكل وآخر؟! سؤال مشروع.

ونلتقي مرة أخرى بـ(ورقة) على ذات الامتداد، أي بنفس العلاقة السابقة التي تتسم بطابع الرعاية والتبني بشكل من الأشكال، فقد قيل إن ورقة كان أحد الحُضار في حفل خطبة رسول الله من خديجة!! أكثر من هذا، أنه خطب في الحضور^(٣)!! بعد خطبة أبي طالب في

(١) انساب الأشراف ١/ ٨٠ - ٨١.

(٢) ن. مز ١/ ٨٠ - ٨١.

(٣) السيرة الحلبية ١/ ١٣٩.

الموضوع، وأنه قال (الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، إشارة إلى كلام أبي طالب، وفضلنا على ما عدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وانتم أهل مكة، لا ينكر العرب فضلكم ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ أهل قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمئة دينار)^(١). وهناك شبكة من الأخبار المتداخلة والمتناقلة حول علاقة ورقة بزواج رسول الله من خديجة، فقد قيل إنّ أبا طالب خطب خديجة من ورقة لمحمد، وقيل إنّ خديجة بالأساس مسماة لورقة بالذات^(٢)، ولست أدري متى كانت هذه التسمية^(٣). فخديجة عندما تزوجت كان عمرها أربعين عاماً، وقد إقترنت برجلين قبل ذلك، ويبدو أنّ (ورقة) كان شيخاً^(٤)، نفهم ذلك من مجموع القرائن، أما الخطبة المزعومة فلم ترد في مصدر معتبر، نعم جاءت في الطهطاوي والزيني وحلان والحلبي والكافي والبحار، والكثير ممّا في هذه المصادر عبارة عن حشو وتنضيد^(٥)، وليس كل ما في الكافي صحيح، وسنده في خطبة ابي طالب المقارنة لخطبة ورقة ضعيف وواوٍ جداً.

وتبلغ هذه العلاقة ذروتها عندما ينتصب (ورقة) كمعلم مرجعي لكل اشكالية اللحظة الأولى في حياة الوحي الفعلي لرسول الله صلى

(١) السيرة الحلبية ١/١٣٩.

(٢) المتجر ص ٧٩

(٣) تاريخ العرب في الإسلام ص ١٢.

(٤) الاغانى ٣/١١٤

(٥) تاريخ العرب في الإسلام ص ١٢.

الله عليه وآله. فهو الذي فسّر السرّ وأوضح اللغز وحل الإشكال!! وهو الذي أعاد الإطمئنان إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الذي وضع النبي بين يدي مستقبله المرتقب!! بل هو الذي امتحن نبوته الكريمة العزيزة. وقد مرّت علينا بعض الروايات من أنه علّم رسول الله الفاتحة الشريفة! وفي روايات أخرى انه سأله عن آياته أثناء سعيهما معاً بين الصفا والمروة، والى ما هنالك من أخبار عجيبة.

ولقد قلنا في حينها، إنّ أيّ مرجعية تفسيرية لشؤون تلك اللحظة مرفوضة وان القرآن وحده هو المصدر والمنبع. سواء كانت تلك المرجعية خديجة أو ورقة أو عدّاس أو أيّ مصدر آخر.

وتستمر مواقف ورقة بالترقي والتصاعد فينقل لنا المؤرخون عن الزبير بن بكَاء (حدّثنا عثمان عن الضحّاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن ابي الزناد عن عروة بن الزبير، قال: كان بلال لجارية من بني جمح وكانوا يعذبونه برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك، فيقول: أحد أحد فيجر به ورقة وهو على تلك الحال، فيقول: أحد أحد يا بلال، والله لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً)^(١).

الرواية مرسلة، لأن عروة بن الزبير من التابعين ولم يبين هذا مصدره الذي أخذ منه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هنالك أكثر من رواية تشير إلى أن ورقة بن نوفل كان قد توفي في مبعث النبي كما سنرى!!

في الرواية: عبد الرحمن بن ابي الزناد.

(١) الاصابة، جزء (٦) ص ٣١٨.

قال بن عرز عن يحيى بن معين: ليس ممن يحتج به أصحاب الحديث، ليس بشيء.

قال معاوية بن صالح وغيره عن ابن معين: ضعيف.

قال الدوري عن ابن معين: لا يحتج بحديثه.

قال صالح بن أحمد عن أبيه: مضطرب الحديث.

قال محمد بن عثمان بن الحديثي: كان عند أصحابنا ضعيفاً.

وقال الساجي: فيه ضعف.

وقال النائي: لا يحتج بحديثه.

وحتى الذين وثقوه إنما بشروط قاسية^(١).

في الرواية أيضاً: الضحّاك بن عثمان:

قال يعقوب بن شيبه: صدوق، في حديثه ضعف، لينة الفكّان.

الزبير بن بكاء رغم توثيقه إلا أننا نقرأ في مغني الذهبي (...).
صدوق غمزه السبحاني^(٢). وقال ابن أبي حاتم: ... رأيت ولم اكتب
عنه!! وقال احمد بن علي السليمانى في كتاب الضعفاء له: كان منكر
الحديث... ولعله استنكر إكثاره من الضعفاء^(٣). والذي يمكن أن
نستخلصه من كل هذه المقتربات أنّ هذه الرواية من الصعب اعتمادها
(الارسال + ضعف احد الرواة + معارضتها بروايات مقابلة).

(١) تهذيب التهذيب جزء ٦ ص ١٧١ - ١٧٣.

(٢) المصدر ج ١ ص ٢٣٧.

(٣) تهذيب التهذيب ٣/٣١٣ رقم (٥٨٠).

تخص الموضوع، تباين ليس في الزيادة والنقصان بل في المعلومات والعناصر والحوادث، وعلى وقع يؤدي إلى الشك بكل ما جاء في هذا الصدد.

هذا الاختلاف في تأريخ وفاة ورقة يتصل باختلاف على نفس الدرجة وبذات القوّة في حقيقة دينه وموقعه الأخير من الإسلام...
لقد قالوا كثيراً في هذا الميدان...

مراجعة بسيطة لترجمة الرجل في الأصابة وغيرها تكشف عن إضطراب شديد في هذه النقطة من حياته المزعومة أو المبالغ فيها.

* لقد قيل إن له صحبة؛ فقد (ذكره الطبري والبغوي وابن نافع وابن السكن وغيرهم في الصحابة...) (١) وأوردوا له حديثاً عن ابن عباس، والحديث ضعيف بسبب (روح بن سافر) (٢).

* قال بن عساكر: (لم يسم ابن عباس من ورقة ولا أعرف أحداً قال أنه أسلم) (٣).

* قال السبط بن الجوزي: (وهو آخر من مات في الفترة ودُفن بالحجون فلم يكن مسلماً) (٤).

* وفي رواية عن ابن عباس انه مات على نصرانيته، ولكن في الرواية ضعف (٥).

(١) الاصابة ج ٦ ص ٣١٨ رقم (٩١٣٢).

(٢) الاصابة ج ٦ ص ٣١٨ رقم (٩١٣٢).

(٣) الاصابة ج ٦ ص ٣١٨ رقم (٩١٣٢).

(٤) السيرة الحلبية ١/ ٢٥٠.

(٥) الاصابة جزء ٦ ص ٣١٨.

قال في الاصابة (وفي اثبات الصحبة له نظر)^(١).

وفي قبال هذه الأخبار المضطربة نجد محاولة للتوفيق بين المتنافيات، إذ قالوا: إنه مات بعد النبوة وقبل الرسالة^(٢). وهو تأويل جاء لتبرير التناقضات السابقة ولم يتمتع بالقدرة على هذه المهمة خاصة مع الأخبار التي تقول أنه مات في السنة الرابعة أو بعد الأمر بالقتال أو ما هو من هذا القبيل.

وفي هذا السياق نقرأ شيئاً عن فضائل ورقة في أحاديث رسول الله ﷺ، نرى من المستحسن استعراضها:

١ - (حدّثنا أبو موسى الأنصاري، أخبرنا يونس بن بكير، أخبرنا عثمان بن عبد الرحمن، عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ: «أرئيت في المنام وعليه ثياب بياض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك»)^(٣). هذا ما رواه الترمذي ويعلق: هذا حديث غريب، وعثمان بن عبد الرحمن ليس عند أهل الحديث بقوي^(٤).

٢ - (أخبرنا أبو جعفر بن السجين بإسناده عن يونس بن بكير عن هشام عن عروة عن أبيه، قال: ساء أخ لورقة رجلاً، فتناول الرجل ورقة فسبه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لأخيه: هل علمت أني رأيت لورقة

(١) ن. م. والصفحة.

(٢) سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٤٠ رقم (٢٢٨٨).

(٣) سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٤٠ رقم (٢٢٨٨).

(٤) ن. م. والصفحة.

جنة أو جنتين، فهى رسول الله عن سبه^(١) هذا الحديث مرسل^(٢).

يروى الحديث نفسه الحاكم بالصيغة التالية :-

(... حدثنا أبو سعيد الأشبع أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين)^(٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٤)، وصححه الذهبي^(٥). ومن الواضح أن ظروف الحديثين غير متطابقة ولكن ها هنا سؤال ...

ترى ماذا يعني هذا التردد في أخبار رسول الله...؟! جنة أو جنتين!... والذي أراه أنّ هذه الشجرة لوحدها تكشف عن صناعة هذا الخبر المرتبك.

يروى الخبر المذكور أيضاً صاحب الأغانى بالصيغة التالية :-

(قال الزبير حدّثني عمي قال. حدثنا الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة: إن رسول الله ﷺ قال لأخي ورقة بن نوفل أو لأبن أخيه: «شعرت أنّي قد رأيت لورقة جنة أو جنتين»^(٦).
الخبر بهذه الصيغة مرسل، كما أن معطياته غير متطابقة مع سابقه.
ولا ننسى أن عبد الرحمن المذكور ليس بالقوي كما قال الترمذي وكما

(١) أسد الغابة ٨٩/٥، الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٤١٦.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي / السيرة / ص ١١٩.

(٣) مستدرک الحاكم ٦١٩/٢.

(٤) مستدرک الحاكم ٦١٩/٢.

(٥) مستدرک الحاكم ٦١٩/٢.

(٦) الاغانى ١١٥/٣.

أشرنا إلى حاله سابقاً، إضافة إلى أنّ هذا التردد بـ (أو) ينسف معقولة الخبر لأن القائل هنا رسول الله.

٣ - (أخرج ابن عدي في الكامل الطريق عن إسماعيل بن مجاهد عن ابيه عن الشعبي عن جابر عن النبي ﷺ رأيت ورقة في بطنان الجنة عليه السندس...) (١).

قال ابن حجر: قال ابن عدي: تفرد به إسماعيل (٢).

فأسنده إسماعيل بن مجالد:

وثقه جماعة منهم البخاري، ولكن قال النسائي: ليس بثقة، وقال الجوزجاني: غير محمود، وروى الحاكم عن الدارقطني: ليس فيه شك أنه ضعيف، وقال العجلي: ليس بالقوي، وقال ابن الجواف: يخطيء، وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه (٣).

وفي السند أيضاً:

مجالد بن سعيد الهمداني...

كذبه وضعفه جمع كبير من الرجاليين.

قال البخاري: كان يحيى بن سعيد يضعفه، وكان ابن مهدي لا يروي عنه، وكان احمد بن حنبل لا يراه شيئاً... وقال الدوري عن ابن معين: لا يُحتج بحديثه، وعن ابن معين أيضاً: إنه ضعيف (٤).

(١) الاصابة جزء ٦ ص ٣١٨ رقم (٩١٣٢).

(٢) ن. م. والصفحة.

(٣) تهذيب التهذيب ١/٣٢٧ رقم (٥٨٨).

(٤) تهذيب التهذيب ١٠ ص ٤٠ رقم (٦٥).

٤ - وروى الحافظان البيهقي وأبو نعيم من حديث يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن عمرو بن شرحبيل خبراً متوسطاً يتحدث عن دور ورقة في تطمين رسول الله ﷺ، وفي ذيله (فلما توفي - أي ورقة - قال رسول الله ﷺ لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب حرير لأنه آمن بي وصدقني)^(١).

قال ابن كبير: (هذا لفظ البيهقي، وهو مرسل، وفيه غرابة، وهو كَوْن الفاتحة أول ما نزل)^(٢). ذلك أن مجرى الخبر يُفيد أن ورقة علم الرسول الفاتحة!! وإرساله بسبب عمرو بن شرحبيل لأنه تابعي.

٥ - وقال أحمد: (حدّثنا حسن عن ابن مهبة، حدّثني أبو الأسود عن عروة عن عائشة، أن خديجة سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل، فقال «قد رأيتك، فرأيت عليه ثياباً بيضاً، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض»)^(٣).

ولغة هذا الحديث غريبة جداً، لأنها لا تنبئ عن ورقة بأنه ذلك المصدّق برسول الله مسبقاً، وهناك شك في مصيره، بل هناك ظن سابق بأنه قد يكون من أهل النار^(٤)!!

وهذا الوهن أو هذا التردد في مصير ورقة قبل الرواية المزعومة تتناقض مع روايات عروة من إيمان الرجل وتصديقه النبوة الكريمة الجديدة. فأين هذا من ذلك.

(١) سيرة ابن كثير ١/٣٩٩.

(٢) سيرة ابن كثير ١/٣٩٩.

(٣) نقلاً عن سيرة ابن كثير ٢/٣٩٧، الاغانى ٣/١٤٤.

(٤) وهي الملاحظة ذاتها التي يمكن أن تلاحظ على الحديث (١) في هذا الموضوع.

وفي الحقيقة من الميسور جداً أن نضع أيدينا على جملة من المفارقات على هذه الأحاديث في فضل «ورقة».

منها: هذل الإختلاف الشاسع في اللفظ والدلالة، ومنها: هذا الاضطراب في السند ومنها: هذا التردد الغريب في غير محله وموضوعه.

إن فضائل ورقة مزعومة، ومواقفه من الإسلام، ومصائره، وتأريخه بعد كلمة «إقرأ» مجاهيل متداخلة.

سيرة ورقة بن نوفل

إن ما سبق بيانه لا يغني عن مهمّة اخرى لابد من تجليتها ولو على نحو الإجمال، تلك هي سيرة حياته...

قالوا: إن هذا الرجل ممّن كره عبادة الأوثان في الجاهلية، فإعتزلها وطلب الدين الصحيح، وكان يقرأ الكتب، وهو من الذين إمتنعوا عن أكل ذبائح الأصنام. وهو في هذا مثل زيد بن عمرو بن نفيل وغيره من الأحناف وطلاب الحقيقة في العصر الجاهلي، أي قبل رسالة محمد بن عبد الله. ويروى أن هذين الرجلين سافرا إلى الشام بحثاً عن الدين القويم. وقد عرضت عليه اليهودية فرفضها، ولكن ما لبث أن تنصّر، أما زيد، صاحبه ورفيق دربه فقد كره النصرانية، وتعبّد على فطرة (دين ابراهيم)، ثم توفي، وبقي ورقة بعد سنتين^(١)!! ويستفاد من هذا أن ورقة مات قبل بعثة رسول الله لأن رفيق دربه

(١) دلائل النبوة ٢/١٤٢.

المدعو زيد بن عمر كان قد توفي قبل بعثة النبي الكريم بثلاث سنوات^(١). وفي هذا السياق يمكن أن نفهم رواية البلاذري عن الكلبي في قوله (هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي تنصّر حتى إستحكمت نصرانيته ثم خرج إلى الشام فمات هناك...!!)^(٢)، المستفاد من لحن الكلام أن ورقة مات في الشام قبل بعثة رسول الله، لهذا علّق أحدهم على هامش الأغاني في صدد خبر يتصل به ويؤرخه بعد البعثة بقوله (إن ورقة توفي عام ١٢ ق. هـ أي قبل مبعث النبي بنحو عام واحد)^(٣).

ومهما يكن، فإن هذا مما يعقد الأمور في تكوين صورة واضحة عن ورقة بن نوفل.

هذا فيما تقول أخبار أخرى أنه عاش إلى يوم بُعث رسول الله، وأنه مات قبل ظهور الإسلام وانتشاره بين بعض المكيين، أو إنه مات بعد الأمر بالقتال، وهكذا تتناقض الآثار وتتضارب على مستوى بعيد من المديّات والمسافات، كما أنّ هناك تناقضاً في مكان موته!!

ويروى أن ورقة عندما حدّثته خديجة عن ظواهر أو ظاهرة غيبته صاحبت رسول الله أنشد شعراً دينياً معمّماً، ضمنه رؤى في الدين والنبوة الجديدة، رويت في حديث مرسل^(٤). وعلّق ابن كثير على الشعر المذكور

(١) البداية والنهاية ٢/٢٢٦.

(٢) أنساب الأشراف ١/١٠٦.

(٣) هامش الاغاني ٣/١١٥.

(٤) سيرة بن هشام ١/٢٠٣، وكان ذلك في حديث خديجة إلى ورقة عما رآه ميسرة في سفرته مع رسول الله إلى الشام، ابن كثير في سيرته ٢/٤١.

(... وعندي في صحتها عن ورقة نظر...^(١)). ومن معالم الاضطراب في أخباره ما ورد في قدراته الكتابية، فقد جاء في البخاري (وكان، أي ورقة، امرأ قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب العبراني، فيكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب)^(٢). فيما يطلعنا خبر آخر (وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله)^(٣)!!

قالوا مات ولم يعقب^(٤)!! وتلك مشكلة أخرى.

من كل هذا نفهم أن الروايات عن ورقة مهلهلة، مضطربة، وأنها لا تساعد على تكوين رؤية تاريخية رصينة عنه.

الزبيريون وقصة ورقة بن نوفل

وفي الواقع اذا تتبعنا سيرة العلاقة بين آل نوفل ورسول الله لوجدنا أنّ محمداً صلى عليه وآله مفردة في فضاء آل نوفل، بشكل وآخر، وذلك سواء على صعيد الوجود أو النبوة!!... لننظر بإمعان إلى النقاط الجوهرية التالية:

* كان هناك أمل أو فرصة لزواج عبد الله بن عبد المطلب من قتيلة بنت نوفل، أي أخت ورقة، ولكن القدر عاكس هذه الفرصة.

* إن قتيلة المزعومة هذه تنبأت بولادة محمد من علائم قرأتها على وجه أمه البريء!!

(١) ابن كثير/السيرة ٤٠١/١.

(٢) البخاري.

(٣) عمدة القارئ ٣٠٤/١٩.

(٤) الحديث المتعلق بالوحي ودور ورقة في الموضوع!؟

* إن قتيلة نفسها أخبرت آمنة بشأن محمد في المستقبل ، أي النبوة العظيمة.

* إن ورقة بن نوفل هو الذي أنقذ محمداً من مخاطر الجبل في «صباه» وهو الذي أعاده سالماً إلى جدّه عبد المطلب.

* وكانت خديجة التي تزوجها رسول الله سُمّاة لورقة ...

* وقد ساهم ورقة في تزويج رسول الله من خديجة.

* وكان ورقة هو المرجعية المعرفية لتفسير الوحي.

* ويقال إنه آمن برسول الله وكان يتتبع خطواته ، يمتحن إيمانه ونبوّته.

* وقد وقف إلى جانب بلال وهو يعذب يبشر أعداءه بمصير أسود!

اذن كان محمد ﷺ مفردة في فضاء «آل نوفل» ، فهم على علاقة غير عادية بالنبي المرسل ، توّسموا فيه النبوة قبل الولادة وفسروا له معضلاتها في لحظة الوحي الفعلي ، وكانوا سبب إنقاذه من مخاطر الجبل ، ومن سبل زواجه من امرأة ذات شرف ، وبذا فإن مفاصل السيرة المحمدية تكون قد تشكلت في فضاء آل نوفل.

ولقد مضى بنا أن الرواية التي تتحدّث عن قتيلة وهي تتطلّع إلى الزواج من عبد الله (والد النبي) تنتهي إلى عروة بن الزبير ، كما مضى بنا أيضاً أن الرواية التي تطرح (ورقة) مرجعية هادية لمعرفة أسرار الوحي يشكل فيها عروة بن الزبير عنصر الإشاعة والإذاعة والبيان ،

وحوليات الحدث بكثير من تفاصيل جاء في أسانيد زبيريون منهم: وهب بن بياعة مولى آل الزبير، ومنهم، أسماعيل بن أبي حكيم الذي هو الآخر مولى آل الزبير، يتبين لنا أن آل الزبير كانوا يعقدون المجالس لهذين الرجلين للإدلاء بهذا الحديث^(١). ومضى بنا أيضاً: إن حكاية ورقة بن نوفل مع قصة تعذيب بلال ترجع إلى عروة نفسه!! ثم؛ كل ما قيل عن فضائل ورقة عن لسان الرسول جاءت عن طريق عروة بالذات!! والذي نلاحظه من هذا السرد السريع أن أخبار (آل نوفل) وهي تخترق حريم النبوة وتدخل جوهر كينونتها وصلت إلينا عن الزبيريين، وفي مقدمتهم هذا الذي إسمه (عروة بن عبد الله بن الزبير)!!!

تقترن هذه الظاهرة بحقيقة نسبية صارخة ..

من هم آل الزبير؟!

إنهم الذين ينتسبون إلى (الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ..)^(٢).

من هو ورقة بن نوفل؟!

إنه (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ..)^(٣).

من هنا يمكننا أن نتلمّس بعض خيوط أو أسباب هذا الإصرار الزبيري على «دور» ورقة بن نوفل، بل دور (آل نوفل)، في حياة

(١) الحديث المتعلق بالوحي ودور ورقة في الموضوع؟!

(٢) سير اعلام النبلاء ٤١/١.

(٣) المعارف لابي قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة ص ٥٩.

الرسول الكريم ﷺ^(١). هذا الدور الذي يدخل في صميم الحياة النبوية، يبدأها ويرافقها ويصاحبها حتى يصل إلى الذروة التي تجسّد المهمة التعريفية لورقة لأهم وأقدس وأخطر لحظة في بحر هذه الحياة الزاخرة بالمعنى أي لحظة الوحي الفعلي، لحظة «إقرأ» التي أفتتحت عهداً تاريخياً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ونعود إلى دور «آل نوفل» في حياة النبي العزيز . . .

إن النبي - كما قلت - يتحول إلى (صدفة) عابرة، لأن حياته جاءت ببركة الانقاذ النوفلي اذا صحّ التعبير، ولم يكن ذلك عبر تخليص النبي الحبيب إنما استقرّت ببركة الكشف الروحي لخلفيات «إقرأ» بجهود «آل نوفل»، تلك الجهود التي وضعت بذرتها في خديجة عندما هرعت إلى (ابن عمها) أو (عمها) الذي سارع لحل الاشكال العصي على رسول الله، وهو يتلقى حساً صوت جبرائيل، وكان قبل ذلك يحدثه الحجز كما انه قبل ذلك أيضاً شق صدره الشريف ثلاث مرات!!

المسلم الذي يقرأ لمحمد، بل الإنسان العلمي المنصف الذي يدرس بعض جوانب هذا الشخص المؤمن الطيب، لا يخامرهم أدنى شك بأن محمداً لم يكن بحاجة إلى ورقة هذا، وأقصى ما يمكن قوله، أن خديجة حفّزها حبها لرسول الله أن تهرع لورقة تسأله عن الحالة الجديدة للنبي الكريم، فكان جوابه إيجابياً، مشجعاً لدراية كان قد درّبها وعرف بعض أسرارها.

(١) اشار إلى هذه الملاحظة بشكل سريع عابر صاحب (الصحيح في سيرة الرسول الاعظم) ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

إن العقل وحسب قواعد المنطق النبوي لا يستسيغ هذا الدور الإحالي لورقة أبدأ، وان الدراية الموضوعية لحياة النبي ترفضه كذلك

وقضية عدّاس ايضاً

قرأنا في رواية موسى بن عقبة عن الزهري عن سعيد بن الحسين، أن خديجة لم تكتفي باللجوء إلى ورقة لحلّ اشكالية (إقرأ) وحسب، بل كانت قد إستعانت بنصراني يدعى (عدّاس)، بل وكما في الرواية كان (عدّاس) ملجأها قبل ورقة.

من هو عدّاس؟!

نصراني من أهل نينوى، راهب، وهو غلام عتبة بن ربيعة، وكان في وقته شيخاً طاعناً في السن حتى ثقل سمعه ووقع حاجباه على عينيه من الكبر^(١).

ولكن عدّاس هذا يظهر مرّة أخرى في الطائف، فنحن نقرأ في سيرة ابن هشام أن رسول الله ﷺ يمم وجهه صوب الطائف يدعو ثقيفاً إلى الإسلام، فامتنعوا عن اجابته وأذوه حتى لجأ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة وما لقي، تحرّكت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له: عدّاس، فقالا له: خذ قطعاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى هذا الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: بسم الله ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه، ثم

(١) السيرة الشامية ٢/٦٢ - ٦٣.

قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي بلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذلك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ، يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال الراوي وهو ابن إسحق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، يقول ابن ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاء عدّاس، قال له: ويلك يا عدّاس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قال له ويحك يا عدّاس ألا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه...^(١).

وبغض النظر عما في الرواية - الذي سنأتي عليه عندما نتعرض إلى هذه الفترة من حياة رسول الله - فإننا نلتقي بمفاجأة غريبة هنا، ذلك أن عدّاس الذي لجأت إليه خديجة لحل اشكالية (إقرأ)، هو نفسه عدّاس هذه الرواية أي في الطائف. فهناك ذات الاسم (عدّاس)، ونفس الهوية الدينية (نصراني)، وهو موطنه الأول (نينوى)، وهو غلام ابني ربيعة في الحاليتين!!

إلتقط باحث تاريخي كبير هذه المفارقة وسجّلها^(٢). ومن الطبيعي

(١) السيرة الشامية ٢/٦٢ - ٦٣.

(٢) تاريخ العرب في الإسلام ص ١٨٣.

أن يلتفت إليها آخرون وقد اعتمدوا الاستدراك في حل هذه المعضلة، فغاية الحل أن عدّاس خديجة غير عدّاس الطائف!! وهذه معالجة بارزة جداً، لأن التوافق بين كلا الشخصين غريب من حيث مستوى التطابق والتلاقي، فيبدو أنهما (رجل) واحد، خاصة أن مصدر الحديثين لم يشر إلى هذا الاستدراك، وعليه يمتلك الإنسان استغراب شديد من هذا التهافت واللغظ والالتباس، فكأن عدّاس وهو يقدم للرسول العنب ويقرأ في ملامحه سِمات النبوة لم يعرف شيئاً عن محمد الذي تحدّث إليه في خصوص زوجته خديجة؟! ولا ندري أي عدّاس هو الحقيقة؟

وممّا يلفت الإنتباه أيضاً هذا التناغم في الصفات والجواب بين كل من عدّاس من جهة وورقة بن نوفل من جهة أخرى، وفي هذا يعلّق الدكتور جواد علي (. . . وقد أخطأ الرواة في اقحام اسم عدّاس في هذا الموضوع - لحظة الوحي - ولاسيما أنهم نسبوا إليه ما نسبوه إلى ورقة من كلام، وأنّ ما قالوه عن صاحب عدّاس المذكور في هذا الخبر هو نفس ما ذكر عن عدّاس الطائف)^(١)!!

إن مسألة عدّاس لاتقف عند هذا الحدّ من الخلط والاضطراب، ذلك أننا نقرأ في أنساب الأشراف أنّ النظر بن حارث، وكان أشد قريش معادة للنبي ﷺ يقول (إنما يعينه - أي النبي - على ما يأتي به في كتابه - أي القرآن - هذا جبر، غلام الاسود بن المطلب، وعدّاس، غلام شيبه بن ربيعة، ويقال: غلام عتبة بن ربيعة، وغيرهما، فأنزل الله

(١) تاريخ العرب في الإسلام ص ١٨٢.

عزّ وجل «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون
إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»^(١).

ترى هل هو عدّاس ثالث وفق سنة الرواة في التعدّد؟! أم هو ذاك
الذي حل إشكالية (إقرأ)، أم هو الذي قدّم للنبي العنب؟! على أنّ الآية
الكريمة توحى بأن المقصود بالرد واحد... ذلك هو القس الرومي
الذي كان يصنع السيوف، وليس من ريب أنّ إضافة البلاذري الجديدة
في خصوص المولى الحقيقي لعدّاس، أي هذا التردد بين شيبة وعتبة
هو الآخر يزيد من مشاكل عدّاس!!

ان علاقة عدّاس بالوحي المحمدي مسألة غير مؤكّدة وخاضعة
لأكثر من سؤال.

لا يمكن أن ندعي أنّ محمداً ﷺ لم يخف وهو يحمّل الرسالة،
فهذا الاعتقاد خارج عن دائرة الاحتمال الا انه ﷺ لم يخف من
الظاهرة بل من المسؤولية!!
إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلًا

(١) أنساب الأشراف / ١ / ١٤٠ - ١٤٣.

الفصل السادس

محمد وجبرائيل

١

مع القرآن الكريم

يقول تعالى في سورة التكوير : -

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ ﴾

القول هو القرآن الكريم، والرسول هو جبرائيل عليه السلام ناقل هذا القول الإلهي إلى محمد ﷺ، وهو يسمعه بطبيعة الحال.

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢﴾ ﴾.

ذو القوة يعود على جبرائيل، قوة في تحمّل الكلام والحفاظ عليه وتوصيله إلى محمد النبي، رسول الله، قوة علم وعمل في آن واحد، وهو ﴿مَكِينٌ﴾ عند الله تعالى، أي صاحب منزلة رفيعة سامية، عظيم القدر والمقام عند الله عز وجل.

﴿ مُطَاعٌ نِّمَّ أَمِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ تعود الصفتان إلى جبرائيل أيضاً، فهو مُطَاعٌ، تطيعه الملائكة، تأتمر بأمره، وهو مطاع عند الله تعالى، فإن ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى ظرف محذوف وهو ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾، وهو أي جبرائيل أمين

على الكلام المكلف بنقله إلى محمد النبي ﷺ، إنه أمين على وحي الله تعالى ورسالته كما يقول الرازي.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢)

الجنون نسبة إلى الجن هنا، أي وانت لم يسكنك الجن كما كان يقول بعض الجاهليين، أو هو ذلك الجنون المعروف بذهاب العقل.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ (٢٣) فَإِنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جِبْرَائِيلَ فِي السَّمَاءِ، في الافق المبين، وقد صرف بعضهم الأفق إلى مطلع الشمس، فيما يرى بعضهم أنه إشارة إلى مطلق أفق السماء، ولقد رآه رؤية العين، تماماً، وليس رؤية القلب.

هذا المقطع القرآني مهم للغاية، فهو يكشف لنا بوضوح عن العلاقة بين محمد ﷺ وبين جبرائيل، كانت علاقة عيان بصري وإستماع مباشر، علاقة تتسم بالمعرفة المتقابلة التي لا شك فيها، هناك إطمئنان متبادل على مستوى كبير من الثقة والمعرفة، هناك تكامل بالمهمّة، ليس هناك خوف ولا وجل ولا إرتجاف ولا شك ولا جنون، هناك إنكشاف علني سافر، هناك وضوح وعلاقة واثقة من كل شي، من المادّة المُلقاة، من الهدف، من الغاية، من الصيرورة، من المُلقي من المُستقبل، وهناك كلام عن المستقبل أيضاً، إنّ كل مقتربات غار حرّاء هنا تغيّب. ولكن في سورة ﴿النَّجْمِ﴾ وضوح أكثر.

يقول تعالى في سورة النجم :

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) قسم بالنجم أو ربّ النجم في حالة سقوطه

المرعب.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ﴿٢﴾ صاحبهم هو النبي الكريم، لم يعدل عن الحق وما فارق الهدى.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٣﴾ أي لا يتكلم بالقرآن عن الهوى الذي هو ميل الطبع.

﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٤﴾، هو من الله يأتي به جبرائيل.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿٥﴾ الضمير يعود إلى النبي أو إلى القرآن والمفعول الثاني محذوف، وهذا المعلم هو جبريل بطبيعة الحال وهو قوي في نفسه وخلقته ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿٦﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ﴿٦﴾ وجبرائيل المعلم هذا حصيف العقل حكيم صاحب رأي سديد، ذلك أن الضمير عائد إلى جبرائيل في حالاته الثلاث الماضية وليس النبي الكريم على أغلب الظن، وقد ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ أي استقام على صورته الأصلية التي خلق عليها ذلك أن جبريل كان ينزل على النبي بصور مختلفة كما ينقل المأثور الإسلامي الذي أهتم كثيرا بجبرائيل وتشكلاته المختلفة.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٧﴾ في الافق السماوي من غير تحديد جهة معينة كما يذهب صاحب الميزان.

﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾ ﴿٨﴾ التدلّي نزول من أعلى إلى أسفل، يعني نزولاً عمودياً، وربما هو كناية عن القرب كما يرى بعض المفسرين، نستفيد من توالي النص بأن جبرائيل كان قد اتخذ صورته الأصلية في الافق السماوي وبدأ بالنزول صوب الرسول الكريم.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ﴿٩﴾ أي كان على مقربة شديدة منه،

وبالتالي يكون المراد شدة القرب من الرسول الكريم ﷺ.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٠) الهاء في ﴿عَبْدِهِ﴾ يرجع إلى الله والفاعل من الفعل ﴿أَوْحَىٰ﴾ هو جبرائيل بدلالة الضمائر السابقة وعودتها إليه، والموحي الأساسي هو الله تعالى، فهو الذي بدأ يوحي للرسول عن طريق جبرائيل القوي الأمين، وبهذا يكون المعنى أن الله أوحى للنبي بواسطة جبرائيل، وكل ذلك بعد أن كان جبرائيل على مقربة لصيقة من النبي العظيم، فقد كان في الأفق السماوي، فاتخذ صورته الحقيقية ثم بدأ يتدلى قريباً من الرسول، فلما صار شبه لصيق به اوحى إلى النبي الكريم بأمر الله أو بعد أن حمّله الله الوحي.

﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١١) سواء كان المقصود مطلق الفؤاد أو فؤاد محمد ﷺ، ولكن ما هي هوية فعل ﴿كَذَّبَ﴾؟ هل تنصرف إلى الخطأ في الإرداك أم الخطأ في الرؤية البصريّة؟ في تصوري إنّ الانصراف هنا إلى الرؤية بالعين المجرّدة، وبالتالي يكون المعنى أنّ عقل محمد كان واعياً لما يبصر ويشاهد بعينه، كان واعياً لما يحصل له، ليس هناك مشهداً سينمائياً بل هي حركة حقيقية صارخة ساطعة أشد السطوع، فكثيراً ما يكذب العقل ما يستقبله البصر، فهناك شيء أبصره ولكن لا أصدقه بعقلي، فيما هنا تماهي كلي بين الفؤاد والحواس. ولكن هل التوجّه هنا إلى ذات المشهد أم إلى عظمته ذلك أنّ جبريل مخلوق من نوع خاص، قوي أمين حصيف شديد، يبدو أنّ التوجّه إلى ذات المشهد.

﴿أَفْتَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) استفهام إستنكاري للتوبيخ كما يقول

البلاغيون، والمعنى أتجادلونه على ما رآه بعينه؟

هذا المقطع القرآني أكثر وضوحاً من سابقه في تجلية العلاقة بين محمد ﷺ وبين جبرائيل، هي علاقة حميمة، وهل هناك أكثر دلالة من الرؤية البصريّة المباشرة؟ بل هناك قرب مكاني قريب من الملاصقة بين الأثنين، وفي الأثناء يسمع محمد وحي جبرائيل له، فالعلاقة بصريّة سمعيّة، بل هناك ما هو أكثر من ذلك صراحة، حيث كان محمد يرى بأم عينه نزول جبرائيل إليه عمودياً، فنحن أمام مشهد سينمائي ولكنه واقعي. ويبدو أنّ النبي كان يتلقى الوحي بإطمئنان وهدوء وثقة عالية، فليس هناك شك أو تردّد أو خوف... ولذا قوله ﴿أَفْتَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَوْنَ﴾ (١٢) يشكل احتجاجاً حسيّاً قوياً، ومحمد ينطلق منه لمحاكمة الاعتراض والاستهزاء لأنه واثق من رؤيته، وهو ليس مستعداً للتفريط بسمعه وبصره لكي يستسلم لتخرّصات الآخرين.

٢

إشكاليّة الجنون

إتهم العرب محمداً ﷺ بالجنون، والآيات القرآنية في ذلك صريحة تمام الصراحة، وقد ورد هذا الإتهام في أكثر من أحد عشر نصّاً قرآنيّاً.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦).

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧).

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ رَبِّنَا لِسَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٢١).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ، وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجِرُوا ﴿١٠﴾﴾.

قال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢١﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٣﴾﴾.

هذا الإتهام صريح، وتكرر، وقد قرن مرة بالشعر ﴿لشاعرٍ مجنونٍ﴾ ومرة أخرى بالسحر على نحو البدلية ﴿ساحرٌ أو مجنونٌ﴾، ومرة بالعلم ﴿معلمٌ مجنونٌ﴾، ويشير القرآن ان هذه التهمة ليست جديدة بل هي قديمة نالت كل الأنبياء والمرسلين، فليست هي بدعة، أن أصل الكلمة من ﴿جنّ﴾، يتصل بالخفاء والسرية والستر والتستر، والجنّة هي الفردوس المخفي الذي ينتظر المؤمنين، وسمي القلب جناناً لأنه مخفي في الصدور، والجنّة: الجنون كما في مقياس اللغة لأبن فارس، والجن سموا بذلك لأنهم متسترون عن أعين الناس، وفي أساس البلاغة للزمخشري (ولا جنّ بكذا: لا خفاء به)، و(جنان الليل ظلمته)، و(أتق الناقة في جنّ ضراسها وهو سوء خلقها عند التتاج)، وفي الراغب (الجنون حائل بين النفس والعقل وجرّ فلان قيل أصابه

الجن)، وفي الراغب أيضاً ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي ضامه من يعلمه من الجن)، ولكن من يقرر ذلك، من يقرر أن فلاناً مجنونٌ وفلاناً غير مجنون؟

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنْفَكِرُ مَا يُصَاحِبُهُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

الجنة كما يقولون نوع من أنواع الجنون، ومنشأه ﴿جن﴾ يحل في ذات الإنسان، حيث يتكلم الجن على لسان هذا المسكين، وبذلك سُمي مجنوناً، وقد كان هذا من صلب الثقافة الميثولوجية السائدة عند العرب، ولذا يستخدمون مختلف الوسائل لاجراء الجن من داخل المجنون بغية تحرير المُبتلى من تحكم وسيطرة هذا الجن المزعوم، وبالتالي يكون جوهر الاتهام بأن هناك جنياً يتكلم على لسان محمد، فهو مجنون.

فالإتهام لا يشير إلى تصرفات سلوكية كالصراخ وتمزيق الثياب وضرب الآخرين وما إلى هنالك من تصرفات يعتبرها المجتمع آنذاك من علامات الجنون أو هي ضرب من الجنون، بل الإشارة إلى الكلام الذي كان يُطلقه الرسول ويقول بأنه وحي من الله، ولعلّ ممّا يؤكد ذلك إقتران الجنون بالشعر تارة وبالعلم تارة أخرى، فالموضوع الذي هو محل إتهام كلام محمد وادعاؤه، فهو من فعل مخلوقات غريبة كانت تسكن الذات المحمدية، تتكلم على لسانها.

وقال تعالى ﴿...مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

فمحل الإتهام هو دعوى الاتصال بالسماء، الوحي، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ (٧٠)، من هذا النص نفهم أنّ دعوى السكون بالجنّ كان موجوداً، وأنّ هناك ثقافة سائدة بهذا الإتجاه الماورائي، وموضوع الاتهام القول بالوحي كما هو واضح، نفهم ذلك من قوله ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾، وصبّ في ذلك قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

هذا الاتهام يدل على أنّ الوحي كان قوّة خارقة، كان ظاهرة تفوق طاقة الأنسان الجاهلي، خاصّة وأنّ الجن في الثقافة العربية يتميّز بقدرات ليست طبيعية على مستوى الكائن الإنساني، ومن هنا جاء الاتهام، ولكن القرآن نفى ذلك، ليس نفياً مجرداً وحسب بل من خلال بيان رؤية خاصّة بالجن، وبلحاظ علاقته بالنبوّة المحمّدية ذاتها، فالجن مخلوقات موجودة في التصور القرآني وهم مخلوقون من نار ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السُّمُورِ﴾ (٢٧)، وهم كالبشر مكلفون في هذه الدنيا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١)، ولذا سوف يبعثون ويحاسبون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾، وبناء على ذلك منهم المطيع ومنهم العاصي ومنهم الذي يستحقّ الجنّة ومنهم الذي يستحقّ النار، وهم على علم بالقرآن الكريم، يسمعون ويتذوقونه وله منه مواقف متباينة ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢٠) ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾، ويبدو له قابليات قوية فذة ولذا يحاول بعض بني الإنسان الاستعانة بهم من أجل قضاء بعض الحاجات

الصعبة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦١) ،
والقرآن بحد ذاته تحدّ مطلق لمطلق الجن، كما هو تحدّ مطلق لمطلق
الإنس ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ...﴾ (٨٨) ، وقصدي من كل هذا العرض هو بيان زيف تهمة
الجنون بهذا المعنى بالنسبة لمحمد ﷺ ، ونحن هنا نطلق في معالجة
القضية من داخل النص المُتهم ذاته ، فهذا النص لم يدع مجالاً للشك
بأنه خارج هذا العالم من حيث التأسيس ، بل الجن ذاته مكلف به ، وقد
صُدِمَ الجنُّ من علمه وحلاوته ونسقه الدقيق ، فالجن هنا مأسور وليس
أسراً ، ومعالجة النص من داخله اهم من معالجته من خارجه في مثل
هذه الأمور .

ويبدو أنّ بعض العرب أدرك مغزى هذا الرد الدقيق ، فالتجأ إلى
التكذيب ، فهذا القرآن من إفتاء محمد ، وهي تهمة تختلف تماماً عن
تهمة الإماء القهري من الجن كما هو معلوم ، وذهب آخرون إلى أنه
من تعليم صبي روماني كان يعمل السيوف ، وهذا الإتهام يخالف تهمة
مصدرية الجن أيضاً ، على أنّ هناك ما يبرّر تهمة الجنون هذه ، هي قوّة
القرآن وسحره وبلاغته ومدياته المدهشة التي كانت غريبة على الذوق
والقدرات والعادات العربية السائدة آنذاك .

الفصل السابع

سفرات النبي الثلاث

السفرة الأولى وقصة بحيرا الراهب

مدخل توضيحي

من القصص التي أثارت جدلاً خصيباً لدى المحدثين والرواة وكتاب السيرة النبوية ما يُعرف بـ (قصة بحيرا الراهب)، وهي مشهورة على الصعيد الشعبي بمديات واسعة من التداول والاعتبار والدهشة لكثرة سماعها من الوعاظ والقصاص، ومرّد هذا الإهتمام البارز على كلا المستويين ما تتضمّنه القصة من غرائب تشكّل نسقاً غريباً مرصوفاً بعناية ودقّة، وهذه الغرائب تتخذ في بعض الأحيان مساراً غير طبيعي، لا لأنها غير محكومة بقانون الطبيعة، بل لأنها تتناقض مع المنطق وتتجاوز أحكامه العادلة لتؤسّس وهماً مزعجاً، فالغيب الذي تدرجه هذه القصة لا يخضع حتى لقواعد هذا العالم الخاص، فإن التناقض المنطقي مرفوض مهما كان إتجاه العقل في تفسير الكون والحياة، ومن هنا اضطرب دعاة الإيمان بالمأثور (ما دام صحيح السند) في توجيه

هذه القصة وهي تحمل هذا القلق النظمي على الصعيد المنطقي.

موقف الرواة ملخصاً

أورد القصة ابن إسحق طويلة مفصلة وقد شحنها بمعلومات مستفيضة عن الزمان والمكان والأشخاص والنتائج، وتبدو من تضاعيفها جيداً (فن) القصة التقليدي من مقدمة وحبكة ونهاية^(١) وأخرج ابن سعد في طبقاته الكبرى القصة على غرار ابن إسحق تارة، وبشكل مختصر تارة أخرى^(٢)، وتابع الطبري ابن إسحق في روايته مجملاً، وأوردها بسنده عن أبي موسى الأشعري^(٣) تطرق ابن كثير في سيرته إلى القصة على لسان ابن إسحق معلقاً في الأثناء (هكذا ذكر ابن إسحق في هذا السياق من غير إسنادٍ منه)^(٤) وأخرجها بسند ينتهي إلى أبي موسى الأشعري وبمضامين غير متطابقة مع ما جاء في رواية ابن اسحق مشيراً إلى أنّ ذلك قد رواه الترمذي والحاكم والبيهقي وابن عساكر وبالسند السابق والذي هو (.. . العباس بن محمد الدوري، عن قراد بن نوح، عن يونس، عن ابن إسحق، عن أبي بكر، عن أبي موسى، عن أبيه.. .)^(٥) وقد حاكم ابن كثير الرواية في أكثر من نقطة سنأتي عليها لاحقاً، وأفرد الذهبي في سيرته فصلاً للقصة، ذكر رواية ابن إسحق بلا تعليق، وأدرج حديث قراد أبو نوح، قائلاً (وهو حديث

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٩١ - ١٩٥.

(٢) الطبقات ١ / ١٢١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦.

(٣) الطبري ٢ / ٣٦٣ - ٣٦٥.

(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٢٤٦.

(٥) نفس المصدر ص ٢٤٧.

مُنكر جدّاً^(١) وذكر روايات ابن سعد في الموضوع دونما إشارة^(٢) وأخرج القصة برواية قُرَاد في المستدرك^(٣) وقال الذهبي في التلخيص (أظنه موضوعاً فبعضه باطل)^(٤)، أورد القصة كذلك ابن الجوزي برواية داود بن الحصين^(٥) وأصل السند والرواية في الطبقات الكبرى [أخبرنا محمد بن عمر بن صالح بن دينار، وعبد الله بن جعفر الزهري قال : وحدثنا ابن أبي حبيبة، عن داود بن حصين، قالوا... (وساق القصة)]^(٦) وجاء عليها ابن القيم الجوزية باختصار شديد دون إسناد^(٧) وطرقها ابن الاثير في الكامل من غير سند وجل معلوماته من ابن إسحق^(٨) كذلك البلاذري بلا إسناد موجزاً^(٩) وفي البداية والنهاية لابن كثير أيضاً استعراض مسهب للقصة، أستلهه برواية ابن إسحق، ثم بالرواية التي تنتهي إلى أبي موسى الأشعري، ناقداً الحديث في ثلاث نقاط كما جاء في سيرته، وأدرج في الأثناء رواية ابن سعد عن الواقدي عن داود بن حصين المشار اليه سابقاً، وأنها برواية مُجملة جدّاً عن محمد بن سعد في طبقاته والسند [.. .أخبرنا خالد بن معدان، حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز... (وساق

(١) سيرة الذهبي ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر ص ٦٠.

(٣) مستدرك الحاكم ٢ / ٦١٥.

(٤) نفس المصدر الهامش ٢/٦١٥.

(٥) صفوة الصفوة ١ / ٣٣.

(٦) الطبقات الكبرى ١ / ١٥٣.

(٧) زاد المعاد ٢ / ٧٦.

(٨) الكامل في التاريخ ٢ / ٣٧ - ٣٨.

(٩) أنساب الأشراف ١ / ٩٦ - ٩٧.

الحديث)]^(١) ودافع عن القصّة برواية قراد عن أبي موسى الأشعري صاحب الإصابة (وقد وردت هذه القصّة بإسناد رجال ثقة من حديث أبي موسى الأشعري أخرجها الترمذي وغيره^(٢)).

هذا ملخّص شديد عن موقف الرواة والمحدثين من قصّة الراهب بحيرا، وما علينا إلا أن نوغل بالتفاصيل، وسوف ندرس مسانيد القصّة ومحتوياتها وننقب عن جذورها وطبيعة صيرورتها من راوٍ لآخر، ومن محدّثٍ لثانٍ، ولا ننسى ضرورة تقليب النصوص جرياً وراء هدف أو غرض دفين.

التفصيل الروائي

(١) رواية ابن إسحاق

١ : (١ - أ) : جاءت رواية ابن إسحاق مفصّلة، ومملوءة بالحدث الإعجازي، حتى أنّ الاعجاز يشكل نسيج تكوينها وحركتها، إنّ الإعجاز هنا ليس فقرة صميميّة فحسب، بل تحتلّ مادّة الرواية المتصلة، ويسهل ابن إسحاق روايته بما هو معروف : إنّ أبا طالب أخذ معه رسول الله إلى الشام في ركب تجاري، فلمّا نزل الركب بصري، وهي مدينة حوران فتحت صلحاً ٥ ربيع الأول سنة ١٣ للهجرة، وقد لقيهم هناك الراهب بحيرا وهو راهب نصراني عُرف بالعلم لدى قومه، وقد صنع لهم طعاماً كثيراً في صومعته، ذلك على خلاف عادته فقد كان يمرّ عليه كثير من الرّحالة والناس فلا يعير لهم اهتماماً، فما السرّ وراء هذه المفارقة الغريبة ؟

(١) البداية والنهاية ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٦، الطبقات ١ / ١٢٠.

(٢) الإصابة ١ / ١٨٣.

يقولون : إنه رصد ظواهر غريبة بدت على رسول الله ﷺ الذي كان ضمن الركب، فقد كانت غمامة (تظله من بين القوم)^(١)، ولما نزل القوم تحت ظل شجرة (تهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها)^(٢)، فالإعجاز هو الذي دعا بحيرا إقامة تلك الوليمة ثم إلى الاجتماع بهم، وكان قد ركز نظره على رسول الله، ملتفتاً إلى بعض ملامح جسده الشريف، وفي لحظة تفرق القوم (قال له : يا غلام أسألك بحق اللآت والعزى إلا ما أخبرتني عمّا أسألك عنه؟ وإنما قال له بحيرا ذلك، لأنه سمع قومه يحلفان بهما، فزعموا أن رسول الله قال له : لا تسألني بالآت والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، فقال له بحيرا : فبا الله إلا ما أخبرتني عمّا أسألك عنه، فقال له : اسألني عمّا بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيبته وأموره، فجعل رسول الله يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه...)^(٣)، ثم سأل بحيرا أبا طالب عن هذا الغلام فأدعى أنه ابنه، ولكن بحيرا كذبه وقال (... وما ينبغي أن يكون ابوه حياً)^(٤)، فاعترف أبو طالب بأنه عمّه وليس أباه، وطلب إليه أن يرجع بالصبي إلى مكة (بلده)، وحذّره من خطر اليهود عليه (فخرج عمّه أبو طالب سريعا حتى

(١) سيرة ابن هشام ١/١٩٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٣.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام^(١)، وقالوا : إن نقرأ من اليهود رأوا على رسول الله ما رأى بحيرا فأرادوا به كيداً فصدّهم الراهب بحيرا^(٢).

(٢) رواية ابن سعد

٢ : (٢ - أ) [أخبرنا خالد بن خدّاش، أخبرنا معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يتحدث عن أبي مجلز : إن عبد المطلب أو أبا طالب وشك خالد قال : لما مات عبد الله عطف على محمّد صلى الله عليه وسلم قال : فكان لا يسافر سافراً إلا كان معه فيه، وإنّه توجه نحو الشام فنزل فأتاه فيه راهب، فقال : إن فيكم رجلاً صالحاً، فقال إن فينا من يقري الضيف ويفك الأسير ويفعل المعروف، أو نحواً من هذا، ثمّ قال : لآت فيكم رجلاً صالحاً، ثمّ قال أين أبو هذا الغلام؟ قال : فقال : ها أنا ذا وليّه، أو قيل هذا وليّه، قال : إحتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد، واتي أخشاهم عليه، قال : ما أنت تقول ذاك ولكنّ الله يقوله، فردّه قال : اللهم أني استودعك محمّداً! ثمّ أنّه مات]^(٣).

٣ : (٢ - ب) [... أخبرنا محمّد بن عمر، حدّثني محمّد بن صالح وعبد الله بن جعفر وابراهيم بن اسماعيل ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين قالوا : خرج به أبو طالب إلى الشام في العير التي

(١) نفس المصدر ص ١٩٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ١٢٠ - ١٢١.

خرج فيها للتجارة، ونزلوا بالراهب بحيرا، فقال لأبي طالب في النبي صلى الله عليه وسلم ما قال وأمره أن يحتفظ به، فردّه أبو طالب معه إلى مكّة...^(١).

٤ : (٢ - ج) [أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي، أخبرنا أبو مليح، عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال : أراد أبو طالب المسير إلى الشام، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أي عمّ إلى من تخلفني هاهنا فما لي امت تكلفني، ولا أحد يؤذيني، قال : فرّق له، ثمّ أردفه خلفه، فخرج به، فنزلوا على صاحب دير فقال صاحب الدير : ما هذا الغلام منك! قال : ابني، قال : ما هو أبلك ولا ينبغي أن يكون له أب حي، قال : ولم ؟ قال : لأنّ وجهه وجه نبي وعينه عين نبي، قال : وما النبي ؟ قال : الذي يوحى إليه من السماء فينبئ به أهل الارض، قال : الله أجل ممّا تقول، قال : فأتق عليه اليهود، قال : ثمّ خرج حتى نزل براهب أيضاً، صاحب دير، فقال : ما هذا الغلام منك! قال : إبني، قال : ما هو أبلك وما ينبغي أن يكون له أب حي، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأنّ وجهه وجه نبي وعينه عين نبي، قال : سبحان الله والله أجل ممّا تقول، وقال : يا ابن أخي ألا تسمعون ؟ قال : أي عمّ لا تنكر قدرة الله]^(٢).

٥ : (٢ - د) [أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا صالح بن دينار وعبد الله بن جعفر الزهري قال : وحدّثنا ابن أبي حبيبة، عن داود بن

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ١٥٣.

الحصين، قالوا... [وساق كلام ابن إسحاق مع اختلاف يسير في اللفظ^(١)].

٦: (٢ - ٥) [أخبرنا محمد بن عمر، حدّثني يعقوب بن عبد الله الأشعري، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي، قال الراهب لابي طالب: لا تخرجنّ بابن أخيك إلى ما هنا، فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبيّ هذه الأمة، وهو من العرب، واليهود تحسده، تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن أخيك]^(٢).

(٣) رواية الحاكم

٧: (١ - أ) [حدّثنا أبو العباس بن يعقوب ثنا العباس بن محمد بن الدوري ثنا قراد بن أبي نوح، أنبأنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبي موسى...]^(٣). وساق بعض ما ورد في رواية ابن إسحاق وزاد في خوارقها، من ذلك أن الراهب الذي لم يسمه أخبر أشياخ قريش الذين صاحبوا أبا طالب في الركب بأنّ ما من شجر وحجر إلّا وسجد للرسول الكريم وهو مُقبل عليهم، ثمّ قال الراهب في نهاية المطاف (... أنشدكم الله أيّكم وليّه، قال أبو طالب، فلم يزل يناشده حتّى ردّه وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوّده الراهب من العك والزيت) - والقطعة الأخيرة من الرواية -

(٤) رواية الترمذي

٨: (١ - أ) [حدّثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج

(١) نفس المصدر ١ / ١٥٣ - ١٥٥.

(٢) نفس المصدر ١ / ١٥٥.

(٣) مستدرک الحاكم ٢ / ٦١٥ - ٦١٦.

البغدادي، حدّثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح، أخبرنا يونس بن أبي إسحق، عن أبي موسى، عن أبيه... [وساق بعض ما جاء في رواية ابن إسحق وقصة ردّ النبي مع أبي بكر وبلال^(١)].

هذه هي روايات السفارة الأولى إلى الشام وفي الصميم قصة بحيرا الراهب، وما يرويه المؤرّخون وأهل السيرة والحديث يرجع إلى المسانيد السابقة.

تحليل الروايات

قراءة الرواية بأشكالها وتضاعيفها ومسانيدها المتعدّدة تكشف لنا عن صور إعجازيّة خارقة، ويبدو أنها هي المقصودة بالإشارة والإخبار.

منها (١) تظليل الغيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

منها (٢) إنحصار غصن الشجرة كي يستظل بفيئها رسول الله.

منها (٣) سجود الشجر والحجر.

تحتلُّ قصة بحيرا الراهب موقعا حسّاسا من الرواية، وجوهر القصة أنّ بحيرا إكتشف النبي وشخص نبوته باهتداء الخوارق السابقة، وأن خاتم النبوة أكد هذا الإكتشاف فضلا عن أنّ موقف رسول الله الراض للقسّم باللات والعزى، وهناك زيادة مهمّة في رواية أبي موسى الأشعري ألا وهي أن الرسول الكريم رجع أو أرجعه أبو طالب إلى مكة بناء على طلب الراهب بصحبة بلال، وذلك بتدبير من أبي بكر.

إنّ تفحص الرواية بصيغها المتنوّعة يتيح لنا القدرة على ترتيبها

(١) سنن الترمذي ٥ / ٥٩٥.

طوليًّا من حيث تكاثر وتصاعد وتيرة الحدث غير الطبيعي، فبالوقت الذي إقتصرت رواية ابن إسحق على موضوعي الغيمة والشجرة زادهما أبو موسى سجود الحجر والشجر، وإذا كان خاتم النبوة بين كتفيه يستبدّ بالإشارة فإن رواية محمّد بن عقيل في طبقات ابن سعد تضيف لذلك الوجه والعين، حيث أن الراهب ميّزهما في إطار العلائم على نبوته صلى الله عليه وسلم، وتبدو الرواية عادية أحيانا، ونحن إذا أجرينا عمليّة مطابقة بين الرواية بصيغها المتباينة أو المتعدّدة بتعبير أدق لوجدنا الكثير من المفارقات منها على سبيل المثال :-

١ : إنّ أبا طالب هو الذي عاد برسول الله إلى مكّة بعد أن أنهى مهمّته التجارية في الشام كما تقول رواية ابن إسحق، فيما رواية الترمذي عن أبي موسى أنّه عاد بصحبة بلال، وعلى ذلك الحاكم أيضا، وإن كان ذلك بتخطيط وتدبير أبي بكر.

٢ : إنّ إسم الراهب بحيرا غير موجود في بعض صيغ الرواية كما في الرواية التي يرويها أبو موسى الأشعري.

٣ : ولم نجد لقصة الغيمة والشجر والحجر أثرا في رواية محمّد بن عقيل الواردة في الطبقات.

٤ : وقد سكتت الرواية كما في بعض مسانيدها في أكثر من صيغة عن مصير الراهب ولكن رواية أبي مجلز في الطبقات أنّه مات، وهو حدث ذو دلالة، ومن الصعب غياب مثل هذا الحدث عند الآخرين.

٥ : إنّ النبيّ عاد مباشرة من مكان اللقاء إلى مكّة في موضع وفي موضع آخر أنه عاد بعد أن أكمل رحلته إلى الشام.

هذه بعض المفارقات ونحن إنما نذكرها لأنها جديرة بالحضور في الرواية لأهميتها ودلالاتها ولاتصالها بذات الحدث ككل وعلاقته بالإشارة إلى نبوة الرسول الكريم، فإن العودة إلى مكة من (بصرى) هو الأولى بموقف أبي طالب، وذلك تبعاً لوصية الراهب، وإنسجاماً مع حب أبي طالب للرسول، وخوفه المعهود عليه، فيما نجد أنّ كل هذه المقتربات المعقولة قد فقدت حقها من الحضور في بعض صيغ الرواية، واسم الراهب مسألة مهمة وخطيرة في سياق روح الحدث ككل وأهميته وغاياته، خاصّة والراهب معروف بعلمه لدى أهل الكتاب كما تذكر الرواية هنا وهناك، ولكن هذا الاسم المهم يغيب أحياناً وبشكل غير إكثرائي، أنه يدخل في جوهر الشواهد التي من شأنها تعزيز المسألة من جميع جوانبها، لأنها ستكون حاضرة باسمائها البارزة، ومن الغريب أن تختفي صور الإعجاز في رواية أبي مجلز، أي لبّ الحدث وصميمه، واعتقد أنّ أبا مجلز ينبغي أن يكون منشداً إلى الإثارة الرئيسيّة في الحدث أكثر من أن يكون منشداً إلى أطرافه التي جيئ بها كي تعطي لتلك الإثارة مشروعية التحقق، إن السياق موظف بكل مفرداته وأجوائه لمواطن الإثارة الغيبية وليس العكس، ولست أدري كيف غابت على أبي مجلز هذه الملاحظة الدقيقة في فن الأخبار الغربية؟

رواية أبي موسى الأشعري قد توصف بأنها قوية السند، ولكن متن الرواية مُختَرَقٌ ممزّق، ذلك أن أبا بكر كان اصغر من رسول الله بستين، حيث كان عمره (تسع سنين على الراجح وقيل اثني عشر سنة

وشهرين وعشرة أيام^(١) كما أنّ بلائاً قد لا يكون من أبناء الدنيا آنذاك^(٢) وسوف اعود إلى رواية أبي مسلم بتفصيل أوفى.

نظرة في المسانيد

لم يكن حظ السند في الرواية من الركافة والضعف أقل من حظ المتن، فإنّ ابن إسحق أورد هذه الرواية المطوّلة المفصّلة المشحونة بالعجائب بلا سند منه. ففي رواية ابن سعد (٢ - أ) نجد الراوي خالد بن قداش وقد ضعفه المدني وقال زكريا الساجي فيه ضعف^(٣) وفي رواية ابن سعد (٢ - ب / د) داود بن حصين وقد قال ابن عيينة كُنا نتقي حديث داود، وقال أبو زرعة: لئن، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال الساجي: منكر الحديث، وقال الجوزاني: لا يحمد الناس حديثه^(٤) وفي رواية ابن سعد (٢ - ج) عبد الله بن محمّد بن عقيل، وهو ضعيف عند السنّة والشيعّة، ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة من أهل المدينة وقال: كان منكر الحديث لا يحتجون بحديثه، قال ابن يعقوب... في حديثه ضعف شديد جداً، وكان ابن عيينة يقول: أربعة من قريش يترك حديثهم فذكره فيهم، وقال الحميدي عن ابن عيينة: كان في حفظه شيء فكرهت أن ألقيه، قال حنبل عن أحمد: منكر الحديث، وعن ابن معين: ضعيف الحديث^(٥) هذا فضلاً عن هذه

(١) السيرة الحلبية ١ / ١١٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٢٠.

(٣) تهذيب التهذيب ٣ / ٨٥.

(٤) تهذيب التهذيب ٣ / ١٨١ - ١٨٢.

(٥) نفس المصدر ٦ / ١٤.

الفترة الزمنية الطويلة بين وفاته والحدث المذكور، ذلك أنّ وفاته كما جاء في تهذيب التهذيب سنة ١٤٠ للهجرة.

في رواية ابن سعد (٢ - هـ) يعقوب بن عبد الله الأشعري المتوفي سنة ١٧٤ للهجرة، قال عنه الدار قطني ليس بالقوي^(١) وفي السند أيضاً جعفر بن أبي المغيرة، قال عنه ابن مندة ليس بالقوي^(٢) إنّ أقوى سند هو سند رواية قُرَاد الذي يتصل بأبي موسى، وسوف نتحدّث عن هذه الرواية بعد حين.

إنّ التدقيق بمسانيد ابن سعد كشف عن خلل في بعض رجالها، إلّا أنّ هناك شيئاً آخر في ذلك... . إنّّه بكل بساطة الإرسال... .

إنّ مصدر الرواية (٢ - أ) أبو مجلز وهو من التابعين، وكان قد توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، أي في حدود سنة ١٠٠ للهجرة، فروايته من المراسيل، مراسيل التابعين وليس الصحابة، ومصدر الرواية (٢ - ب) هو داود بن الحصين وقد توفي سنة ١٣٥ للهجرة، ومصدر الرواية (٢ - ج) عبد الله بن محمّد بن عقيل الضعيف وقد توفي سنة ١٤٠ للهجرة، إنهم جميعاً من التابعين... . ولم يبيّنوا مصدرهم من الصحابة، وحكم المرسل عند جمهور المحدثين وكثير من علماء الفقه والاصول ضعيف، لأنّ الواسطة المجهولة العين لا تُعرّف هويتها، فقد لا يكون صحابياً على فرض الإيمان بعدالة كل الصحابة، والمرسل لا يقوّي المرسل أبداً، لأنّ علّة الضعف سارية في الإثنين، كلاهما

(١) نفس المصدر ١١ / ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) نفس المصدر ٢ / ١٠٨.

عليل، والفرغ الحاصل بين التابعي ومصدره لا تعالج المشكلة بكون التابعي من الكبار، كما في أبي مجلز، لأنه فراغ على أي حال، خاضع لأكثر من فرض في تعيين هوية المصدر.

الرواية العمدية

إنّ أهم سند هو سند قُراد المتصل بابي موسى الأشعري، فلنتفحص أولاً مكونات الرواية، أي وحداتها التكوينية، وذلك باستعراضها كاملة.

(... خرج أبو طالب إلى الشام ومعه محمّد صلى الله عليه وسلم وأشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب نزلوا فخرج إليهم، وكان قبل ذلك لا يخرج إليهم، فجعل يتخللهم وهم يحلّون رحالهم حتى جاء فأخذ بيد محمّد صلى الله عليه وسلم وقال : هذا سيّد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أشياخ قريش : وما علمك بهذا؟ قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا وخرّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، لأعرفه بخاتم النبوة، وأسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهاهم به... فأرسلوا إليه - أي النبي - فأقبل وعليه غمامة تظّله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه - يعني إلى فيء الشجرة - فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال : إنظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال : فبينما هو قائم عليه يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم لو رأوه عرفوه بصفته فقتلوه، فالتفت فإذا بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم الراهب فقال : ما جاء بكم؟

قالوا : جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا وقد بُعث إليه ناس، وإنا قد أُخبرنا فُبِعنا إلى طريقك هذا، فقال لهم : هل خَلَفْتُمْ أحداً هو خير منكم؟ قالوا لا إنما أُخبرنا خبره بطريقك هذا، قال : أفرايتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس ردّه؟ قالوا : لا. قال : فتابعوه وقاموا معه، قال : أنشدكم الله أيكم وليّه؟ قال أبو طالب : أنا، فلم يزل يناشده حتى ردّه أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلائاً وزوّه الراهب من الكعك والزيت)^(١).

هذا هو نصّ رواية قُرَاد عن أبي موسى الأشعري، نصّ مملوء بالغيب والغرائب وما لا يتفق وسنن الطبيعة، نص غير مفهوم في بعض مفرداته.

كيف كان يسجد الشجر والحجر؟ إن الراهب بحيرا يصمت هنا، فيما المطلوب هو الشرح والبيان، لأن في هذا السجود المزعوم الذي يدّعي بحيرا رؤيته يكمن سرّ موقفه وحركته... والغيمة التي كانت تظله في الطريق إختفت إلى حد كبير من نصيب تشكيل الحدث أو الواقعة، وحافظت على جزء يسير من دورها الذي قرأناه في رواية ابن إسحق، وفي الرواية هتاف (بحيرا) في الشهادة الذي لم نعثر عليه في الصيغ الأخرى، ومن الغريب أن الراوي أغفل أسماء أشياخ قريش الذين حضروا مفاصل الحدث المدهش، ثم مسألة أبي بكر وبلال التي أثارت استغراب أهل الحديث ونقّاده، حيث يقول الذهبي (وهو حديث منكر جدا، وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٢١٦.

الله بسنتين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت، فإنّ أبا بكر لم يستره إلا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد، وأيضاً فإذا كان عليه غمامة تظلمه كيف يُتصوّر أن يميل فيء الشجرة؟ لأنّ ظل الغمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الشيوخ، مع توقّف همهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لأشتهر بينهم أيّما إشتهار... وفي الحديث ألفاظ منكّرة تشبه ألفاظ الطّرقيّة...^(١).

الحديث تفرد به قراد ولذا قال الترمذي (هو غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه)^(٢) وفي الواقع أن سنده (الصحيح) أربك بعضهم ولذا يقول أبو نعيم الاصفهاني في الدلائل (... وقد وردت هذه القصّة باسناد رجال ثقة من حديث أبي موسى الأشعري، أخرجها الترمذي وغيره ولم يسم الراهب، وزاد فيها لفظة منكّرة وهي قوله : وأتبعه أبو بكر بلالا، وسبب نكارتها أن أبا بكر حينئذ لم يكن متأهلاً، ولا أشتري بلالا، إلا أن يُحمل على أنّ هذه الجملة الأخيرة منقّطة من حديث آخر درجت في هذا الحديث، وفي الجملة هي وهم من أحد رواته)^(٣) ولم يُشر صاحب الدلائل هذا إلى المفارقات الأخرى التي فصلّ بها الذهبي أنفأ، ولكن من حقنا أن نسأل : ترى لماذا اقتصر حظ سماعه على أبي موسى، وهو الذي تأخر إسلامه، ولم يكن يلق رسول الله إلا

(١) سيرة الذهبي ص ٥٧.

(٢) صحيح الترمذي.

(٣) الاصابة ١ / ١٨٣ - ١٨٤.

بعد الهجرة، وأبو نعيم وهو يدافع عن الرواية لم يذكر لنا مصدر القطعة التي تسربت وهما إلى الرواية أصلاً.
وبعد . . .

إن الرواية بصيغها المتعددة غير متطابقة، تتفاوت في كثير من الفقرات والجزئيات وسندها مرسل، ومصدرها لم يكن مولوداً أصلاً آنذاك، وغرائبها تصطدم بالعقل والمنطق والتاريخ.
فلماذا قبلها ونعول عليها؟

إذا كان السند هو المشكلة هنا باعتبار وثاقة رجاله عند البعض، فإن الحل ليس صعباً، إنها مكذوبة بشكل وآخر على أحد هؤلاء الرجال، ليس في هذه الصورة ما هو مستحيل وما أكثر النظائر في هذا المجال.

مفارقات الأسماء والعناوين الكبيرة

أبو طالب هو الآخر لم يسلم من علامة الاستفهام من حيث دوره في الحدث، فعلى الرغم من أنه رمز مؤسس في الرواية سواء في البداية أو الوسط أو النهاية، إلا أنه جاهز للاستبدال بغيره في أحد روايات ابن سعد، فإن الرواية (٢ - أ) رددت بين أبي طالب وعبد المطلب، وعليه فإن أحد ركائز الرواية بل من أهم ركائزها أصابها اضطراب التشخيص، وقد يبدو أن هذا الأمر بسيط لا يؤثر، ولكن في الحقيقة إن عدم الاحتفاظ بأسم أو عنوان أو صفة يؤثر في قوة الرواية، خاصة إذا كان في صميم تكوين الحدث أو القضية.

إستطراداً وفي ضوء هذا المقرب لابد من ملامسة موضوع بحيرا،

الذي يتصل إتصلاً صميمياً بقضية الإعجاز التي هي جوهر الحدث، فإذا كانت الرواية في بعض صيغها لم تذكر الأسم ومن أهمها رواية (فُراد عن أبي موسى) كما هو مشهور، ولكن عن المسعودي أنّ إسمه (جرجيس) وهو من (عبد قيس)^(١) كان لعبد قيس دور كبير في الإسلام، شاركوا في الحروب، ولهم باع طويل في تأسيس الإتجاهات المذهبية في التاريخ الإسلامي، ولو كان بحيرا حقاً من عبد قيس لسمعنا أخباره عندهم إفتخاراً ورواية وإعتزازاً، ولكن حكى السهيلي عن سير الذهبي أنّ بحيرا كان حبراً من أحبار اليهود^(٢) ولكن الذي نقرأه في الروايات أنّه راهب نصراني، وكان النصراني يرجعون إليه لما عنده من علم، وقد حاول بعضهم معالجة هذا التناقض بالقول إنه ربما كان يهودياً ثم ترهب^(٣) والجمع لا دليل عليه كما يقولون، وهو جمع علاجي اي لحل المشكل المطروح بسبب التناقض، وليس عندنا من الأخبار ما يثبت الحالين على التوالي، ولكن إن كثير يقول (قلت: والذي يظهر من سياق القصة أنّه كان راهباً نصرانياً والله أعلم)^(٤).

إنّ أهم مفاصلها في سيرة ابن هشام نجدها في طبقات ابن سعد ولكن في رحلة الشام الثانية، وذلك عندما كان عمر النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة^(٥) بل نجد فيها أهم مفاصل رواية ابن سعد عن السفارة المذكورة، أي الأولى خاصّة (٢ - أ)، مع فارق

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٢٥٠.

(٢) نفس المصدر ص ٢٤٩.

(٣) السيرة الحلبية.

(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٢٤٩.

(٥) الطبقات الكبرى ١ / ١٥٥ - ١٢٦.

الزمان، وفارق الرفيق حيث كان في السفرة الثانية هو (ميسرة)، ويتكرّر في قصّة السفرة الثانية موضوع الراهب ولكن باسم نسطور هذه المرّة، وسوف نعالج السفرة الثانية لاحقاً.

ملحمة السند مرّة أخرى

قوّة الراوية في صياغتها المرورية عن فرد عن أبي موسى الأشعري، وقد تطرّقنا إلى جملة مفارقات في المتن والسند، ولأنّ السند هو مبرّر قبول هذه الصيغة في بعض فقراتها كما عن أبي نعيم صاحب دلائل النبوة نريد هنا أن نتفحص السند بجديّة أكثر.

إنّ السند يقف عند أبي موسى الأشعري، ولم يبين لنا مصدره، والأشعري لم يحضر الحادثة، وقد لحق رسول الله سنة ٧ للهجرة وذلك في وقعة الخندق، ولكن قالوا إنّ بقية رواته ثقة، فإذا تركنا قراد المتوفي سنة ٢٠٧ للهجرة^(١) سنتواجه مع يونس بن أبي إسحق المتوفي سنة ٢٥٠ للهجرة، وردت فيه توثيقات، ولكن ورد فيه قدح وتشكيك أيضاً، ففي تهذيب التهذيب (... وقال الأثر : سمعت أحمد يضعف حديث يونس عن أبيه، وقال : حديث إسماعيل أحبّ لي منه، قال أبو طالب عن أحمد عن أبيه : في حديثه زيادة في حديث الناس، قال عبد الله بن أحمد عن أبيه : حديثه مضطرب، وقال أيضاً : سألت أبي عن عيسى بن يونس فقال : عن مثل عيسى يُسأل، قلتُ : فأبوه يونس؟ قال كذا وكذا، قال الساجي : وضعفه بعضهم)^(٢) وقال (ابن حزم في

(١) تاريخ بغداد ١٠ / ٢٥٤.

(٢) تهذيب التهذيب ١١ / ٤٣٤.

المُحلّي : ضعّفه يحيى بن قظان وأحمد بن حنبل أيضاً وقال ابن خراش : في حديثه لين، وقال أبو حاتم : لا يُحتج بحديثه^(١) وفي السند أيضاً أبو بكر بن أبي موسى الأشعري المتوفى سنة ١٠٦ للهجرة، فقد روى ذلك عن أبيه مباشرة، ولكن يقول عبد الله بن أحمد (قلتُ لابي فأبو بكر بن أبي موسى الأشعري سمع من أبيه؟ قال : لا)^(٢) ولكن نقرأ (قال الآجري : قلت لأبي داود : سمع أبو بكر من أبيه؟ قال : أراه قد سمع)^(٣) والكلام مساق بلغة التمريض كما هو واضح، (أراه...)، ولكن الرجل يذهب مذهب أهل الشام (جاءه أبو غادية الجهني قاتل عمّار فأجلسه إلى جانبه وقال : مرحباً يا أخي...)^(٤) وقال ابن سعد (... كان قليل الحديث يُستضعف)^(٥) ولآه الحجاج قضاء الكوفة -

هذا هو أبو بكر بن أبي موسى، مختلف باسمه مشكوك بسماعه عن أبيه ضعيف عند البعض يبش ويهش لقاتل عمار بن ياسر وأخيراً كان قاضي الحجاج على الكوفة، فسند الحديث ليس كما وصفه أبو نعيم وغيره.

فلا أعتقد أنّ حدثاً بهذا الغموض وهذا الاضطراب يمكن أخذه في سياق تكوين رؤية تاريخية عن حياة أعظم رجل عرفته السماء

(١) ضعفاء الذهبي ٢ / ٧٦٦.

(٢) تهذيب التهذيب ١٢ / ٤٠.

(٣) نفس المصدر ١٢ / ٤٠.

(٤) نفس المصدر ص ٤١.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

والارض، ولم يكن هو بحاجة إلى بركات بحيرا، ولم نجد لهذا الحدث المزعوم أي أثر في حياته الكريمة أو نبوته الشريفة... إنه حدث مخلوق بكل تفاصيله...

السفرة الثانية إلى الشام

مضى بنا الحديث عن سفرة النبي الأولى للشام بصحبة عمّه أبي طالب أو جدّه عبد المطلب، وتبين لنا أنّ الخبر لا يتمتع بأسباب قبوله، ولا يمكن الركون إليه باطمئنان كبير، سواء على صعيد السند أو علي صعيد المضامين التي تكوّن بنيته الأساسية، وأن مقارنة سريعة بين صيغته تهوي وتطيح بكل إمكانية التفاعل معه بدرجة معتدّة من الإيجابية، وبالتالي من المخاطرة إستلهاً الخبر هذا في تشخيص معلم من معالم الحياة النبوية الكريمة، وتحديد بعض مساراتها كحياة وعبرة وفلسفة، ومن التدقيق بتضاعيفه إكتشفنا بدرجة عالية من الحدس أنّه سلسلة من دواعي النظر الناقد، لأنه محتشد بأحداث غريبة، كما أنّ مقتربات ما بعد الخبر بكل معطياتها مفقودة، بل غائبة، فيما هي تفرض نفسها بقوة غرابتها على حسّ الحاضرين (أشياخ قريش ورفاق الرحلة)^(١)، وتملك قابلية الشيوع والحكم والاستشهاد في نثر وشعر وأخبار أهل مكّة بل وحتى ضواحيها، نظراً لحاكميّة الرواية والغريبة منها على وجه الخصوص في الذهنية العربيّة، فمثل هذا الحَدث وصاحبه صار ذا شأن كبير لا يقف عند حد راو واحد تابعي أو راو واحد صحابي لم يشهد رسول الله إلّا بعد الهجرة، بل سيكون مادّة

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٦.

حوار ساخن وتناقل وتداول بين أخذ ورد، وربما يحتدم الجدل فيه بين أصناف الرافضين والمؤمنين بنبوة الرسول الكريم، وقد يذهب بعضهم أن ذلك لا ينفي أصل السفارة، ولكن ماذا نفعل بالسند المرتبك؟ ماذا نفعل والسفيرة بكل ملابساتها ومحتوياتها ومضامينها مضطربة مشوشة، غريبة وغير طبيعية؟ ماذا نفعل وقد غاب خبرها على لسان الأصحاب في المصادر الحديثية المهمة ولم ترد إلا في الحاكم والترمذي بكل مفارقاتها، ماذا نفعل ولم نجد آثارها فيما بعد؟ والموقف الحصيف في مثل هذه الحالات هو التردد على أقل تقدير، ولكن يقولون: إن هناك سفرة ثانية للشام، سفرة في عمل تجاري، نريد أن نتعرف على خبر السفرة الثانية.

إشارة في الصميم

إذا كان حديث السفارة الأولى قد أخرجه الترمذي والحاكم فإن حديث السفارة الثانية لم يرد في أي مصدر حديثي، ولذا نجد أن (إبراهيم العلي) صاحب موسوعة (صحيح السيرة النبوية)^(١) لم يورد خبر هذه السفارة إطلاقاً، سواء بشكل منفرد أو أثناء تعرّضه لزواج الرسول الكريم من خديجة للصلة الموجودة بين السفارة المزعومة والزواج الميمون، وقد قال صاحب هذا الجهد (. . . إعتمدت هذه الدراسة على أصح الروايات . . .)^(٢) وهو لم يذكر هذه السفارة لأن

(١) صحيح السيرة، طبع دار النفائس لأبراهيم بن علي، قدّم له دكتور عمر سليمان الأشقر ط ٢ سنة ١٩٩٦.

(٢) صحيح السيرة ص ١٢.

روايتها ضعيفة فضلاً عن عدم وجودها في المصادر الحديثية عند الجمهور، والكاتب إتبع مناهج النقد الحديثي والرجالي المعروفة لدى أهل السنّة في إختيار الأخبار والروايات المتعلقة بالسيرة النبوية.

السفرة الثانية إلى الشام وردت في كتب السيرة والتراجم والتاريخ كما هي السفارة الأولى مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وابن كثير والطبري وغيرها، وينبغي أن لا يكون ذلك مدعاة إغراء لقبول هذه الرواية لأنّ الواجب يدعو إلى فحص المسانيد وتقليب المضمون، كما أنّ الكثير من المؤرخين والرواة قد يكون سندهم واحداً، ولذا فإن كثرة المصادر لا تشكّل بحد ذاتها قرينة قويّة أو دالّة موحية بالرضا والقبول، فربما أصل هذه الكثرة سند واحد لا أكثر.

الروايات والنصوص التاريخية

(١) رواية ابن إسحق

١ : (١ - أ) يبدأ النص بحديث عن بعض أحوال خديجة الرفيعة، ثم يعرج على قرارها بتكليف رسول الله بالاتجار بمالها لما سمعت من كرم أخلاقه ثم يقول (. . . فقبله رسول الله منها وخرج في مالها ذلك - إلى الشام - وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له : من هذا الرجل الذي تحت الشجرة ؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسول الله سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى

مكة ومعه مسيرة، فكان يسره فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ يرى ملكين يُظْلانهُ من الشمس، وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا، وحدثها مسيرة عن قول الراهب، وعمّا كان يجري من إضلال الملكين إياه...^(١).

هذه هي رواية ابن إسحق، رواها الطبري عن ابن إسحق^(٢)، ونقله ابن الأثير مختصراً^(٣)، وذكره ابن الأثير كاملاً في سيرته^(٤)، كذلك في تاريخه البداية والنهاية^(٥)، والذهبي في سيرته^(٦)، وغيرهم والمصدر هو ابن إسحق.

(٢) رواية ابن سعد

٢: (٢ - أ) [قال: أخبرنا محمد بن عمر بن واقد... أخبرنا موسى بن شيبه، عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك، عن أم سعد بنت سعد بن الربيع، عن نفيسة بن منية أخت يعلي بن منية قالت: لما بلغ رسول الله خمساً وعشرين سنة قال له أبو طالب: أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزمان علينا وهذه غير قومك وقد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وبلغ خديجة ما كان من محاوره

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) الطبري ٢ / ٣٦٣.

(٣) ابن الأثير ٢ / ٣٩.

(٤) سيرة ابن الأثير ١ / ١٦٢.

(٥) البداية والنهاية لابن الأثير ٢ / ٢٧٢.

(٦) سيرة الذهبي ٦٣.

عمّه له، فأرسلت إليه في ذلك وقالت له : أنا اعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك^(١).

٣ : (٢ - ب) [قال : أخبرنا عبد بن جعفر الرقي، حدّثني أبو المليح، عن عبد الله بن محمّد بن عقيل، قال : قال أبو طالب : يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً بيكرين ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن تكلمها؟ قال : ما أحببت! فخرج إليها فقال : هل لك يا خديجة أن تستأجري محمّداً؟ فقد بلغنا أنك إستأجرت فلاناً بيكرين، ولسنا نرضى لمحمّد دون أربع أبكار، قال : قالت خديجة : لو سألت ذاك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب^(٢).

٤ : (٢ - ج) [قال : أخبرنا محمّد بن عمر، أخبرنا موسى بن شيبة عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك، عن أم سعد بنت سعد بن الربيع، عن نفيسة بنت منية قالت : قال أبو طالب : هذا رزق ساقه الله إليك، فخرج مع غلامها ميسرة وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدما بصري من الشام، فنزلا في ظل شجرة، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ثمّ قال لميسرة : أفي عينيه حمرة؟ قال : نعم لا تفارقه، قال : هو نبي وهو آخر الأنبياء، ثمّ باع سلعته فوقع بينه وبين رجل تلاح فقال له : أحلف باللات والعزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط، وأني لأمرّ واعرض عنهما، فقال الرجل : القبول قولك، ثمّ قال لميسرة : هذا

(١) نفس المصدر ١ / ١٢٩.

(٢) نفس المصدر ١ / ١٣٠.

والله نبي تجده أحبارنا منقوشاً في كتبهم، وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحر يرى ملكين يُظلان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس، فوعى ذلك كله ميسرة، وكان الله قد ألقى عليه المحبة من ميسرة، فكان كأنه عبد له...^(١).

(٣) رواية البلاذري

٥ : (٣ - أ) [قالوا : ولما جاوز سني رسول الله صلى الله عليه وسلم العشرين قال له أبو طالب : يا ابن أخي : إن خديجة بنت خويلد امرأة موسرة ذات تجارة عريضة، وهي محتاجة إلى مثلك في أمانتك وطهارتك ووفائك، فلو كلمناها فيك فوكلتك ببعض أمرها وتجارتها، فقال صلى الله عليه وسلم : إفعل يا عم ما رأيت، فسعى أبو طالب إليها، فكلّمها في توكيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض تجارتها، فسارعت إلى ذلك ورغبت فيه، ووجهته إلى الشام، ومعه غلام لها وقيم يُقال له ميسرة، فلما فرغ ممّا توجه له قديم مكة، أخبرها ميسرة بأمانته وطهارته، وما يقول به أهل الكتاب]^(٢).

تنقيب في مضمون النصوص

هذه هي بعض الروايات والنصوص، وفي الحقيقة أن ابن هشام أو بالأحرى ابن إسحق وابن سعد هما المصدران الرئيسيان للرواية، وهما المصدران المهتمان في هذا الموضوع، لأن السيرة الهشامية مصدر أصيل لأختصاص صاحبها في السيرة النبوية، ولأن ابن سعد يروي

(١) طبقات ابن سعد ١ / ١٣٠.

(٢) أنساب الأشراف ١ / ٩٧.

مسنداً، ولذا نجد نفوذ رواية ابن إسحق في إمهات المصادر التاريخية، كما أنّ كثيراً من الباحثين الدينيين في السيرة يعتمدون الطبقات أكثر من اعتمادها المصادر التاريخية.

متون الأحاديث غير متطابقة في كثير من الأمور، فتكليف رسول الله صلى الله عليه وآله بالتجارة تارة من خديجة بصورة مباشرة لما سمعت من أمانته وخلقها، وأخرى بواسطة أبي طالب بدافع العوز والفقر، وقد كان ذلك وعمره خمس وعشرون سنة، فيما في رواية أخرى كان عمره أكثر من عشرين سنة بقليل، وفي الرواية رقم ٢ (٢ - ب) تنبئ عن وجود علاقة حميمة بين محمّد وخديجة قبل التكليف بالزواج، وتعيب كل المعجزات في الرواية رقم ٢ (٢ - أ) وفي رقم ٣ (٢ - ب) وفي رقم ٥ (٣ - أ) رغم أهميتها الجوهرية، وهي لا بد أن تكون في مقدمة الإشارة عند كل رواية يتحدث عن السفارة المذكورة، وأي شأن من شؤونها حتى ولو كان هامشيًا، لأنها الجزء البارز المتوقّد بضرورة الذكر والتنويه، ومن الغريب أيضاً أن نجد نفس الوقع الأعجازي أو ما يشبهه في السفارة الأولى (التظليل والراهب)، فكلاهما يتكرران في الحدث المتشابه بالهوية - السفر إلى الشام - إلا أننا نكتشف عملية تطور هنا، ذلك إنّ مهمة (التظليل) أنيطت بالملائكة فيما كانت بفعل الغيمة والشجرة في سفرة الشام الأولى، ممّا يُطلعنا على ظاهرة التصعيد، لأنّ التظليل بواسطة الملائكة أكثر دلالة على الغيب وأعمق إتصلاً بالأفق غير المنظور، ويبدو أنّ ميسرة هذا كان على علم دقيق بطبيعة الملائكة الذين هم أصلاً من صلب الغيب بمعناه

الميتافيزي الصرف! وإذا كان الخاتم بين الكتفين هو علامة النبوة عند الراهب بحيرا الذي حارت الأخبار في إسمه ودينه الحقيقي ومصيره، فإن العلامة عند نسطور هي إحمرار العين الدائم، ولم نسمع بأن عيني الرسول كانتا حمراوين، وهذا العمر الطويل للشجرة الميمونة يخرج بها عن الحد المعقول، وأعتقد أن من نافلة القول بأن نسطوراً لم يشهد عيسى فضلاً عن الأنبياء الذين قبله. على أننا نتساءل مضطرين كيف وافق أبو طالب أن يسافر عزيزه محمّد إلى الشام وسبق أن حدّره الراهب بحيرا من يهود الشام، وقد مرّ علينا أنه عاد به مسرعاً إلى مكّة بناء على هذا الطلب، فالسفرة الأولى تنفي السفارة الثانية، بل أكثر من ذلك، إذا قرأنا في رواية ابن سعد نفسه عن داود بن حصين أن أبا طالب رجع برسول الله إلى مكّة (وما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه)، وهو ما جاء في سيرة الوفاء لأبن الجوزي أيضاً^(١).

هذه المفارقات والتصدّعات دعت أصحاب الولع بالغريب إلى معالجتها، فقالوا إن قول الراهب نسطور (ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ) إنما معناه (ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبيّ)، وهي معالجة باردة بدلالة (قط) التي تؤكد النفي، وهناك محاولات أخرى أضعف وأسذج وكلّها تؤكد بشكل وآخر أزمة الخبر^(٢).

يتصل ميسرة - غلام خديجة - بسفرة الرسول الثانية وأحداثها إتصلاً وثيقاً، وكان مدخلها أو سببها إلى التاريخ، وقد شهد حسب

(١) الوفاء لابن الجوزي ١٧١، ١٧٢.

(٢) السيرة الحلبية ١ / ١٣٢ - ١٣٣.

رواية نفيسة ما يُدهش العقل ويهزّ الفكر والطبيعة، وكانت الأحداث الغربية تسجّل تاريخاً متواصلاً في السفارة المذكورة، ومن هنا نتوقّع أن يدخل ميسرة هذا التاريخ شاهد عيان، يملأ الوسط القرشي بالخبر بشكل وآخر، ولكن لم نجد لميسرة هذا أيّ ترجمة في كتب السير والأصحاب سوى أنّه غلام خديجة!! لقد عُرف الخبر بميسرة، ولكن الخبر خارق للعادة ملفت للنظر، يستفزّ الاسئلة، وعليه لا بد أن يُعرف ميسرة هو الآخر بالخبر المذكور، ولكن للأسف الشديد تشخّ علينا كتب السير والتراجم في هذا المجال، ممّا يولّد درجة من التردّد على مستوى التعامل الموثوق مع القضية برمتها، ورسول الله صلى الله عليه وآله ذاته لم يخبر بشيء عن هذه السفارة ولا عن أحداثها، فإن مصادر الحديث والسيرة جديّةً إلى حدّ الدهشة على صعيد الإشارة النبوية إلى هذه القضية الخطرة، وإذا كان هناك خبر بسيط يُروى عنه في حرب الفجار فإنّ ذلك معدوم في المجال الذي نحن فيه، رغم أنّ مشاركته في حرب الفجار - إن صحّ ذلك - لا تشكل قيمة ذات بال أو خطر على صعيد صيرورته النبوية، بل هي ذات مفعول سلبي على سيرته النظيفّة لأن الحرب وقعت في الأشهر الحرم المقدّسة وقد نوّه عن ذلك، وإنّها لمفارقة كبيرة أن يستذكر مشاركته في حرب الفجار ولا يستذكر تجارته إلى الشام وميسرة والراهب نسطور وتظليل الملائكة وربحه الوفير.

معاينة السند وفحصه

لم يعد خافياً أن الرواية التي تنتهي إلى نفيسة بنت مُنّبهِ أو أميّة إنّما هي موقوفة على نفيسة نفسها، وبالعودة إلى ترجمتها نقع على معلومات

باهتة، لا تُسَعَف الباحث في إستلهاام ما يقود إلى الإطمئنان في التعامل مع الرواية، فكل ما نقرأه عنها ما أورده ابن الأثير وغيره (نفسية بنت أمية أخت يعلي بن أمية التميمي لها صحبة ورواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروت عنها أم سعد بن سعد بن الربيع أنها قالت : ولدت خديجه للنبي صلى الله عليه وسلم والقاسم والطاهر وزينت ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين)^(١) فهل تكفي هذه الترجمة في الإطمئنان إلى الخبر الوارد عنها؟ خاصة وأن روايتها المذكورة خاضعة لنقاش طويل؟ ويبدو لمجهوليتها تُعرَف بأخيها المدعو (يعلي بن أمية) وهو ما جاء في تهذيب التهذيب والأصابة كذلك، ولو عدنا إلى المرفس كي تكتمل الصورة، لاصطدنا بحالة إنتهازية غريبة في تاريخ الإسلام، فهذا الرجل أسلم يوم الفتح، عمل لعمر على نجران وقد ولي صنعاء لعثمان بن عثمان وشهد مع عائشة الجمل وصفين، وأنفق أموالاً عظيمة في هذه الحرب، وهو ممّن أعان على علي وقتل معه في صفين^(٢) على أننا نقرأ في أنساب الأشراف^(٣) أنها أسلمت يوم الفتح، وفي الحقيقة لو كان ذلك صحيحاً ما روت عن ميسرة لما تأخر إسلامها هذه المدّة الطويلة نسبياً، فإن ذلك هو المقول خاصة وأنها على صلة بخديجة كما يقولون، وليس هناك ترجمة كذلك لـ (عميرة بنت عبيد الله). ولكن لماذا نذهب بعيداً وقد اختلفوا في هوية أم سعد بنت سعد بن الربيع، فقد قال بعضهم أنه يُحتمل أن تكون أم خارجة بن زيد بن

(١) أسد الغابة ٥ / ٥٥٦.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي.

(٣) أنساب الأشراف ١ / ٩٨.

حارثة، وربما زوجه أو هي لا هذه ولا تلك^(١) أكثر من هذا، ذلك أن موسى بن شيبه الذي يروي عنه الواقدي قال عنه عبد الله بن أحمد (أحاديثه مناكير)^(٢) وعلق الذهبي على حديث نفيسة بقوله (وهو حديث منكر)^(٣) أما رواية ابن سعد (٢ - ب) فهي بالإضافة إلى عدم تطابقها مع الروايات الأخرى، فإن مصدرها عبد الله بن عقيل بن أبي طالب، وهذا الرجل توفي سنة ١٤٠ للهجرة وقد ضعفه الرجاليون، كما أن هناك شبه إ اتفاق على أن حفظه سيئ وعدم الاحتجاج به^(٤).

وقد روى قصة خروجه ﷺ إلى الشام تاجراً القاضي عبد الله بن الحسين بن إسماعيل بن محمد الضبي المتوفي سنة ٣٣٠ للهجرة، عن عبد الله بن شبيب، وهو واه، كما جاء في سيرة الذهبي^(٥) وفي سننه الربيع بن بدر المتوفي سنة ١٧٨ للهجرة^(٦) وقال: هذا حديث صحيح الأسناد - وهذا الرجل قال فيه ابن معين (ليس بشيء)، وقال مرة ضعيف، وقال البخاري: ضعفه ابن قتيبة، وقال أبو داود: ضعيف... وهكذا عن العديد من الرجاليين^(٧).

-
- (١) تهذيب التهذيب ١٢ / ٤٧٠، أسد الغابة ٥ / ٥٨٦، الإصابة ٨ / ٢٣٨، طبقات ابن سعد ٥ / ٢٦٢ - ٢٦٣.
(٢) التهذيب ١٠ / ٣٤٩.
(٣) سيرة الذهبي ص ٦٤.
(٤) تهذيب التهذيب ٦ / ١٣ - ١٥.
(٥) المصدر ص ٦٤.
(٦) الحاكم ٣ / ١٨٢١.
(٧) تهذيب التهذيب ٣ / ٢٣٩.

تحدث المصادر الشيعية عن سفرة النبي الثانية إلى الشام بإسهاب، وحيث تصادفنا عملية نمو الحدث من خلال الإضافات المتوالية لخوارق الطبيعة والقانون، ممّا يجعلنا نجيل النظر في هذا التباري بين الرواة في تصعيد وتوتير الوجد الذهني والروحي من خلال دمج الرسول بعالم الغيب واللامنظور على نحو يعدم فرصة الأرض وحق التاريخ من الحركة، كما أنّها تضمّنت ما يصطدم بالروايات السابقة بشكل فاضح.

نقلًا عن الخرائج برواية عن جابر يذكر أنّ أبا طالب التمس محمّداً أن يتاجر في أموال خديجة رغبة في تحصيل المال بغية التزوّج منها! وهو عنصر جديد لم نلحظه في روايات ابن سعد أو رواية ابن إسحق أو أي نص تاريخي أو روائي آخر، وفي الرواية يتضح دور ميسرة (فلما رجع ميسرة حدّث أنّه مرّ بشجرة ولا يدري إلّا وقالت السلام عليك يا رسول الله)^(١) ويغيب هنا نسطور كي يحلّ محلّه الراهب بحيرا^(٢) الذي سبق وأن مات في رواية أو في إحدى روايات ابن سعد عن طريق خالد بن خدّاش، وذلك في ظرف السفرة الأولى^(٣) وتستعيد الغمامة دورها إذ تظلّل رأس النبي الكريم وهو على راحلته في لحظة استقباله خديجة عائداً من السفرة الميمونة، ورأت الملكين يحميان رسول الله^(٤) وبهذا

(١) نقلًا عن البحار ٣/١٦.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ١٢٠.

(٤) البحار ١٦ / ٣.

يكون ميسرة قد تخلّى عن إحدى كراماته لخديجة. ونقرأ في رواية المناقب لابن شهر آشوب وغيره تراكم الغرائب والمعجزات في هذه السفرة الغامضة.

* يهودي يخبر خديجة وغيرها بنبي سوف يبعث! فيقع في قلب خديجة هوى به!

* الراهب نسطور يقبل يدي ورجلي رسول الله.

* كان ميسرة يأكل مع رسول الله فيشبع ويبقى الطعام على حاله.

* السحابة كانت تمشي مع رسول الله.

لم يجد الباحث في هذه الرواية أي فراغ للطبيعة^(١).

وأخيراً وليس آخراً (.. عن أبي شهاب الزهري.. أن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاً آخر من قريش إلى سوق حباشة بتهامة..)^(٢).

وإذا كانت السفرة إلى الشام الأولى أو الثانية تحتوي على سيل من الحوادث والمعالم والمشاهد فإنّ هذه السفرة المزعومة جرداء من كل معلم أو إشارة أو شاخص، رواية يتيمة بالحدث، خاوية البنية، فضلاً عن كونها رواية متضادة مع سابقاتها، ولا ندري ما هو مصدر الزهري أو حالته.

(١) البحار ١٦ / ٤ ، ٥.

(٢) الطبري ٢ / ٣٦٨.

الفصل الثامن

زواج الرسول من خديجة

مصنوفة روايات

(١) رواية ابن إسحق

١ : (١ - أ) يستعرض بن هشام في البداية سفرة الرسول الكريم الثانية إلى الشام التي سبق وأن تحدّثنا عنها ، ويروي أنّ ميسرة المزعوم قد حدّث سيده خديجة عن المعاجز التي حصلت للرسول الكريم وقد شهدها بأمّ عينه ، فوقع في نفسها الطيبة رغبة الزواج منه ﷺ ، وهنا تقول الرواية [. . . بعثت إلى الرسول فقالت له فيما يزعمون : يا ابن عمّ إنني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثمّ عرضت عليه نفسها . . . فلمّا قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمّه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله تعالى حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها . . . وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة . . . قال ابن إسحق : وكانت خديجة بن خويلد ذكرت ذلك لورقة

بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وكان ابن عمّها ، وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من الناس ما ذكر غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظّلانه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إنّ محمّداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنّه كائن لهذه الأمة نبيّ منتظر هذا زمانه . . .]^(١) .

النقاط الرئيسيّة المكوّنة لهذه الرواية هي : -

- ١ : إنّ خديجة هي التي بعثت إلى رسول الله وخطبته بعد أن شهد لها ميسرة بتلك المعجزات التي صحبته .
- ٢ : إنّ الرسول الكريم أخبر أعمامه برغبة خديجة هذه فخطبها عمّه حمزة بن عبد المطلب .
- ٣ : كان صداق الخطبة عشرين بكرة .
- ٤ : وبرواية ابن إسحق أنّ خديجة حدّثت ورقة بن نوفل بنيتها الزواج من النبي فإشار إليها مشجّعاً وفق معطيات وأخبار ميسرة ، حيث قال لها بأنّه سيكون نبيّ هذه الامة .

(٢) رواية ابن سعد

٢ : (٢١ - أ) . . . أخبرنا محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي ، أخبرنا موسى بن شيبة ، عن عميرة بنت عبيد بن كعب بن مالك ، عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، عن نفيسة بن منية قالت . . . أرسلتني دسيساً إلى محمّد بعد أن رجع في غيرها من الشام ، فقلتُ : يا محمّد ما يمنعك من أن تتزوّج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به ، قلتُ : فإن كُفيت

(١) سيرة ابن هشام / ١ - ٢٠٠ - ٢٠٣ .

ذلك ودُعيت إلى الجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال : فمن هي؟ قلتُ : خديجة، قال : وكيف ذلك؟ قالت : قلتُ : عليّ، قال : فأنا أفعل، فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن أت الساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته فزوّجه أحدهم، فقال عمرو بن سعد : هذا البُضع لا يقرع أنفه، وتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة... [١].

تحليل سريع لعناصر الرواية المؤسّسة نفهم أو نستشف ما يلي : -

١ : إنّ خديجة خطبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة، وهذه الوساطة هي نفيسة بنت أميّة، ويبدو من لحن الرواية أن خديجة هي التي كلّفت نفيسة بذلك.

٢ : إنّ خديجة ربّت موعد اللقاء لغرض الخطبة والزواج، وكان عمّها عمرو بن أسد بمثابة الولي، وثمّ كان الزواج بحضور أعمام النبي - لم تذكر الرواية الأسماء -.

٣ : كان عمر الرسول الكريم خمس وعشرين سنة وخديجة أربعين سنة.

٣ : (٢ - ب) [... عن عائشة، وعن ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قالوا : إنّ عمّها عمرو بن أسد زوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ أباهما مات قبل الفجّار] (٢).

(١) الطبقات ١ / ١٣١.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٢.

٤ : (٢ - ج) [قال أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال : أخبرنا أبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال : زوج عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصي خديجة بنت خويلد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد صلبه يومئذ غيره، ولم يلد عمرو بن أسد شيئاً]^(١).

تتفق الروايتان معاً على أنّ الذي زوج خديجة من رسول صلى الله عليه وسلم إنّما هو عمّها عمرو بن أسد.

٥ : (٢ - د) [قال : أخبرنا خالد بن خدّاش بن عجلان، أخبرنا معتمر بن سليمان، قال : سمعت أبي يذكر أنّ أبا مجلز حدّث أنّ خديجة قالت لأختها : إنطلقني إلى محمد فاذكريني له، أو كما قالت، وأن اختها جاءت فأجابها بما شاء الله، وأنهم تواطؤوا على أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أبا خديجة سقى الخمر حتى أخذت فيه، ثم دعا محمّداً فزوجه، قال : وسنت على الشيخ حلّه، فلمّا صحا قال : ما هذه الحلّة؟ قالوا : كساها ختنك محمّداً، فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا : ما كانت لنا فيكم رغبة، ثم أنّهم أسطلحوا بعد ذلك]^(٢).

ومن تحليل الرواية نفهم : -

١ : إنّ خديجة خطبت رسول الله بواسطة أختها.

٢ : لقد تمّ الزواج بمؤامرة حبكتها خديجة وأختها، وربّما يلوح

(١) نفس المصدر ص ١٣٢.

(٢) الطبقات ١ / ١٣٢.

من الرواية أنّ رسول الله كان عنصراً في المؤامرة.

٣: أحتيل على والد خديجة بإسكاره وعندما صحا رفض الزواج.

٤: إنّ زواج الرسول من خديجة كاد يؤدي إلى معركة بين قومها وقوم النبي الكريم.

٦: (٢ - هـ) [قال: أخبرنا محمد بن عمر بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباهما الخمر حتى ثمل ونحرت بقرة، وخلقتة بخلوق، والبسته حلّة صبرة، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قالت: زوّجني محمّداً، قال: ما فعلت!! أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل]^(١).

إن أهم عنصر في هذه الرواية أن خديجة هي التي سقت أباهما خمرا...

(٣) رواية البلاذري

٧: (٣ - أ) [وقال الكعبي: بعثت خديجة رحمها الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن أخطبني إلى عمي عمرو بن إسحاق بن عبد العزى بن قصي، وكان شيخاً كبيراً، فامرت بشاة فدُبِحت وأُتخذت طعاماً، ودعت عمّها عمراً، وبعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى ومعه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب، فأكلوا وسقت عمراً، ثمّ قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أثنى عشر أوقية...]^(٢).

(١) الطبقات ١ / ١٣٢.

(٢) أنساب الاشراف ١ / ٩٧.

ونستفيد من هذا النص : -

١ : إنّ خديجة خطبت الرسول الكريم بدون واسطة، ولكن طلبت إليه أن يتوجّه إلى عمها في تدبير أمر الزواج هذا.

٢ : إنّ عملية التزويج تمّت بالاحتيال على العم وذلك بإسكاره، وخديجة هي التي سقت هذا العم الخمر من أجل إيهامه وتغييب إرادته.

٣ : كان رسول الله حاضراً مراسيم الزواج، وكما يبدو كان على علم بعملية الإحتيال التي دبرتها خديجة.

٤ : لقد حضر مراسيم الزواج الخادع هذا عمّا الرسول العظيم حمزة وأبو طالب، والأخير هو الذي طلب إلى خديجة لمحمّد من عمّها السكران.

٨ : (٣ - ب) [وقال الواقدي في إسناده : كانت خديجة بنت خويلد إمراة موسرة تاجرة ذات مال، فكلمها أبو طالب في رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجهته إلى الشام، ومعه ميسرة غلامها، فعرفت خديجة البركة والنماء في مالها علي يده، وأخبرها ميسرة بما كان يُقال فيه . . . فدسّت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض عليه أن يتزوجها، فرغب في ذلك، فبعثت عليه أن أتت في وقت كذا، وأرسلت إلى عمرو بن أسد عمّها، فحضر وحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حمزة وأبو طالب وغيرهما من عمومته، فزوّجها أياه عمرو، ومات عمرو بعد تزويجها بقليل، وقال الواقدي : كانت سفرت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين خديجة نفيسة بنت منية . . .] (١).

(١) ص ٩٨.

(٤) رواية البيهقي

٩ : (٤ - أ) [... حَدَّثَنِي عمر بن أبي بكر الموصلي قال : حَدَّثَنِي عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ، عن أبيه ، عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل حَدَّثَهُ : إن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة وما يكثرون فيه يقول : أنا أعلم الناس بتزويجه إياها ، أني كنت له تربا ، وكنت له إلفا وخذنا ، وإني خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة ، وهي جالسة على آدم تبيعها ، فنادتني ، فانصرفت إليها ، ووقف لي الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت : أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة ؟ قال عمار : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : بلى لعمرى ، فذكرت لها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم ، قال : فوجدناهم قد ذبحوا بقرة ، وألبسوا أبا خديجة حلّة ، وضمّرت لحيته ، وكلمت أخاها ، فكلم أباها وقد سُقي خمرا ، فذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه وسأله أن يزوجه ، فزوجه خديجة ، وصنعوا من البقرة طعاماً ، فأكلنا منه ، ونام أبوها ثم استيقظ صاحبها ، فقال : ما هذه الحلّة وهذه النقيعة وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته : هذه حلّة كساها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك ، فذبحناها حين زوّجته خديجة ، فانكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الجمر ، وخرجت بنو هاشم برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءوه وكلموه ، فقال : أين صاحبكم الذي تزعمون أن زوّجته ؟

فبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر إليه قال : إن كنتُ
زَوْجته فسبيل ذاك، وإن كنتُ لم أكن فعلت فقد زوّجته، قال
الموصللي : والمُجمع أن عمّها عمرو بن أسد الذي زوّجها. قال : فيما
أخبرنا به أبو عبد الله الحافظ رحمته، أن النبي صلى الله عليه وسلم زوّج
بها وهو ابن خمس وعشرين سنة^(١).

نستفيد من هذه الرواية مايلي : -

١ : إنّ عمّار بن ياسر كان صديقاً لرسول الله قبل نبوته بل وقبل
زواجه.

٢ : يفيد لحن الرواية أن خديجة دسّت أختها في عملية التزويج
هذه، أو أنّ الأخت المذكورة هي التي سعت في الزواج أصلاً.

٣ : إنّ عملية التزويج تمت عبر مؤامرة إسكار أبي خديجة، وأن
الرسول كان حاضراً العملية كلها.

٤ : إنّ أبا خديجة رفض الزواج بعد أن صحا، ولكّته إضطر
لأمضائه إعجاباً أو لسبب آخر لم تبينه الرواية.

١٠ : (٤ - ب) [... قال : حدّثني المؤمّلي عمر بن أبي بكر
قال : حدّثني غير واحد : إنّ عمرو بن أسد زوّج خديجة رسول الله
صلى الله عليه وسلم، تزوّجها وهو ابن خمس وعشرين سنة^(٢).

١١ : (٤ - ج) [... قال : حدّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن
زيد، عن عمّار بن أبي عمار، عن ابن عباس : إنّ أبا خديجة زوّج

(١) دلائل النبوة ٢ / ٧١.

(٢) نفس المصدر ٢ / ٧٢.

النبي صلى الله عليه وسلم وهو أظنه قال : سكران^(١) .

قصة للسمر

هذه هي أهم الروايات التي تتطرق لزواج رسول الله من خديجة، وهي كما نرى خليطاً مشوشاً من الأحداث والوقائع والتواريخ والاسماء والحالات، يغلب على بعضها فن القصة المنسوجة لغاية السمر وقتل الوقت الزائد، ويبدو لي أنها كانت مادة حديث يتداوله السُّمار والقصاص وأهل الأخبار السارية، ولذا جاءت القصة بهذه السياقات الغربية والصيغ المدهشة في تغيراتها وتقلباتها التي يصعب معها تأسيس أو إكتشاف صورة واضحة عن هذا الحدث، خاصة أن خديجة هي أول من تزوج رسول الله ﷺ، وبقيت وفيّة له حتى أتاها أجلها المحتوم، ولم يفكر يوماً في الزواج من غيرها طيلة حياتهما الزوجية، وقد كانت له نعم العون والمعين والمُشجّع والمعاضد في محنه الكبيرة وهو يؤدي دور النبوة الشاق.

الآن نحاول أن نقوم بجولة سريعة حول مسانيد الروايات رغم إيماني بأنّ النقد الداخلي أهم وأخطر على صعيد التعامل مع الروايات التاريخية، فإن السند الصحيح يمكن أختلافه ودسه على الرواة الثقة. جاءت رواية ابن إسحق بلا سند منه، وقد إقتفى أثره الطبري^(٢) والكامل^(٣) والبداية والنهاية^(٤) وفي سيرته^(٥) وغيرهم من المؤرخين

(١) نفس المصدر ٧٣.

(٢) الطبري ٣٦٧/٢.

(٣) الكامل ٣٩/٢.

(٤) البداية والنهاية ٢٧٢/٢.

(٥) سيرة الطبري ٢٦٢/١.

وأصحاب السير إلا أنها بلا سند، ومع رواية ابن سعد (٢) نلتقي بهذا الغموض الذي سبق وأن أشرنا إليه بخصوص (أم سعد بنت سعد بن الربيع) المرددة بين ثلاث حالات لا تتطابق في شيء، فهي إما أم خارجة بنت زيد وإما زوجة وإما لا هذه ولا تلك^(١) مع غياب ترجمة عميرة بنت عبيد الله، وملتقي أيضاً بتقييم موسى بن شيبة على لسان عبد الله بن أحمد حيث يقول (أحاديثه مناكير)^(٢). ورواية ابن سعد تارة تكون قطعة من رواية طويلة كما في المنتظم لأبن الجوزي^(٣) وتارة قائمة براسها وكأنه رواية منفصلة... ومهما يكن من أمر فإن غموض السند يولّد درجة غير عادية من القلق النفسي والتردد العلمي في التعامل مع الرواية المذكورة. ورواية ابن سعد المرقمة (٣) نلتقي بداود بن حصين الضعيف كما مرّ بيانه مفصلاً، وفي رواية ابن سعد المرقمة (٤) نجد في السند (محمّد بن السائب الكلبي) وقد جاء في الذهبي (تركوه، كذّبه سليمان التيمي وزائدة وابن معين وتركه القطان وعبد الرحمن)^(٤). وفي الرواية رقم (٥) نلتقي بالراوي خالد بن خدّاش المرفوض من الرجاليين، وهي مرسلّة لأنها تقف عند أبي مجلز الذي لم تكن له صحبة. وفي رواية ابن سعد رقم (٦) نصادف ثغرة سنديّة (...). وغير هذا الإسناد... فنحن بين إسناد مجهول في بعض مراحلها، ويعلّق الواقدي على رواية ابن سعد الرابعة والخامسة حسب الترقيم السابق بقوله (...). فهذا كله عندنا غلط... والثبت المحفوظ عندنا عن أهل

(١) تهذيب التهذيب ١٢ / ٤٧٠ وأسد الغابة ٥ / ٦٨٥ - والاصابة ٨ / ٢٣٨.

(٢) مغني الذهبى ٢ / ٦٨٤ تهذيب التهذيب ١٠ / ٣٤٩.

(٣) المنتظم لابن الجوزي ٢ / ٣١٣.

(٤) المغني في الضعفاء ٢ / ٥٨٤.

العلم أن أباه خويلد بن أسد مات قبل الفجار وأن عمّها عمرو بن سعد
زوَّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

البلاذري في روايته رقم (٧) ينقل عن الكلبي بقوله (قال
الكلبي... .) ثمَّ يورد القصّة، وفي نصّه رقم (٨) يقول (وقال الواقدي
في إسناده... .) ويروي الحدث، وهما صيغتان ناقصتان، ورواية
البيهقي (٩) التي نجدها في مجمع الزوائد (٩ / ٢٢٠) في سندها (عمر
بن أبي بكر الموصلي) وهو متروك^(٢). وجاء في لسان الميزان (عمر بن
أبي بكر الموصلي... .) ضعفه أبو زرعة وقال أبو حاتم : متروك
الحديث... .^(٣) وفي السند (أبو عبيدة بن محمّد بن عمّار بن ياسر)
وقد قال عنه أبو حاتم (مُنكر الحديث)^(٤) وهذا مقسم الوارد في السند
أيضاً، وإنّ قوّاه جماعة ولكن البخاري ذكره في كتاب الضعفاء وكذا
ضعفه ابن حزم^(٥) وجاء في تهذيب التهذيب (وقال ابن سعد أجمعوا
على أنّه توفي سنة ١٠١ وذكره في موضع آخر... . فقال : كان كثير
الحديث ضعيفاً، وقال الساجي : تكلم الناس في بعض رواياته)^(٦)
وعبد الله بن الحارث الذي ينتهي إليه الخبر وُلِد في زمن النبي إلاّ أنّه
لم يسمع منه فيروي عن النبي مرسلًا^(٧).

السؤال بعد هذا... .

(١) طبقات بن سعد ١ / ١٣٣.

(٢) مجمع الزوائد ٩ / ٢٢٠ وكذلك هامش دلائل البيهقي ٢ / ٧٢.

(٣) لسان الميزان ٤ / ٢٨٧.

(٤) مغني الذهبى ٢ / ٧٩٧.

(٥) نفس المصدر ٢ / ٦٧٥.

(٦) تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٨٨.

(٧) تهذيب ٥ / ١٨٠.

هل يمكن الركون إلى هذه الرواية؟ إنَّ علامة الاستفهام تلاحقها بدءاً من عمر بن أبي بكر الموصلي المتروك مروراً بأبي عبيدة الذي قيل فيه شيء ثم مقسم المختلف في توثيقه وعدالته، وأخيراً الأرسال والوقف. فمثل هذه الرواية ينتابها الضعف بطريقة وأخرى، إنَّها أشبه بالرجل العليل، وقبولها لا بد أن يكون على مضض، وفي رواية البيهقي المرقمة (١٠) نتواجه مع ثغرة (حدَّثني أكثر من واحد)، فضلاً عن ضعف المؤملي الذي هو الموصلي السابق^(١). أمَّا روايته رقم (١١) فقد أخرجها أحمد مطوّلاً باسناد ضعيف^(٢). وكذلك الهيثمي في مجمع الزوائد عن أحمد الطبراني وساقها اليعقوبي في تاريخه^(٣) ولكن في السند (زيد بن علي... بن جدعان) ضعفه ابن سعد ومعاوية بن صالح بن يحيى والجوزاني والنسائي والحاكم^(٤)، وهناك في السند أيضاً عمار بن أبي عمّار وثقه بعضهم ولكن قالوا فيه (يُخطئ)^(٥).

وكان (شعبة يتكلّم فيه)^(٦). وفي السند حماد بن سلمة، وثقه كثير من علماء الرجال ولكن قال بعضهم (إنّه لا يحفظ)^(٧). وإنّه (لَمَّا كبر ساء حفظه فلذا تركه البخاري)^(٨) وهناك كلام أنّه دُسّ في كتبه وحديثه^(٩)

(١) لسان الميزان ٣ / ١٨٤ وحاشية الدلائل ٢ / ٧٢.

(٢) هامش الدلائل ٢ / ٧٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠.

(٤) تهذيب التهذيب ٨ / ٣٢٢.

(٥) تهذيب التهذيب ٨ / ٤٠٤.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

(٧) نفس المصدر ٣ / ١١ إلى ١٦.

(٨) المصدر السابق.

(٩) نفس المصدر.

وقال ابن سعد (. . . رُبّما حدّث بالحديث المنكر)^(١) .

نظرة في المضامين

إنّ الإطمئنان إلى هذه المرويات في سياقاتها السندية التي شاهدناها مسألة عسيرة، ولكن هناك أمر آخر، ذلك الخلط والخط في المضمون، أقصد الأضطراب الشديد في المعلومات التي تنقلها لنا هذه المرويات، فهي قطع من التناقضات والمفارقات التي حقاً تستدعي النظر، ونضرب هنا بعض الامثلة.

فعلى صعيد الخطبة نقرأ تارة أن خديجة هي التي عرضت نفسها مباشرة على النبي، فيما نقرأ مرّة أخرى أن العَرَض كان بواسطة نفيسة أو غيرها، وعلى صعيد الذي تولّى عمليّة التزويج، فهو في رواية أبوها المدعو خويلد، حيث تشير بعض الروايات أنّ أباه مات في حرب الفجّار، وفي رواية ثانية إنّ الذي تولّى الأمر هو أخوها عمرو بن خويلد، وعلى صعيد دور أعمام النبي في التزويج، يتردّد الحث والطلب وحضور حفل أو مراسم الزواج بين أبي طالب وحمزة، وفي رواية انهما حضرا معاً وفي غيرها أنهم حضروا جميعاً، وفيما يخص مؤامرة الإسكار، فالذي أسكر مرّة هو عم خديجة وأخرى هو أبوها، هذا فضلاً عن تلكم التناقضات في سن خديجة عندما تزوّجت الرسول، ومجريات الزواج وقيمة الصداق وغيرها من عناصر أخرى قد تدخل في جوهر الحدث ومجرياته.

يبدو أنّ هذا الخلط والخلط كانا من أسباب إرتباك الكثير من

(١) نفس المصدر والصفحات.

مؤرخي السيرة، ولأن ذلك يتصل بالنبى الكريم وهو الذى يتلقى الوحي صادقاً كاملاً حزّ في نفوس بعض هؤلاء المؤرخين ذلك، فعملوا على تدليلها، وقد توسّل بعضهم بطريقة الجمع، فكأنما هناك حرص على خزن كل هذه الأخبار بالذاكرة المسلمة، هناك خوف من ضياع أي خبر في هذا المجال، وإلا هل هناك صعوبة لبيان ضعف بعضها مثلاً؟

هل يعود ذلك لأن القائمين على المهمة ينتمون إلى فئة الأخباريين؟ أم أن هناك حرصاً لا شعورياً على تفصيل حياة النبى الكريم إنطلاقاً من كون نبوّته الشريفه هي النبؤة الخاتمة؟ أم هي الرغبة في معالجة الغريب؟ مهما يكن من أمر لم نلتق بمحاولة ناجحة على هذا الصعيد.

لقد إحتمل صاحب نور الابصار أن الذى تولى عملية التوزيع أباهاً وأخاهاً وعمّها، وذلك كل على حدة^(١)، وفضلاً عن كون هذا الجمع بعيد، فينبغي أن ننّبّه بأنه يتعارض مع القول بأنّ خويلد مات في حرب الفجار، وحول السفير بين خديجة والرسول تردّد الخبر بين نفيسة والغلام، وفي رواية أخرى مولاه مولدة^(٢). ويقول صاحب السيرة الحلبية (لا منافاة لجواز أن يكون كل ممّن ذكر كان سفيراً)^(٣) وهو مجرد رأي ولا قرينة عليه ولا دليل، خاصّة هناك رواية تفيد صراحة أنّ خديجة عرضت نفسها على النبى مباشرة، وفي الواقع إنّ عملية الجمع هذه خطأ من أساسها، وذلك للتضعيف الوارد في السند، فإنّ الجمع يكون معقولاً

(١) السيرة الحلبية ١ / ١٣٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

إذا كانت المسانيد صحيحة، إذ لا جمع بين متون مشكوك في مسانيدها، ولا بد من القرائن والشواهد التي تساعد على الجمع.

إنّ التنافي بين المتون السابقة يتسم بالصبغة المرقومة والمسماة، وهي لم تكن بين حالات يمكن أن يستوعب بعضها بعضاً، بل في الأشخاص والسنين والوقائع والامكنة والازمنة، ولم تكن أبداً بين حالات تدخل في ملابسات لغوية أو ذات منحى سلوكي يمكن تكييف عناصره المختلفة في إطار معقول، ولذا، فإنّ التنافي الذي نحن بصدده من الصعب علاجه.

ارتباك الينايع!

تنتهي بعض الروايات إلى : -

١ : عمار بن ياسر صاحب رسول الله ولصيقه لمدة ثلاث وعشرين عاماً.

٢ : ابن عباس العارف بحياة النبي الكريم عن قرب أرومة وقرب إيمان.

٣ : عبد الله بن الحارث الكندي الذي ولد في زمن الرسول الكريم.

٤ : نفيسة بنت منية السفير بين خديجة والرسول^(١) ويقال إنّها أسلمت يوم الفتح.

من المستبعد جداً أن لا يعرف هؤلاء كيف تزوّج رسول الله، ومن هو الساعي، ومن هو الواسطة، ومن هو الذي حضر، ومن هو المتولي، وكم هو الصداق، لأنّ هؤلاء كانوا على تماس من الرسول

(١) طبقاً لبعض الروايات.

الكريم، زمناً وإيماناً وحياة وصدقا. فمن أين جاء هذا التنافي الغريب،
بل المتنافيات العجيبة؟

يبدو لي أن الحديث عن الزواج كان مادة سمر وسهر، وإنّ هذه
المتنافيات هي من خلق الرواة، أي مثل زيد بن علي بن جدعان، ولم
لا؟ وقد صدرت فيه جملة تضعيفات، ومثل داود بن الحصين، ولم
لا؟ وهو الآخر مرفوض في ميزان النقد الرجالي على نطاق واسع،
ومثل محمّد بن السائب الكلبي، فهذا الرجل ينحو المنحى القصصي
السردي، ومن مثل موسى بن شيبه صاحب الأحاديث المناكير، ومن
مثل عمر بن بكر الموصلي / المؤملي المضعّف لدى خيرة النقاد في
علم الدراية والرجال، كذلك مُقسم المختلف في توثيقه...

إنّ نظرة على المصادر الأولى للروايات كعمار بن ياسر وعبد الله
بن عباس وغيرهما، ومراجعة تضاعيف المتون يرجّحان الميل إلى أنّ
الناقلين كانوا غير محل إطمئنان، لأنّ سعة المفارقات والمتنافيات لا
تساعد أبدا على الإطمئنان بأن هذه الروايات جاءت من هذه المصادر
القريبة من مصدر القضية برمتها، أي النبي الكريم ﷺ، أو أن هذه
المصادر قالت شيئا والرواة الناقلين زادوا وأنقصوا كما يريدون لغرض
من الأغراض، وهو محتمل جداً، لأن التاريخ صار فيما بعد وفاة
الرسول نهبا للصراع القبلي والأسرى.

حول خديجة رضي الله عنها

تنصّ بعض الروايات السابقة على شرف خديجة العالي ومكانتها
المرموقة في المجتمع الجاهلي بشكل عام والمجتمع القرشي بشكل

خاص، فعن الواقدي في سياق حديثه عن زواج النبي يقول (كان خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال ولمّا تأيّمَت كان كل شريف من قريش يتمنى أن يتزوَّجها . . .)^(١) وقد مرّت بنا ملابسات هذا السند في أم سعد بنت سعد بن الربيع، وفي الموفقيات يقول الزهير بن بكار بأنها كانت (تدعى قبل البعثة بالطاهرة)^(٢) وهو مجرد خبر عار من السند، ونقرأ في السيرة الهشامية (. . .) وكانت خديجة بنت خويلد يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه)^(٣) وقد ساق كلامه بغير إسناد، ويقال إن ممّن أقدم على الزواج منها عقبه بن أبي معيط والصلت بن أبي إيهاب وأبو جهل وأبو سفيان وقد رفضتهم^(٤) وهذا الخبر لم يرد في مصدر حديثي أو تأريخي معتبر ونقله البحار عن كتاب (الأنوار) لأبي الحسن البكري دون إسناد، وفي الواقع من الصعوبة العثور على أخبار يمكن الأطمئنان إليها بخصوص خديجة قبل الزواج من الرسول الكريم، وتذكر المصادر أنّها تزوّجت قبل رسول الله باثنين، وهما أبو هالة هند بن التّباش بن زرارة وولدت له هالة ثم خلف عليها عتيق بن عائذ فولدت له جارية يُقال لها هند^(٥) وقيل الترتيب بالعكس، وأن المولودين من أبي هالة، ويبدو أن زواجها من إثنين قبل الرسول من

(١) الاصابة ٨ / ٦٠ رقم ٣٣٣.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) المصدر ١ / ٢٠١.

(٤) بحار الأنوار ١٦ / ١٩.

(٥) المحرّر ص ٧٨ و ٧٩، ٤٥٢.

الأخبار الموثوقة في المصادر، فهي في المحبّر لأبن حبيب وأسد الغابة^(١) والاصابة والحلبي في سيرته، ومن الجدير بالذكر أن أبا هالة (كان من الصحابة الذين شهدوا بدرًا أو أحدًا، وهو صاحب خبر صفة رسول الله، وقد قُتل مع علي يوم الجمل، وقيل مات في الطاعون بالبصرة)^(٢) وإن هالة بن أبي هالة كانت له صحبة أيضاً، وإن هند بنت عتيق أسلمت وصحبت - ومهما كان فإن زواج خديجة من إثنين قبل الرسول واردة في المصادر، ويشعر بعضهم بأن ذلك قد يقلل من قيمة النبي! وهي نظرة استعلائية لا مبرّر لها، وفي الحقيقة من الصعب أن نتصور أن خديجة تبقى عزباء إلى سنّ الأربعين.

هناك رواية تحاول الربط بين محمّد وخديجة بخيط ميتافيزي غيبي قبل الزواج، ففي السيرة الحلبية (. . . أيضاً مع ما أراد الله تعالى بها من الخير ما ذكره ابن إسحق قال كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد فاجتمعن يوماً فيه فجاءهن يهودي وقال : يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي قُرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبته النساء، أي رمينه بالحصباء، وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله، ووقع في نفسها، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات . . . قالت : إن كان ما قاله اليهودي حقاً، ماذا إلاّ هو . . .)^(٣) وهي رواية عارية من السند، ومن الواضع الغرض من ورائها.

(١) أسد الغابة ٥ / ٤٣٤ ومصادر أخرى .

(٢) تاريخ العرب في الإسلام ١٤٣ .

(٣) السيرة الحلبية ١ / ١٤١ .

المصادر الشيعة أعطت إهتماماً بالغاً لخديجة، وليس ذلك بعيداً عن حلبة الصراع السياسي والمذهبي، وقد خصص صاحب البحار روايات مفصلة عن ذلك، ولكن الشيخ آصف محسنى في كتابه مشرعة البحار يقول (وقد أورد - أي المجلسي - في الباب قصصاً تاريخية حماسية حول تزوجه بها وقد أورد في أول الباب روايات ثلاثة في فضل خديجة ومريم بنت عمران وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية بن مزاحم زوجة فرعون... وعلى كل لا شك في فضل خديجة وكونها أول مسلمة آمنت بالنبي ﷺ حتى قبل أن أظهر علي أيمانه، كما هو ظاهر الحال، كما لا شك في فضل بنتها الصديقة الطاهرة... وأما أن أموالها نفعت الإسلام أو المسلمين فهذا مما لم أجد عليه دليلاً عاجلاً، والعمدة في نشر الإسلام القرآن الكريم وأخلاق النبي...^(١)).

مؤامرة الإسكار

تشكل مؤامرة الإسكار نقطة شوهاء في تاريخ الزواج الكريم، لذا نرفضها من أساسها، فإن زواج محمد لا يمكن أن يمر عبر مؤامرة بهذا المستوى السيئ، والغريب أن الرواة لا يراجعون أنفسهم وهم يروون هذه المؤامرة القبيحة، فكأنهم نسوا ما نعتوا به خديجة من شرف وعفة وقوة شخصية ودمائة خلق! وقد مضى بنا أن المغدور بالإسكار هذا تارة هو الأب وأخرى هو العم، ولكن هناك رواية تقول بأن الولي الذي تولى عملية التزويج أدى دوره بوعي وأناة وحكمة (أن هذا الفحل

(١) مشرعة البحار ١ / ص ٣٠٧.

لا يجدها أنفه)، وقد غابت في بعض الروايات وهي إشارة مهمة، لأن الأخباريين كانوا مولعين بالغريب.

الرواية رقم (٩) نقرأ فيها أن أبا خديجة بعد أن صحا من سكرته اعترض على الزواج، ولكن بعد حوار وجلبة قال (. . . أين صاحبكم الذي تزعمون أنني زوجته؟ فبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر إليه قال: إن كنت زوجته فسييل ذاك، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته)، فمن الواضح من الرواية الطابع الحكائياتي على هذه اللاحقة، حديث سمر وسهر وغرائب وأعاجيب، تلك العناصر التي طالما طبعت أحاديث وروايات وقصص العرب.

الرواية المرقمة (٥) تذكر أن أبا خديجة عندما صحا من سكره تسائل عن الحلة والعقير والبعير فقبل له أنها من زوج ابنته محمد (فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح، وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة، ثم أنهم إصطلحوا بعد ذلك). وفضلا عن تناقض هذه اللاحقة مع العديد من عناصر الروايات الأخرى فإن طابع الحكاية واضح فيها، خاصة هذه الإصطلاح السريع بعد حمل السلاح. إن روايات أو بالأحرى قصة الإسكار موضوعة، وإنها سيقت للإساءة إلى خديجة لأغراض سياسية وشخصية ومذهبية بعيدة المدى.

خطبة أبي طالب

نطالع في بعض الروايات أن أبا طالب ألقى خطبة خاصة في حفل تزويج الرسول الكريم في بيت خديجة، وتولي المصادر الشيعية إهتماماً واضحاً بهذه الخطبة المزعومة فيما لم نجد لها أثراً في المصادر

التاريخية والمصادر الحديثية السنية، بل لم نجد لها أثراً في كتب السيرة والتراجم ذات الشهرة والاختصاص، وذلك مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وأنساب البلاذري، نعم نجد هذه الخطبة في تاريخ يعقوبي والمنتظم لابن الجوزي، وسيأتي الحديث عنهما.

قال الطهطاوي والزيني وحلان والحلي والعبارة للأخير (وذكر أبو الحسين بن فارس وغيره أنّ أبا طالب خطب يومئذ فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل . . . إنّ إني هذا محمّد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلّا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإنّ كان في المال قلّ فإنّ المال ظلّ زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله أثني عشر أوقية ونشاً)^(١) وقال النسوي (أنكحه إيّاها أبوها خويلد بن أسد فخطب أبو طالب بما رواه الخركوشي في شرف المصطفى والزمخشري في ربيع الأبرار وفي تفسيره الكشاف وابن بطة في الأبانة والجويني في السير عن الحسن والواقدي والعتبي فقال . . .)^(٢) وساق الخطبة المذكورة مع إختلاف هنا وهناك، وفي الخطبة إشارة إلى رغبة خديجة به وهو الأمر الذي لم يُذكر في الخطبة السابقة. وفي البحار نقلاً عن الكافي (بعض أصحابنا، عن علي بن الحسين، عن علي بن حسن، عن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتزوَّج خديجة بنت خويلد، أقبل أبو طالب في أهل بيته

(١) السيرة الحلبية ١ / ١٣٠.

(٢) بحار الأنوار ١٦ / ٥.

ومعه نفر من قريش حتى دخل على ورقة بن نوفل عم خديجة، فابتدأ أبو طالب بالكلام...^(١) وفي اليعقوبي (... خطب أبو طالب ﷺ لَمَّا تزوج النبي ﷺ خديجة بنت خويلد رحمها الله بعد أن خطبها إلى أبيها ومن الناس من يقول إلى عمّها، فأخذ بعضادتي الباب ومن شاهده من قريش من حضور فقال...^(٢) وفي اليعقوبي (ثمّ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أعمامه وتقدّمهم أبو طالب فخطب أبو طالب فقال...^(٣) وساق الخطبة كما وردت في المصادر السابقة مع إختلاف ملحوظ. وفي المنتظم لابن الجوزي (... وذكر ابن فارس : إنّ أبا طالب خطب يومئذ فقال...^(٤) وساق الخطبة، وفي نهايتها (وهو - أي محمّد - والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل).

هذا أهم ما عثرت عليه من مصادر هذه الخطبة وهي (اليعقوبي في التاريخ وابن الجوزي في المنتظم، والكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والكشاف، وأنوار الربيع للزمخشري، وسيرة دحلان، والسيرة الحلبية، والنسوي في التاريخ والطهطاوي).

رواية هذه المصادر غير تامّة السند، فاليعقوبي لا يذكر مصدره، وابن الجوزي وغيره يرجعون إلى (أبو الحسين بن فارس)، الذي لا ندري شيئاً عن إحالاته المرجعيّة، ومع كل هذا كيف نظمّن إلى هذه الخطبة؟ ليس من شك أن إنعدام أي أثر لها في المصادر التاريخية

(١) البحار ١٦ ص ١٣.

(٢) البحار ١٦ / ١٦ نقلاً عن من لا يحضره الفقيه.

(٣) اليعقوبي ٢ / ٢٠.

(٤) المنتظم ٢ / ٣١٥.

والحدِيثِة ومصادر التراجم والسير يُعْضِد هذا التوقف في شأنها، ولكن قد يغرينا سند الكافي، لكن في سنده أكثر من راوي ضعيف بل غال، أي حسان بن كثير الهاشمي، وحسان بن كثير، فقد ضعّفه النجاشي والكشي جدا.

التدقيق بالخطبة يقودنا إلى اكتشاف مهم، ذلك هو إنماء بعض فقراتها إلى الزمن التالي، أي الزمن التالي على الزواج، اي من موضوعات زمن متأخر، ويتعلّق الأمر بالنبوة العظيمة (وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل)، وهذا يدعنا نشكك بالخطبة بدرجة كبيرة.

أعتقد أنّ زواج رسول الله من خديجة كان زواجاً عادياً بسيطاً.

الفصل التاسع

مؤامرة قريش لقتل الرسول ﷺ

مدخل سريع

كانت هجرة الرسول الكريم من مكة إلى المدينة حدثاً كبيراً في التاريخ الإسلامي بل في تاريخ الإنسان، وقد تناولت مصادرنا التاريخية والحديثية موضوع الهجرة بالتفصيل، وذلك منذ أن أذن الله لرسوله بالهجرة حتى دخوله المدينة المنورة، والذي يقرأ هذه المصادر سيرى أن أحداث الهجرة مفصلة جداً، حتى تبدو للقارئ أنها قصة مكتلمة العناصر والمواد، ويمكننا أن نوزع هذه المادة التاريخية على المفاصل التالية :-

أولاً : مؤامرة قريش لقتل الرسول الكريم.

ثانياً : كيفية خروج النبي من البيت رغم الحصار المضروب عليه من قبل المتآمرين.

ثالثاً : ملابس صحبة أبي بكر.

رابعاً : في الطريق إلى المدينة.

خامساً : في الغار.

وفي الوقت الذي تسرد فيه المصادر هذه النقاط المركزية من قضية الهجرة نلتقي على صفحاتها مع الكثير من الأسماء ذات الأدوار البطولية، ومع الكثير من الاحداث ذات الطابع العادي والإعجازي، وفي الأثناء يثور أكثر من سؤال وأكثر من استفهام، فليس كل حدث مكتمل العناصر لا يثير غرابة، ولا يستفز الفكر، بل ربما تكامل الحدث في ظروف غريبة يكون مدعاة أكثر من غيره لطرح السؤال وإثارة الإستفهام، وغياب السبب قد لا يكون أكثر غرابة من ذكره، إذا كان غريبا، فإن للعقل حقه في التفسير والتعليل وحقه بالقبول والرفض، والتفسير الطبيعي مقدّم على التفسير الإعجازي، وأن الآوان أن تأخذ الطبيعة مساحتها الأكبر والأشمل في فهم واستيعاب تاريخ النبي الكريم.

لقد عقد القرشيون العزم على التخلّص من النبي بعد أن تأكد لهم أصراره على مواصلة الدعوة، واتضح لزعمائهم أن الأتباع كثروا، بل وأنه مُجمع على قتالهم، حيث سبقه أصحابه إلى المدينة، فتشاور القوم في دار الندوة، وأجمعوا على قتله، فهو الحل الوحيد، وأختاروا يوم الإغتيال، ذلك اليوم الذي يُسمّى يوم (الزّمة)، وقد تحدثت مصادرنا عن أجواء المؤامرة ومجرياتها بالتفصيل، والأصل في الرواية هو ابن إسحق والرواية في الطبري^(١) وفي طبقات ابن سعد^(٢) وفي البداية والنهاية^(٣) وفي السيرة النبوية لأبي الفداء الذي هو نفسه صاحب البداية

(١) الطبري ٤٤٧/٢ - ٤٥٠.

(٢) الطبقات ١٠١/٢ - ١٠٤.

(٣) البداية والنهاية ١٧٣/٣ - ١٧٥.

والنهاية^(١) وفي زاد المعاد لأبن القيم الجوزية^(٢) وغيرها من المصادر الأخرى، رغم وهن السند وضعف محمد بن إسحق عند بعض الرجالين، فقد روى محمد بن إسحق قضية المؤامرة عن شيخ مجهول [قال ابن إسحق، حدثني مّمن لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، وغيره، مّمن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال... (وساق القصّة بطولها)]^(٣).

إنّنا نواجه هنا ثلاث مشاكل رئيسية بالرواية وهي :-

الأولى : ضعف ابن إسحق عند بعض الرجالين، فقد كذّبه كل من مالك بن أنس وعروة بن الزبير وقال النسائي ليس بالقوي وغيرهم^(٤) كما أنّه أُتهم بالقدر والنقل عن الضعفاء والتشيع وقول الشعر^(٥).

الثانية : مجهولية المصدر بقوله (حدثني من لا أتهم) كذلك العنصر المجهول المتوسط بين أبي الحجاج ومصدر الرواية عبد الله بن عباس.

الثالث : كون الرواية عن عبد الله بن عباس المعروف بالارسال إذ كان له من العمر ثلاث عشر سنة وتوفي الرسول الكريم.

(١) السيرة النبوية ٢/٢٢٦ - ٢٢٩.

(٢) زاد المعاد ٣/٥٠ - ٥١.

(٣) السيرة الهشامية ٢ / ١٢٤.

(٤) الضعفاء لأبن الكامل ٦ / ١٠٢ إلى ١١٢.

(٥) نفس المصدر والصفحات.

رواية ابن إسحق

قال ابن إسحق (. . .) لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غدوا في اليوم الذي أتعدوا فيه، وكان ذلك اليوم يُسمّى يوم الزّمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه ثبلة، فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرف قريش (. . .)^(١).

يواصل ابن إسحق حديثه فيعرض الآراء التي طُرحت في كيفية التخلص من النبي الكريم، وحسب الرواية كانت هناك ثلاث طروحات هي :-

الأطروحة الأولى: أن يُحبس النبي بالحديد ويُغلق عليه الباب حتى يصيبه ما أصاب أشباهه من الشعراء، إلا أن إبليس أو الشيخ النجدي لم يستحسن هذا الرأي (. . .) ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاؤشكوا أن يشبوا عليكم، فينزعه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم^(٢).

وقد إقتنع أشرف قريش بتحليل إبليس المتخفي، وراحوا يستمعون إلى الأطروحة الثانية.

(١) السيرة ٢ / ١٢٤.

(٢) المصدر ٢ / ١٢٥.

الأطروحة الثانية: أن يُنفى الرسول من بين أظهرهم، حيث يتخلصون من دعوته الكريمة وآثارها التي بدت تززع أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن ابليس المتنكر بهيئة الشيخ النجدي لم يرتض هذا الرأي هو الآخر (... لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا إلى حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما امتتم من أن يحلّ على حيّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بها في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، ويروا فيه رأياً غير هذا...) (١).

وبالفعل، وكما تذكر الرواية اقتنع الأشراف بتحليل إبليس المتنكر، وأضطروا أن يسمعوا إلى الأطروحة الثالثة.

الأطروحة الثالثة: وكانت لأبي جهل بن هشام حيث قال (... أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم... فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي غيره، فتفرّق القوم على ذلك وهم مُجمعون) (٢).

(١) المصدر والصفحة.

(٢) المصدر والصفحة.

دقة الدور الأبليسي

التدقيق في سطور الرواية يكشف عن دور ريادي لأبليس، فهو الذي قام بعملية تقييم الآراء وتحليلها، وهو الذي شخّص الرأي السليم والمقبول، ومن الواضح أنّ المجتمعين رغم أنهم من أشرف قريش ويتمتعون بحنكة وتجربة، لأنهم زعماء غير عاديين، إلا أنهم كانوا يستمعون إلى حكم إبليس ويذعنون له، ولم يجرؤ أحد على رده أو حتى مناقشته، واستقرت النتيجة على إمضاءه وإختياره، ونلاحظ دقة الفكر الأبليسي في تحديد العواقب وإكتشاف المستقبل، فقد كان موقفاً جداً في قرن كل رأي بالمستحقات التي سوف تترتب عليه، ومن هذا نخرج بصورة تؤكد أن إبليس كان بطل القضية، خاصة إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنه سبقهم إلى دار الندوة، حيث علم بالخبر وحولياته بدقة مفصلة، كما إستطاع الإندساس في صفوفهم بطريقة فنية فائقة، ومما يزيد هذا الواقع تأكيداً امران رئيسيان : -

الأول : تطابق رأي إبليس مع إقتراح أبي جهل، باعتبار أن هذا الأخير من الدّ أعداء النبي الكريم، ومن أكثر خصومه العاملين على الخلاص منه ومن دعوته، بل من العاملين على قتله.

الثاني : لقد تمثّل إبليس بهيئة شيخ نجدى وليس تهامياً، ذلك أن أهل تهامة كانوا يميلون إلى النبي الكريم، وقد تكرّرت هذه اللعبة الأبليسيّة عندما بُنيت الكعبة، أو بالأحرى عندما أُعيد بناؤها، حيث إقترحوا أن يرفع الرسول الحجر، إذ تقول رواية تمثّل إبليس بشيخ

نجدي أيضاً، وصاح (. . . يا معشر قريش أقد رضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم؟)^(١).

إنّ ملاحظة عناصر التوليفة تكشف بوضوح عن بطولة إبليس في الحدث التاريخي .

معالجة في رواية

لم تسلم قضية إبليس من إختلاف في المضامين من مصدر لآخر، ففي السيرة الحلبيّة (. . . ثمّ أن إبليس جاء إليهم في صورة شيخ نجدي عليه طيلسان من خز . . . ووقف ذلك الشيخ على الباب فقالوا له : من الشيخ » قال الشيخ : من أهل نجد سمع بالذي اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا : أجل، أي نعم، فدخل معهم، وإنّما قال لهم من أهل نجد لأن قريشا قالوا : لا يدخلنّ معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم كان مع محمّد صلى الله عليه وسلم قيل : كما سمعهم يقولون لا يدخل معكم اليوم إلّا من هو معكم، قال لهم : لمّا سألوه، وقالوا له من أنت : قال شيخ من نجد وأنا ابن أختكم، فقالوا : ابن إخت القوم منهم، وقيل : إنّ إبليس لمّا دخل عليهم أنكروه، وقالوا له : من أنت؟ وما أدخلك علينا في خلوتنا هذه بغير إذن؟ فقال : أنا رجل من أهل نجد، رأيتم حسنه وجوهكم، طيبة ريحكم، فأحببت أن أجلس إليكم وأسمع كلامكم، فإن كرهتم ذلك خرجت عنكم، فقال بعضهم

(١) المصدر الهامش.

لبعض : هذا نجدي ولا عين عليكم منه، وفي لفظ : هذا من أهل نجد لا من مكة فلا يضركم حضوره معكم^(١).

إنّ هذه الاضافات هي جواب أو أجوبة على أسئلة كان لابد أن تُثار، أي هي إضافات شبه علاجية، فمن الطبيعي أن نتساءل عن سبب هذه الغفلة التي أصيب بها القوم المتآمر، ولا بد أن نتساءل عن موقف الذهنية العربية المحنّكة عن ملابسات الوافد الجديد، أو الوافد الذي إستبق القوم إلى دار الندوة، فإن صمت الموقف الذي أخبر به ابن إسحق غير معقول إطلاقاً، وذلك لأكثر من سبب، منها : دقة المؤامرة وأهميتها، ومنها : نوع المؤتمرين، ومنها : سرية القرار. ومهما يكن من أمر، تبرز مرة أخرى بطولة إبليس في الحدث، ولكن في إطار من التساؤل المشروع...

المعالجة القرآنية

قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٢).

قال في مجمع البيان [لِيُثْبِتُوكَ] أي ليقيدوك في الوثاق... وقيل ليثبتوك في الحبس].

[﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة إلى طرف من أطراف الأرض، وقيل : ليخرجوك على بعير ويفردونه حتى يذهب وجهه].

جو الآية مشحون بكل ما يؤكد المؤامرة من المكر والاساليب المطروحة في تنفيذها، والنتيجة التي تنتظر المتآمرين، والطبيعة العقدية

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٥.

التي يحملونها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ونحن إذا قمنا بعملية تفكيك للنصر
القرآني سوف نصل إلى تشبّع الآية بالاحتمال، أي أن السجن والطرْد
والقتل نتائج مؤجّلة إلى حين الوقت المناسب، والقرار هو الخلاص
من محمّد والله هو الحافظ.

يقول تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّرِصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرِصُوا فَإِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُرِصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فإنّ جو التربص في الآية يشير إلى أحد العناصر المهمّة في
المؤامرة، وربّما تُرقم المرحلة الثانية من المؤامرة، أي بعد الاتفاق
على إقترح أبي جهل، فالاحتمال انتهى بعد أن أُتخذ قرار القتل، وأن
الآيتين الكريمتين تسجّلان بدقّة مراحل القرار، هذا إذا صحّ أنّهما نزلتا
في قضيّة واحدة.

السؤال المطروح : يُرى لماذا لم يشر القرآن إلى موضوع إبليس
المتنكر؟ ونحسبها إشارة مهمّة بل في غاية الأهمية، لأن الكتاب
الكريم حريص على إظهار دور الشيطان في الأعمال التخريبية، وإحدى
أهم وأخطر الإدانة لكثير من الاعمال والمواقف هو مدخلة الشيطان
ودوره فيها، فإن الافصاح عن دور الشيطان وبالشكل الذي يرويه ابن
إسحق يعطي مجالاً واسعاً لتثبيت الجرم أكثر، ولإسباغ الطابع
التدميري عليه، ذلك أن الموضوع يتعلّق بإعدام أكبر قيمة بشرية عرفها
التاريخ الإنساني، وسوف تبقى كذلك، إنّه محمّد.

إنّ إبليس عنصر مفتعل، لا يقدم ولا يؤخر في الحدث، على أي
صعيد من أصعدته، سواء القرار من حيث الأساس، أو إختيار الطريقة

المثلى للقتل . . . فإنّ المؤتمرين من صناديد قريش ومن عليّة القوم الذين قضوا شطراً كبيراً من أعمارهم بالغزوات والتحالفات والتجارة، وليس به حاجة للإغراء بالقتل لأن النية قائمة في ضمائرهم ومتمكنة من وجدانهم قبل أن يندسّ إبليس في مجمعهم.

النجاة من المؤامرة

يواصل ابن إسحق حديثه عن مؤامرة قريش لقتل النبي الكريم فيقول [فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابهِ يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي : نم على فراشي وتسجّ ببردي الحضرمي الأخضر، فتم فيه، فانه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في بُرده ذلك إذا نام، قال ابن إسحق : فحدّثني يزيد بن زياد عن محمّد بن كعب القرظي قال : لما اجتمعوا له ومنهم أبو جهل بن هشام فقال وهم على بابهِ : إنّ محمّداً يزعم أنّكم أن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثم بعد موتكم . . . قال : وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال : أنا أقول ذلك أنت أحدهم، وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم، وهو يتلو الآيات ﴿يَسْ﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿ي﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ي﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ي﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ي﴾، إلى قوله تعالى ﴿فَأَعْشَيْنَهُمْ فُهْمًا لَّا يُبْصِرُونَ﴾، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلّا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم إنصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممّن لم يكن

معهم فقال : ما تنظرون ها هنا ؟ قالوا : محمّداً ، قال : خيبيكم الله ، قد والله خرج عليكم محمّد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلّا وقد وضع على رأسه تراباً ، وأنطلق لحاجته أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلّعون فيرون عليّاً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله إنّ هذا لمحمّد نائماً عليه ببرده ، فلم يبرحوا حتى أصبحوا ، فقام عليّ رضي الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدّثنا^(١) .

هذا النص الطويل نقله الطبري برواية ابن إسحق بسنده المذكور^(٢) وأبو الفدا في سيرته^(٣) ، وتاريخه^(٤) وغيرها من المصادر الأخرى ، حيث يبقى سند ابن إسحق هو المدخل الرئيسي للرواية المذكورة .

ليس ممّا يتناقض مع المنطق الديني أن يخبر الله رسوله بمؤامرة تهدف قتله ، وليس ممّا يتناقض مع هذا المنطق أن يُخبر الله نبيه بتغيير مكانه خوفاً عليه من القتل ، ولكن ليس من الضرورة الدينية أن تكون المعجزة حاضرة في كل وقت وأن تكون سبب الموقف والحدث دائماً ، بل المنطق الديني الحصيف يرّجّح التفسير الطبيعي على التفسير الإعجازي فيما توقّرت أبسط الدواعي والأسباب لذلك . أقول ذلك لأشير إلى دور البرد السحري الذي تهيله الرواية على برده رسول الله

(١) السيرة ٢ / ١٢٦ .

(٢) الطبري ٢ / ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٣) سيرة أبي الفداء ٢ / ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٤) تاريخ أبي الفداء ٣ / ١٧٤ - ١٧٥ .

ودورها في دفع الأذى عن علي بن أبي طالب وهو قد تسجى بها على فراش رسول الله للإيهام. ولقد كان في إستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتمي بهذه البردة لردّ كيد الأعداء وشرّ نواياهم الشريرة، فلا نعتقد أن بركة البردة هذه تقف عند جسد علي بن أبي طالب، على أنّ هناك روايات أخرى تقول إن صناديد قريش أو المتآمرين كانوا يضربون عليّاً عليه السلام بالحجارة وهو يتلوّى من الألم!

يكشف النص عن إصرار علي توحيد الأجواء الغربية للمفاصل الأساسية في الحدث، لقد مضى بنا موضوع إبليس المتنكّر في اللحظة التي قرّر بها الأشراف صناعة الموقف المطلوب في تصوّرهم من صاحب الدعوة، وهنا نلتقي مرّة أخرى (بمصادفة) شبيهة! أي ذلك الرجل الذي أتى ليلبّغ القوم هروب النبي الكريم، وما صنع بهم من دالة تشير إلى إخفاقهم وفشلهم، تُرى هل كان هذا الرجل نفسه إبليس المتنكّر؟ أم هو ملك صالح؟ يلوّح بل يصرّح صاحب السيرة الدحلانية أنّه الرجل النجدي^(١) وبذلك تتم عمليّة التواصل الغيبي السحري بين نقطتي البداية والنهاية، إنّ هذا التواصل شاهد على الرغبة الجموحة في تسيّد التفسير الإعجازي حتى إذا كانت الحاجة إليه منتفية.

لقد أغفل تماماً ردود فعل المتآمرين وهم يتلمّسون بأيدهم التراب على رؤوسهم، لقد كان علامة صارخة على شيء خارق، ومخالف للمألوف على أقلّ تقدير، ومن الصعب القول بأنّ النفس الإنسانية تتعامل بمثل هذا البرود مع مثل هذه الظواهر، خاصّة وأنّهم كانوا

(١) سيرة دحلان ١ / ٣٠٧.

جماعة، ربما بلغت المئة على بعض الروايات.

من الواضح البين أن الإعجاز يركّز بالنهاية على خروج رسول الله من الباب حيث كان الرهط المتآمر مجتمعاً عند الباب بالذات، يرصدون النبي الكريم، فقد جاء في طبقات ابن سعد (وأجتمع أولئك النفر من قريش يتطلّعون من صير الباب ويرصدونه)^(١).

إنّ جوهر الحدث في تصوري هو نجاة النبي الكريم من القتل، فهل يمكن تصوّر ذلك وفق المنظور العادي والمجريات الطبيعية؟ إنّ هناك جملة ممكنات في صالح هذه الإتجاه.

لقد كان الرسول الكريم في بيته الشريف يحاور عليّاً في موضوع المؤامرة، وفي الأثناء تجمّع الرهط المتآمر، وذلك حول الباب يرقبونه ويرصدونه، وهنا سؤال مهم، تُرى لماذا لم يقحموا الباب ويقتلوا النبي الكريم؟

لقد أجاب السهيلي على هذا السؤال الوجيه بقوله (...). ويذكر بعض أهل التفسير المانع لهم من التقدّم عليه في الدار مع قصر الجدار، وأنّهم إنّما جاءوا لقتله، فذكر في الخبر، أنّهم همّوا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنّها لسبّة في العرب أن يُتحدّث عنّا إنّنا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب، أصحابوا ينتظرون خروجه ثمّ طُمست أبصارهم على من خرج)^(٢).

(١) الطبقات الكبرى ١ / ٢٨٨.

(٢) سيرة دحلان بهامش السيرة الحلبية ١ / ٣٠٨.

إذن كان المتآمرون واقفين على الباب ينتظرون خروج الرسول الكريم، ويبدو أنّ بداية الاجتماع كان في الثلث الأول من الليل (فلما كانت عتمة من الليل) حيث بدأ يخطط الرسول للفرار، وهنا صورتان: الأولى: إمّا أن يخرج ﷺ من الباب.

الثاني: وإمّا أن يتسور حائطاً من حيطان الدار بعيداً عن أنظارهم، خاصّة وأن الجدران ليست عالية كما هو نص الرواية.

الرسول الكريم كما تشير رواية ابن إسحق خرج من الباب بطريقة إعجازية كما مرّ، ولكن هذا لا يعني أن الاحتمال الثاني يعدم دليلاً من السيرة، فقد جاء في الحلبيّة (وقال في النور وهذا يعارضه حديث ماريّة خادمة النبي صلى الله عليه وسلم تكتنى أم الرباب، أنّها طأطأت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد حائطاً ليلة فرّ من المشركين)^(١) والنور هو كتاب (نور الأبصار) للشبلنجي، والجمع بين الخبرين صعب، وما قام به صاحب السيرة الحلبيّة واضح التكلّف (. . . أقول: التوفيق حاصل وهو أنّه يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لم يحب أن يخرج عليهم من الباب فتسوّر الحائط التي نزل منها عليهم)^(٢).

إنّ الصورة الثانية من الفرار تتمتع بتأييد المنطق والواقع والطبيعة، ومن المناسب القول أن المنحى الإعجازي في رواية ابن إسحق (قضية الخروج من الباب وملابساتها) لم ترد في كثير من كتب السيرة والحديث.

(١) الحلبيّة ٢ / ٢٨.

(٢) السيرة الحلبيّة ٢ / ٢٨.

الذي نعتقده بأن مبررات التفسير الطبيعي لكيفية هروب رسول الله من البيت ليست معدومة، فهي تمتلك مبرراتها من القناعة العقلية والأثرية، وإذا ما إحتج بعضهم بالآية الكريمة التي كان الرسول الكريم يتلوها، فإن من المسلّم به إنها من إمضاءات الخطاب الديني الإسلامي للاستعانة على النجاة من المواقف الصعبة، ولكن ذلك لا يمنع من التخطيط المادي، بل من المؤكّد والمسنون، وكان رسول الله يخطّط فعلاً للفرار، وإلا لماذا إستغلّ الليل للتسلّل من البيت؟ ولماذا الإيهام والتمويه؟ وإذا كان هناك فرصة للهروب الطبيعي فلماذا المعجزة؟

إنّ العناصر الطبيعية في الحدث معروفة ومشهورة في كتب الحديث والتفسير والتاريخ، ونفي الحدث مسألة صعبة، ولكن إهمال النقاط الخارقة للقانون الكوني في الحدث ممكن، وهناك شواهد قويّة عليه، ولقد أشار القرآن الكريم إلى مبدأ التضحية الذي جسّده علي بن أبي طالب عليه السلام^(١) على بعض الروايات المأثورة.

جاء الآن زمن فحص السند، سند رواية ابن اسحق (قال محمّد بن إسحق: حدّثني يزيد بن زياد، عن محمّد بن كعب القرظي . . .).

١: يزيد بن زياد، وثقه النسائي وإبن حبان، ولكن البخاري يقول (لا يُتابع على حديثه)^(٢).

٢: محمّد بن كعب القرظي، ذكره العلماء في الموثوقين العارفين

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٧.

(٢) تهذيب التهذيب ١١ / ٣٢٨ والميزان ٤ / ٤٢٦.

بالتفسير، ولكن رغم ذلك هناك ما يدعو إلى الحذر والتأمل في روايته، فقد قال الذهبي (وهو يرسل كثيراً ويروي عمّن لم يُلقهم)^(١) وقد جاء في تهذيب التهذيب (محمّد بن كعب... كان أبوه من سبي قريظة، سكن الكوفة ثم المدينة، روى عن ابن العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وعمرو بن العاص وأبي ذر وأبي الدرداء، يُقال: إنه للجميع مرسل)^(٢).

إنّ كل ذلك يجعلنا في حلّ من التردّد، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالقضايا الخارقة للطبيعة.

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٦٦.

(٢) تهذيب التهذيب ٩ / ٤٢٠.

الفصل العاشر

من البيت إلى الغار

رواية عائشة أم المؤمنين

في خبر طويل للبخاري أنّ أبا بكر رضي الله عنه خرج مهاجراً إلى الحبشة أسوة بكثير من المسلمين هرباً بدينهم من طغيان قريش، فلما وصل (برك الغماد)^(١) لقيه ابن الدغنة، فسأله عن مقصده فأخبره أبو بكر أنّه يريد السياحة في الأرض حيث لا يستطيع البقاء مع قومه، فأستكثر ابن الدغنة الخبر، ذلك لما لأبي بكر من منزلة إجتماعية معروفة لدى قريش وغيرها من عشائر العرب، فأقنعه بالرجوع، مُتَكَفِّلاً حمايته والدفاع عنه... وتمضي الرواية لتقول ما معناه أن أبا الدغنة هذا أقنع أشراف قريش بعودة أبي بكر، حيث اشترط الأشراف في الوقت نفسه، أن يعبد أبو بكر ربّه في بيته إذا أراد، وقد إستجاب أبو بكر للشرط، ولكن أبا بكر سرعان ما بنى مسجداً في فناء داره، فأخذ يصلي ويقرأ القرآن في الفناء جهاراً وعلناً، الأمر الذي راح يؤثر على

(١) على ساحل البحر يركب منه في البحر إلى ساحل الحبشة.

نساء المشركين وأبنائهم، لما لصوته من تأثير ولصلاته من إحياء، فاعترض القرشيون على ابن الدغنة لأن صاحبه لم يلتزم الشرط، فجاء هذا إلى أبي بكر يحدثه عن الشرط، وقد خيّر بين إلتزام الدار أو الرحيل، لأن ابن الدغنة كان قد تكفل جوار أبي بكر ضمن شرط قريش المذكور (...). فقال أبو بكر: فأتني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عزّ وجلّ^(١) وفي هذه الأثناء كان النبي ﷺ في مكة المكرمة حيث أعلن للمسلمين (...). إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرّتان^(٢) فهاجر بعضهم إلى المدينة ورجع من هاجر إلى الحبشة ليلحق بالمدينة أيضاً، فتجهّز أبو بكر قبل المدينة (...). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده أربعة أشهر، قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهرية قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك بأبي أنت وأمي

(١) البخاري ٣ / ٦٨

(٢) المصدر ٣ / ٦٩

يا رسول الله، قال : فإنني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر :
الصحبة يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم،
قال أبو بكر : فخذ بأي أنت يا رسول الله راحلتي هاتين، قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : بالثمن، قالت عائشة : فجهّزناهما أحثّ
الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر
قطعة من نطاقها فربطت به فمّ الجراب، فبذلك سُميت ذات النطاق،
قالت : ثمّ لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل
ثور، فكمننا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو
غلام شاب ثقف لقين، فيُدلج من عندها بسحر فيُصبح مع قريش بمكان
كبائت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلّا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين
يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من
غنم فيريحها عليها حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في تلك
الليالي الثلاث، وأستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر
رجلا من بني الدّيل وهو من بني عدي هاديا خرّيتا . . . قد غمس حلفاً
في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه،
فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح
ثلاث، وإنطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فاخذ بهم طريق
السواحل^(١).

في الحقيقة : إذا قمنا بتحليل سريع لرواية عائشة في الصحيح
لوجدنا أنّها تتأسس من عنصر جوهرى وعناصر حوليّة، العنصر

(١) المصدر ٣٦٩.

الجوهري يتمثل في زيارة أو قدوم النبي على بيت أبي بكر لإخباره بأمر الهجرة، والعناصر الحوليّة تتمثل في قضية الراحلتين ودور أسماء وجهود عبد الله بن أبي بكر وغيرها، وسوف ندرس كلا النوعين في ضوء المأثور والمنطق.

حول العنصر الجوهري في الراوية

نقرأ في الطبري : (قال أبو جعفر : زاد بعضهم في هذه القصة - المؤامرة والمبيت - في هذا الموضع ، قال له - أي النبي لعلي - إن أتاك ابن أبي قحافة فأخبره أنني توجّهت إلى ثور ، فمره ليلحق بي ، وأرسل إليّ بطعام واستأجر لي دليلاً يدلّني على طريق المدينة . . .)^(١) وفي الطبري أيضاً (فقد زعم بعضهم أنّ أبا بكر أتى عليّاً فسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنّه لحق بالغار من ثور ، وقال : إنّ كان لك فيه حاجة فالحقه ، فخرج أبو بكر مسرعاً ، فلحق النبي صلى الله عليه وسلم في الطريق فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم جرس أبو بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشي فانقطع قبال نعله ففلق إبهامه حجر فكثر دمها فأسرع السعي ، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع صوته وتكلّم ، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حتى أتاه فانطلقا . . . حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه)^(٢) .

نقرأ في تذكرة الخواص : (. . . قال أحمد بن حنبل في الفضائل

(١) الطبري ٢ / ٤٥٠ .

(٢) الطبري ٦ / ٤٥٢ .

بسنده عن عمر بن ميمون قال : إني لجالس إلى ابن عباس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس علي ثوبه ونام على فراشه ، فكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أبو بكر وهو نائم فحسبه رسول الله فصاح : يا نبيّ الله ، فقال له علي : إنّ رسول الله إنطلق نحو بئر ميمون فأدركه ، فانطلق أبو بكر حتى لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبات الكفار يرمون عليّاً بالحجارة وهو يتضوّر)

نقرأ في الدر المثور : (أخرج بن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل بغار ثور قال : وتبعه أبو بكر ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسّه خلفه ، خاف أن يكون الطلب ، فلمّا رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلمّا سمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه فقام حتى تبعه فأتيا الغار... قال : فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام ، يختلف إليهما بالطعام عامر بن فهيرة ، وعلي يجهزهم ، فاشترؤا ثلاثة أباغر من إبل البحرين ، واستأجر لهم دليلاً ، فلمّا كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي بالإبل والدليل ، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته ، وركب أبو بكر راحلته ، فتوجّهوا نحو المدينة...).

نقرأ في مستدرک الحاکم : (... حدّثنا عمرو بن ميمون قال : ابن عباس... وشرى عليّ نفسه فلبس ثوب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم نام مكانه ، قال ابن عباس : وكان المشركون يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أبو بكر رضي الله عنه وعلي نائم ، قال : وأبو بكر

يُحسب أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيّ الله ، فقال عليّ : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد إنطلق نحو بئر ميمون - وهو بئر بمكة كما صرّح صاحب القاموس - فأدركه فانطلق أبو بكر فدخل الغار...^(١).

إذن هناك مآثور مُعتبر يتوجّه إلى نفي العنصر المؤسّس في رواية عائشة رضي الله عنها ، ومما يزيد من أهميّة هذا المآثور أنه من مصادر معتبرة.

هنا سؤال ...

لماذا أغفل الطبري سند الرواية ؟ تُرى هل هناك سرّ خفي ؟ وهذا النقص يعالجه صاحب تذكرة الخواص في إعماده على فضائل أحمد بن حنبل ، ذلك أن هذا الرجل معروف بالإيراد والطعن في بعض الأحاديث بضعف السند وجهالة الراوي ، وقد روى الحدث الآنف بدون طعن أو نقد ، يبقى السؤال مشروعاً حول الكيفيّة التي ساق بها الطبري الحدث ، إذ لم يشر إلى السند ، وأكتفى بقوله (زاد بعضهم) ، وقوله (زعم بعضهم) ، ممّا قد يوحي أو يوميء إلى أن السند قوي أو معتبر وأن الطبري أهمله لسبب ما ، ولكن ينبغي أن لا ننسى أن الحاكم استدركه ، والرجل يعمل وفق شروط الشيخين الكبيرين البخاري ومسلم ، أضف إلى ذلك أن الذهبي صحّحه هو الآخر^(٢).

(١) المستدرك ٣ / ١٣٤ .

(٢) المستدرك ٣ / ١٣٤ الهامش .

قضية الراحلتين

جاء في رواية عائشة رضي الله عنها (... وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السُمّر - وهو الخبط - أربعة أشهر...) (١).

يعلق صاحب السيرة الحلبية على ذلك فيقول (أقول : ظاهر السياق أن علفه للراحلتين كان بعد قول المصطفى صلى الله عليه وسلم له ما ذكر، ومعلوم أن ذلك بعد مبايعة الأنصار له صلى الله عليه وسلم، والمدّة بين مبايعة الأنصار له صلى الله عليه وسلم والهجرة كانت ثلاثة أشهر أو قريباً منها، لأنها كانت في ذي الحجة ومهاجرته صلى الله عليه وسلم كانت في ربيع الأول... وسيأتي عن الحافظ بن حجر أن بين إبتداء هجرة الصحابة وبين هجرته صلى الله عليه وسلم شهرين ونصف شهر على التحرير والله أعلم) (٢).

لم تقف المسألة عند هذا الحد أو هذه الملازمة، ذلك أنّ قضية الراحلتين وردت في غير البخاري ولكن ضمن معطيات مغايرة، ففي السيرة الهشامية نقرأ (وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال، فكان حين إستاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الهجرة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تعجل، لعلّ الله يجعل لك صاحباً، قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما يعني نفسه حين قال ذلك، فأبتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك) (٣).

(١) الصحيح ٣ / ٦٩ .

(٢) السيرة الحلبية ٢ / ٢٤ .

(٣) المصدر ٢ / ١٢٨ .

من الواضح المفارقة بين الروایتين، حيث المُستفاد من رواية البخاري وبشكل أقرب لفهم النص، إنّ الراحلتين كانتا عند أبي بكر قبل الوعد الموعود بالصحة، وذلك بداليتين مهمتين، الشهر الأربعة، وقولها (كانتا عنده)، فيما في رواية ابن إسحق أن أبا بكر إشتراكهما بعد الوعد المذكور، من المفارقات الأخرى، أنّ الحوار بين الرسول الكريم وأبي بكر رضي الله عنه في خصوص ثمن الراحلتين كان في بيت أبي بكر رضي الله عنه بالذات، هذا في رواية البخاري، فيما نطالع الحوار المذكور بعد إنطلاقهما من غار ثور، جاء ذلك في سيرة ابن هشام^(١). في حين تنسف رواية الدر المنثور الصيغة التي روتها عائشة رضي الله عنها من الأساس.

فضائل أسماء

نقرأ في رواية البخاري عن عائشة (. . . فجهزناهما أحت الجهاز وصنعنا لهما سُفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فمّ الجراب، فلذلك سمّيت ذات النطاقين)^(٢)، ولكن رواية ابن إسحق تقول (. . . حتى إذا مضت الثلاث، أي الليالي الثلاث في الغار، وسكن عنهما الناس أتاها صاحبهما الذي استأجراه ببيعيرهما وبيعير له، فأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاما، فلما إرتحلا أي من الغار إلى المدينة، ذهب لتعلّب السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحل نطاقها

(١) المصدر ٢ / ١٣١، وفي الكامل لابن الأثير ١٣ الكامل ٢ / ١٠٤.

(٢) البخاري ٣ / ٩٦.

فتجعله عصاماً، ثم علقتها به - فكان يُقال لأسماء بنت أبي بكر ذات النطاق لذلك قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين^(١).

هناك إختلافان إذن، رواية البخاري تذكر أن عملية شدّ السُفرة بنطاق أسماء كانت في بيت أبي بكر رضي الله عنه، ولكن في السيرة الهشامية كانت العملية عند الغار، مع أن هناك فارقاً زمنياً ومكانياً بين الحالتين، وهي أنّ أسماء ذات النطاق في رواية البخاري، ولكنها ذات النطاقين في كلام ابن هشام نقلاً عن بعض الرواة، على أننا نقرأ في البخاري نفسه رواية عن أسماء (. . . صنعت سفرة النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر حين أراد المدينة، فقلتُ لأبي : ما أجد شيئاً أربطه إلا نطاقي، قال : فشقيّه، ففعلتُ، فسُميتُ ذات النطاقين)^(٢). فأيهما نصدّق رواية عائشة أم أسماء رضي الله عنهما؟ ثم نقرأ في رواية أُخرى (عن أسماء قالت : صنعت سفرة النبي صلى الله عليه وسلم في بيت أبي حين أراد أن يهاجر فلم أجد لسفرته ولا لسقائه ما أربطهما، فقلتُ لأبي : ما أجد إلا نطاقي فقال : شقيّه باثنين، فاربطي بهما، قال : فلذلك سُميت ذات النطاقين)^(٣)، حيث زيد على السُفرة عنصر جديد هو السقاء.

إذن نحن بين أيدي مفارقات كثيرة في صدد هذه الفضيلة، فتارة أسماء ذات النطاق وأخرى ذات النطاقين، وقد لُقبت يوم كانت في

(١) ابن هشام ٢ / ١٣١.

(٢) البخاري ٣ / ٧١.

(٣) ابن هشام ٢ / ١٣١.

بيت أبيها رضي الله عنه وأخرى عند الغار، وهي قد أحكمت السفرة في رواية وفي أخرى السفرة والسقاء، ونجد تفاوتاً وقلقاً في سبب تسميتها ذات النطاقين، وفي هذه المفارقة ثلاث آراء.

الأول : سُمّيت ذات النطاقين لأنها شقت نطاقها إلى نصفين، أحكمت في الأول السفرة التي صنعتها لرسول الله ﷺ والثاني إنتظمت به، وفي رواية ابن هشام^(١) ومسلم ١٩ كما أنّ البلاذري^(٢) أورد ذلك أيضاً.

الثاني : سُمّيت ذات النطاقين لأنها شقت نطاقها إلى نصفين، أحكمت بالأول سفرة الطعام وبالثاني سقاء الماء وبهذا روايات أيضاً^(٣).

الثالث : سُمّيت ذات النطاقين لأنها تجعل نطاقاً على نطاق^(٤).

مع هذا الأضطراب الشديد في السبب والنتيجة والكيفية والزمان والمكان والأسماء كيف يمكن للباحث أن يشكّل صورة واضحة؟!

يقول ابن الصباغ (. . .) وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام بلياليها في الغار وقريش لا يدرون أين هو، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما ليلاً بطعامهما وشرابهما^(٥) ولكن جاء في سيرة ابن هشام عن أسماء نفسها (. . .) قال ابن إسحق : فحدثت عن أسماء

(١) ابن هشام ١٢٨ / ١٣١ .

(٢) أنساب الأشراف ٢ / ٢٦٠ .

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٣٣ .

(٤) دلائل النبوة البيهقي الهامش ٢ / ٤٧٤ .

(٥) نقلا عن الحلبية ٢ / ٤٠ .

بنت أبي بكر أنها قالت : . . . فمكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)، كذلك في رواية عائشة رضي الله عنها حيث توعدت الفضيلة إلى عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما^(٢)، ورواية الدر المنثور توعدت الفضيلة إلى عامر بن فهيرة!!

لا نعتقد بأن هذه الاختلافات بريئة . . .

دور عبد الله بن أبي بكر

توعدت رواية عائشة رضي الله عنها لعبد بن الله بن بكر مهمّة أمين السر كما أنها تشير صراحة أنّه كان يبيت مع النبي وأبي بكر في الغار، وفي الواقع هذا الإيدعاء غريب على حادث الغار، بدليل الآية الكريمة التي تحدّثت عن هذه المسألة بالذات ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(٣)، فالأقرب للمنطق أن تذكر الآية الكريمة بطريقة وأخرى الثالث، ولكن لم نشم أي إشارة لذلك، ولم نعثر عليها في مصادر أخرى معتبرة، بل نجدها في رواية ابن إسحق التي هي عن عروة بن الزبير عن عائشة أي ذات السند في البخاري^(٤)، ولا داعي لئن يحذف ابن إسحق أو ابن هشام هذه الإضافة فهما دائمي الذكر لفضائل أبي بكر وعائلته الكريمة، كما لم نجد في الطبقات ومصادر أخرى، علماً أنّ أبا بكر تحدّث عن صحبته للرسول أكثر من مرّة، ولكنّه لم يلوّح

(١) المصدر ٢ / ١٣١.

(٢) الصحيح ٣ / ٦٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٤) المصدر.

إلى هذه القضية ، إضافة لذلك أن المصادر التاريخية والحديثية لم تعدم الإشارة إلى ضعف القول بهذه الأدوار لعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما. ففي البداية والنهاية (أسلم - عبد الله بن أبي بكر - قديما ويقال إنه الذي كان يأتي بالطعام والشراب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما في غار ثور، وبييت عندهما ويُصبح بمكة كبائت، فلا يسمع بأمر يكادان به إلا أخبرهما...^(١)) وفي تاريخ الإسلام للذهبي [... (وقيل) هو عبد الله الذي كان يأتي بالطعام وأخبار قريش إلى الغار تلك الليالي الثلاث...]^(٢) فالإيراد هنا بلغة التمرريض كما هو واضح، ولم تعدم بعض المصادر الخبر المضاد أو الآخر، في أسد الغابة [هو الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر بالطعام وبأخبار قريش إذ هما في الغار كل ليلة... وقيل غير ذلك...]^(٣) وفي الطبري (... ولما رجع... عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان أبيه أبي بكر فخرج عبد الله بعيال أبيه...^(٤))، ويزيد الرواية وضوحاً وبياناً صاحب الإصابة بقوله (وذكر الطبري في تأريخه أن عبد الله أريقط الدثلي الذي كان دليل النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع بعد أن وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أخبر عبد الله بن أبي بكر الصديق بوصول أبيه إلى المدينة فخرج عبد الله بن أبي بكر وصحبهم طلحة بن عبيد الله حتى قدموا المدينة)^(٥)، ومن حكاية الطبري وتوضيح الإصابة

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٤٣.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء الراشدين ص ٥٠.

(٣) أسد الغابة ٣ / ١٩٩.

(٤) الطبري ٣ / ١٤.

(٥) الإصابة ٤ / ٤٣.

يمكن أن نفهم أن عبد الله هذا لم يكن يعلم المكان الذي كان يوجد فيه النبي وصاحبه، أي لم يعرف أنهما هاجرا إلى المدينة، فالدليل عبد الله بن أريقط لم يبلغ بإعلانه هذا إدخال الإطمئنان على قلب عبد الله بسلامة أبيه، ولم يرد إبلاغه أمراً كان قد إتفقا عليه سلفاً، بل الخبر يوحى بأن عبد الله بن أبي بكر كان جاهلاً بالمكان، وعليه كيف ينسجم ذلك مع كونه أمين السر وحامل الطعام والشراب إليها وهما في الغار؟ فالمعقول أن عبد الله بن أبي بكر كان يحيط علماً بقصدهما، أي المدينة، بل لا بد أن يعرف ذلك تفصيلاً، وأكثر من الدليل، ولكن جو الحكاية كما يرويها الطبري ويوضحها ابن حجر يرجح جهل عبد الله بن أبي بكر بذلك، وهو وصف يتلائم مع الرأي الذي يذهب إلى أن عبد الله بن أبي بكر كان غريباً على الحدث. ومعاينة حياة عبد الله بن أبي بكر لا تساعد على إعطائه مثل هذا الدور، فهو لم يكن ثقفاً لبقاً كما تقول عنه أخته عائشة رضي الله عنها، بل هو أشبه بخامل الذكر والفاعلية، فلم نعهد له رواية، وقال ابن حجر في ذلك (. . .) ووجدت له حديثاً مسنداً أخرجه البغوي وغيره وفيه من لا يُعرف^(١)، ويبدو من بعض الأخبار أنه ضعيف الشخصية، ففي عيون الأخبار لابن قتيبة (. . . أبو علي الأموي قال : كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل عند عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت قد غلبته في كثير من أمرها، فقال له أبوه : طلقها فطلقها . . .)^(٢)، وبسهولة نستطيع أن نكتشف التّضاد والاختلاف بين رواية عائشة رضي الله عنها في أخيها على صعيد حملة الطعام والشراب

(١) الإصابة ٤ / ٤٣.

(٢) عيون الأخبار ٤ / ١١٢

مع رواية الدر المنثور السابقة، كذلك مع نصّ ابن الصباغ السالف، فضلاً عن ذلك خلو طبقات ابن سعد ودلائل النبوة للبيهقي وتاريخ الذهبي وزاد المعاد لابن القيم من هذه الإشارة.

مع الدليل

ورد في رواية عائشة رضي الله عنها (. . . واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الدئل، وهو من بني عبد بن عدي، هادياً خريّتاً . . . وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صُبح ثلاث . . .)^(١)، ولم يسلم هذا العنصر من أثر ينفيه ويخالفه، فقد مرّ بنا في رواية الدر المنثور عن ابن عباس، أن إستئجار الدليل والرواحل كان بواسطة عليّ عليه السلام، بعد أن خرج النبيّ وصاحبه من المدينة نحو الغار، وقد جاء في الفصول المهمّة لابن الصباغ (. . . فأستأجر عليّ لهما رجلاً يُقال له : الأريقط بن عبد الله الليثي، وأرسل معه بثلاث إبل، فجاء بهنّ إلى أسفل الجبل ليلاً، فلما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم رغاء الأبل نزل من الغار هو وأبو بكر فعرفاه . . .)^(٢) والواقع أن أعراف التحركّ المأمون وقواعد الحذر في مثل هذه الحالات تستدعي الصورة المذكورة، أي تدبير الراحلة والدليل بعد التخلّص من الخطر الأكبر، الخطر الذي كان يتجسّد في البقاء في مكّة، وهي مغامرة غير محسوبة إن حصل كل هذا الإعداد والتحضير في بيت أبي بكر رضي

(١) البخاري ٣ / ٦٩.

(٢) السيرة الحلبية ٢ / ٤٠.

الله عنه، فالعيون راصدة تلاحق محمداً صلى الله عليه وسلم، وتتعقب أثره من كل جهة، إن إستتجار الدليل من قبل أبي بكر أو النبي أو كليهما وهما في المرحلة الأولى من الإعداد ربما يجلب أخطاراً كثيرة، فيما تتحجّم نسبة هذه الأخطار إذا كان الإستتجار عبر واسطة، وهما في مكان مأمون بعيد عن أعين قريش.

نقطة مرتبكة

جاء في الرواية (. . . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأبي بكر : أخرج من عندك، فقال أبو بكر : إنّما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله)، وقد إحتاروا في تفسير قول أبي بكر رضي الله عنه (إنّما هم أهلك)، وهناك إتجاهان بشكل عام : -

الإتجاه الأول : إنّ رسول الله ﷺ كان قد عقد على عائشة بنت أبي بكر قبل الهجرة، وقد كانت ابنة ست سنين.

الإتجاه الثاني : إنّ على وزان قول الشخص لآخر : أهلي أهلك.

من الواضح أن التوجيه الأول لا يستقيم، ففي البيت أسماء بنت أبي بكر وأخاها عبد الله فضلاً عن ابن فهيرة، والتوجيه الثاني مجرد ظن لا دليل عليه.

مفارتان أخريتان

تقول الرواية في الجامع (. . . إنّما هم أهلك . . .)، فيما في السيرة الهشامية نقراً (. . . إنّما هما إبتتاي . . .) رغم وحدة السند، وتقول الرواية في الجامع (. . . ولم يمر علينا يوم إلّا يأتينا رسول الله صلى

الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشيّة)، فيما في السيرة الهشامية
وبنفس السند نطالع (... لا يخطيء أن يأتي رسول الله صلى الله عليه
وسلم بكرة أو عشياً...) ولم يستطع الحلبي الجمع بينهما.

منطقة فراغ مجهولة

تقول الرواية إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بيت أبي بكر
في نحر الظهيرة أي وقت الزوال حيث أشد ما يكون الحر، وفي تلك
الفترة تمّ إستئجار الدليل وإعداد الطعام فضلاً عن الحوار حول الهجرة
والصحبة، وبذلك فإن المعقول يفيد بأنهما خرجا من البيت وقت
العتمة على أقل التقادير، وهو ما جاء في طبقات ابن سعد (قدم رسول
الله صلى الله عليه وسلم إلى منزل أبي بكر فكان فيه إلى الليل ثم خرج
هو وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه)^(١). ولكن في السيرة التي كتبها
دحلان نقرأ (... وفي رواية أحمد: حتى لحق - أي رسول الله -
بالغار فأفاد أنّه توارى فيه حتى أتى أبو بكر منه في نحر الظهيرة ثم خرج
إليه هو وأبو بكر ثانياً...) ^(٢)، وعليه وحسب رواية أحمد التي ينقلها
دحلان، يكون النبيّ الكريم قد توجّه في الوهلة الأولى إلى الغار،
وبقي فيه إلى اليوم الثاني، وفي اليوم الثاني خرج من الغار إلى بيت أبي
بكر، ومن هناك أنطلقا سوية من جديد إلى الغار! ورواية عائشة رضي
الله عنها خالية من هذا التفصيل. وفي خصائص النسائي (... تشاور
المشركون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلع الله نبيّه على

(١) الطبقات ١ / ٢٨٨.

(٢) سيرة دحلان على هامش الحلبي ١ / ٣٠٧.

ذلك فخرج تلك الليلة حتى أتى الغار^(١)، فلم نجد تفاصيل الرواية كما يُنقل عن عائشة، كانت هجرة مباشرة من البيت إلى الغار كما يستفاد من ظاهر الكلام، وقد حاول الحلبي أن يجمع بين هذه المتضادات والمفارقات بقوله (. . . وقد يُقال : لا منافاة لأنّ قوله حتى لحق بالغار غاية لمطلق الخروج من بيته، لا في خصوص تلك الليلة، أي : خرج من بيته واستمرّ على خروجه حتى لحق بالغار، وذلك في الليلة الثانية، ولكن تقدّم أنّه صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبي بكر متقنّاً في وقت الظهر فليتأمل)^(٢) ومن الواضح اعترافه بالعجز .

الرواية ومنطق الأشياء

تواجه رواية عائشة رضي الله عنها أكثر من مشكلة يقتضيها منطق الأشياء، فمن حقنا أن نسأل عن المدّة الزمنية المحصورة بين اللحظة التي ترك بها الرسول بيته الشريف (العتمة الأولى، منتصف الليل، العتمة الآخرة)، واللحظة التي وصل فيها بيت أبي بكر (الهاجرة)، ترى أين أمضاها؟ نعتقد أنّه سؤال مهم ومشروع إذا لاحظنا بدقة طرف الحدث، فهو هروب أو فرار، والمشركون كانوا يتربصون به المنون، وأصحابه إمّا في الحبشة أو المدينة أو متوارين في مكّة، مستضعف لا حول له ولا قوّة، ولذا هي فترة حرجة جداً بالنسبة للرسول الكريم ﷺ، وأعتقد أنّ رواية أحمد بن حنبل التي ينقلها دحلان والتي يقول فيها إنّ النبيّ الكريم توجه في الليلة الأولى مباشرة إلى الغار ثم

(١) نقلا عن السيرة الحلبيّة ٣ / ٣٤.

(٢) نفس المصدر ٣ / ٣٥.

في اليوم التالي ذهب إلى بيت أبي بكر إنما جيء بها لمعالجة هذه الشجرة، ولكنه علاج بارد بل يعقد المشكلة، خاصة وأن تكاليف هذا السلوك كثيرة وخطيرة، ولعلّ إشارة النسائي إلى أن الهجرة كانت في الليلة الأولى، أي أنه ﷺ هاجر مباشرة من البيت إلى الغار، إنما هي محاولة للتغلب على هذه المشكلة أو مصادرتها، ومهما يكن من أمر، فإن رواية عائشة رضي الله عنها تستدعي مثل هذا السؤال، وهو سؤال لم نجد له حلاً.

إن الأقرب للواقعية أن ينأى النبي الكريم من الذهاب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، لأنّ بيته كان مراقباً على أغلب الظن، ومن الصعب التخفي بالتقنّع والبيت حتماً مراقب ومرصود باعتبار العلاقة بين النبي وأبي بكر، ممّا يذكر هنا أن بيت آل أبي بكر تعرّض لهجوم مباغت، ففي سيرة ابن هشام (فحدّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنّها قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت لهم، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت : قلتُ : لا أدري والله أين؟ قالت : فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خديّ لكمة طرح منها عقدي)^(١). وقصدي من هذا الشاهد أن عمليّة الرصد والملاحقة قائمة، ولعلّ الإشارة إلى (تقنّع) الرسول في الرواية يعزّز هذا الرأي بل هو بديهي، إلا أن التقنّع لا يحل المشكلة أبداً، لأن العرب أهل قافة ومعرفة، ومحمّد ﷺ لا يخفى عليهم متقنّعاً، وحاستهم الفطرية

(١) السيرة الهشامية ٢ / ١٣١.

تشخصه من قامته ومشيته وغيرها من مشخصات الفراسة التي عُرف بها العرب، بل أكثر من ذلك إن عملية التقنّع ذاتها مشيرة.

إن نظرة سريعة في تضاعيف الرواية تكشف بوضوح عن تصعيد مرسوم لبيت معين، وذلك بشكل وآخر، فاسماء بنت أبي بكر هي التي جهّزت السفرة، وعبد الله بن أبي بكر كان أمين السر، ولاننسى وصفه بالمتن على لسان أخته رضي الله عنها بالثقف اللقن، وعامر بن فهيرة الذي مارس دور التمويه هو مولى أبي بكر، وسند الرواية ينتهي إلى عروة إلى عائشة، وعروة هو ابن أسماء بنت أبي بكر، وكان قد تربّى في أحضان عائشة، وبهذا نكتشف عناصر التجاذب بن المتن والسند.

الفصل الحادي عشر

نحو الغار وفي فنائه

١

تتفق المصادر على أن قريشاً جدّت في طلب رسول الله ﷺ بعد أن تأكد لها أنه لم يكن موجوداً في بيته الشريف، وفي رواية ابن إسحق عن أسماء (.. .) فمكثا ثلاث ليال وما ندري أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنّى بأبيات من شعر غناء العرب، وأن الناس ليتبعونه يسمعون صوته ما يرونه.. .)^(١)، وتستمر أسماء في حكايتها حيث تورد الشعر المذكور قائلة (فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.. .)^(٢)، وحسب هذه الرواية أن الناس إكتشفوا الجهة التي قصدها الرسول الكريم من هاتف الجن المزعوم، ولكن بإمكاننا أن نستعيض عن هذه الرواية ما ينقله لنا أبو الأسود عن عروة بن الزبير (.. .) أنهم - أي قريش - ركبوا في كل وجه يطلبون النبي صلى

(١) السيرة الهشامية ٢ / ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٣.

الله عليه وسلم وبعثوا إلى أهل الميآه يأمرونهم ويجعلون لهم جعل العظيم...) (١)، وفي هذا يقول ابن سعد (وطلبت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ الطلب...) (٢)، ويفصّل الحلبي الموضوع (... إنّ المشركين لما فقدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شقّ عليهم ذلك وخافوا ذلك، وطلبوه بمكّة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة أي الذين يقصون الاثر في كل وجه...) (٣)، وفي الحقيقة أنّ هذا الأمر متوقع، ذلك أن قريش كانت جادّة بقتل رسول الله ﷺ، وكما يقول ابن كثير (إنّ المشركين حين فقدوهما - النبي وصاحبه - ذهبوا في طلبهما كلّ مذهب من سائر الجهات...) (٤)، فالحملة إذن كانت مكثّفة وقويّة، ومسألة الهاتف على لسان أسماء لا تقدم ولا تؤخر في ذلك، لأنّ الطلب ثابت، ولأنّ استقصاء كل جهة أمر ضروري وممكن، وتشير بعض الروايات أنّهم وصلوا إلى الغار فعلاً، ففي صحيح البخاري (... حدّثنا همام، حدّثنا ثابت عن أنس بن مالك أن أبا بكر حدّثه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار، فقلت : يا رسول الله لو أنّ أحدهم ينظر إلى تحت قدميه لأبصرنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ما ظنّك بأثنين الله ثالثهما...) (٥)، ولم تُذكر في هذه الرواية التي يرويها مسلم أيضاً (٦)،

(١) دلائل النبوة ٢ / ٤٧٨.

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٨.

(٣) السيرة الحلبيّة ٢ / ٣٧.

(٤) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٤٢.

(٥) البخاري في تفسير سورة براءة.

(٦) الصحيح كتاب ٤٤ باب ١ ح ٢٣٨١.

والترمذي^(١)، وغيرها من المصادر... لم تُذكر قصّة العنكبوت والحمامتين والشجرة، ومن المعقول جداً أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشير إلى هذه الآيات في هذه الأثناء، فهي بلا ريب تعرّز الإطمئنان، بل تؤسس بدرجة فائقة من اليقين، والمناسبة في الجوهر والصميم من الظرف والحالة والسياق، هذا فضلاً عن إنعدام الإشارة في الآية الكريمة، ويروي البيهقي (... قال حدّثنا ابن أبي لهيعة عن أبي الاسود عن عروة بن الزبير... وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي صلى الله عليه وسلم حتى طلّعوا فوقه، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر، وأقبل عليه الهم والخوف، فعند ذلك يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحزن إنّ الله معنا...)^(٢)، حيث لم نجد تلك الخوارق، خاصة الشجرة التي يدّعي صاحب الحليّة أنها سدّت الغار بفروعها^(٣)، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطمئن أبا بكر بكل علامة أو إيماءة من شأنها أداء هذا الدور، وعلى سبيل المثال ما رواه النسائي في الخصائص الكبرى (... أخرج أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر أن أبا بكر رأى رجلاً مواجه الغار فقال: يا رسول الله إنه لرآنا، قال: كلا، إنّ الملائكة تستره الآن بأجنحتها، فلم يلبث الرجل أن قعد يبول مستقبلها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل...)^(٤)، وأعتقد أنّ

(١) الترمذي رقم ٣٠٩٥ من التفسير.

(٢) دلائل النبوة ٢ / ٤٧٨.

(٣) السيرة الحليّة ٢ / ٣٦.

(٤) الخصائص الكبرى ١ / ١٨٥.

التنويه بالنسيج والحمامتين والشجرة أولى هنا، ، ويُروى أنّ أبا جهل كان يحرز أن رسول الله في الغار، ولكن أدعى أنّ الرسول قد يكون مارس السحر فحجب رؤيتهم^(١).

٢

يتحدثون عن سير الرسول الكريم إلى غار ثور، ويذكرون جملة صور وحالات وأحداث تستدعي النظر، وقد حشد الحلبي في سيرته بعضاً منها نقلاً عن غيره [أقول] في الدر المنثور : فمشي صلى الله عليه وسلم ليله على أطراف أصابعه لثلا يظهر أثر رجليه على الأرض حتى حُفيت رجلاه، فلما رآه أبو بكر قد حفيتا حمله على كاهله، وجعل يشتد به حتى أتى على فم الغار فأنزله، وفي لفظ لم يصب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار حتى قطرت قدماه دماً، وفي كلام السهيلي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : نظرت إلى قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وقد تقطرتا دماً...^(٢)، وفي الواقع من الصعب الإطمئنان والوثوق بمثل هذه الأخبار، ذلك أن المسافة بين مكة والغار قصيرة جداً (٢٠ كم)، ولذلك أحتمل الحلبي أنّهما ضلّا الطريق أو أنّ ذلك لخشونة الجبل^(٣)، وكلا الإحتمالين ضعيف، وليس هناك ما يشجع عليه.

ولم يسلم الغار من الحديث والتصوير والكلام، فالغار نفسه تحوّل إلى لغز أو أسطورة، وأكتسى حقاً روحياً فائقاً، (فقد روى أبو بكر

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٣٧.

(٢) نفسه ٢ / ٣٤.

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٣٤.

أحمد بن علي القاضي عن عمرو بن الناقد، عن خلف بن قيم، عن موسى بن مطير، عن أبيه، عن أبي هريرة أن أبا بكر قال لابنه إذا حدث في الناس حدث فأت الغار الذي أختبأت فيه أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فكن فيه، فإنه سيأتك رزقك فيه بكرة وعشياً^(١)، ولم نعرف من هذا الابن الكريم الذي أسر له أبو بكر هذا الأمر الخطير، ونحن نعلم أن رزق رسول الله وصاحبه في الغار كان يأتي بشرياً ولم ينزل عليه من السماء، وفي سننه موسى بن مطير، وهو ضعيف عند الدار قطني، وكذبه يحيى بن معين، وقال ابن حبان: صاحب عجائب ومناكير لا يشك سامعها أنها موضوعة، والرواية المذكورة أدرجها ابن حجر في صحيفة أعماله السوداء^(٢)، وفي رواية البغوي (حدثنا داود بن عمرو الضبي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، عن ابن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور... حتى إذا إنتهى إلى الغار من ثور، قال أبو بكر: لما كنت حتى أدخل يدي فأحسّه وأقصّه، فإن كانت فيه دابة أصابتنى قبلك، قال نافع: فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الحجر تخوفاً أن تخرج منه دابة أو شي يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم...^(٣)). قال ابن كثير وهذا مرسل^(٤)، ذلك أن ابن أبي مليكة ولد في خلافة الإمام علي^(٥)، ونافع وإن وثقه أحمد إلا أنّ

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٤٠.

(٢) لسان الميزان ٦ / ١٣٠.

(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٣٦.

(٤) نفسه والصفحة.

(٥) تهذيب التهذيب ٣ / ٣٤٦ رقم ٦٤٠.

إبن سعد يقول : ثقة فيه شيء^(١) ، على أن إبن أبي مليكة كان قد ولي القضاء والآذان لابن الزبير^(٢) ، وكان يروي في فضائل الصحابة فيما يغمز بعلي من طرف خفي^(٣) ، وكان حريصاً على رواية فضائل أبي بكر وعائشة ، ويبدو أنه منشد إليهما لأنه تيمي ، فإن إسمه هو (زهير بن عبد الله بن جدعان التيمي...) ^(٤) ، ومهما يكن فإن كون الرواية مرسلة أصلاً يكفي في عدم إعتماها من الأساس ، ولا حاجة لهذه التقييمات الرجالية الإضافية ، وإمتداداً للحديث عن قصّة الغار يروي إبن هشام (وحدّثني بعض أهل العلم أنّ الحسن بن أبي الحسن البصري قال : إنتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ، فدخل أبو بكر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حيّة ، بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم) ^(٥) ، ولكن إبن كثير يعلّق على الحديث فيقول (وهذا فيه إنقطاع من طرفيه) ^(٦) ، وفي صحيح مسلم (... الأسود بن عامر : حدّثنا إسرائيل ، عن الأسود ، عن جندب قال : كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ، فأصاب يده حجر فقال :

إن أنتِ إلا أصبع دَميت وفي سبيل الله ما لقيت) ^(٧).

وفي الحقيقة أنّ هذا البيت يتنافس على شرفه وفي سياق جهادي

(١) المغني للذهبي ٢ / ٦٩٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٢ .

(٣) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٢ .

(٤) البداية والنهاية ٥ / ٢٠٠ ، ٢١٠ .

(٥) السيرة الهشامية ٢ / ٢٤ .

(٦) سيرة إبن كثير ٢ / ٢٣٧ .

(٧) الصحيح كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبي من الأذى ح ١٧٩٦ .

أكثر من واحد، ففي المنتظم لابن الجوزي بسنده إلى عبد السلام بن النعمان بن البشير يروي (أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين قُتل دعى الناس : يا عبد الله بن رواحة وهو في جانب العسكر ومعه ضلع جمل ينهشه ولم يكن ذاق الطعام قبل ذلك بثلاث، فرفع الضلع ثم قال : وأنت مع الدنيا ثم تقدم فقاتل ثم أُصيبت أصبعه فارتجز وجعل يقول :

هل أنت إلا أصبع إلا دميت وفي سبيل الله ما لقيت^(١).

والخبر في سيرة ابن هشام^(٢)، ويروي ابن هشام أيضاً أن قائل البيت هو الوليد بن الوليد بن المغيرة في مهمة إنتدبه لها رسول الله^(٣)، ويروي الحلبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو القائل^(٤)، ويحكي ذلك عمّا في الصحيحين عن جندب بن عبد الله أنه قال (بيننا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أصابه حجر فدميت أصبعه فقال : هل إنت إلا أصبع دميت...^(٥))، ويروي الحافظ أبو بكر البزار (...). لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر مهاجرين فدخلا الغار إذ في الغار جحر فالتقه أبو بكر عقبه حتى أصبح، مخافة أن يخرج على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء...^(٦) وسوف نتعرض لسند الرواية في صفحات لاحقة.

(١) المنتظم لابن الجوزي ٣ / ٣٢٠.

(٢) السيرة الهشامية ٢ / ١٢٠.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) السيرة الحلبية ٢ / ٣٦.

(٥) نفسه.

(٦) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٥٨.

الفصل الثاني عشر

من البيت إلى الغار / الرواية الشيعية

تعرّضت المصادر الشيعية بأسهاب إلى موضوع الهجرة (مؤامرة الإغتيال، خروج النبي من بيته الكريم، مبيت علي في فراش النبي، وغيرها من الموضوعات الأخرى)، ونجد آثارها منتشرة في تفسير الطبرسي وتفسير علي ابن إبراهيم، وهو تفسير مشكوك النسبة إلى صاحبه وتحفّه مشاكل كثيرة، وأعلام الوري، وهو كتاب قليل الإسناد، وأمالي الشيخ الطوسي وهو كتاب مشكوك الوصول بطريق معتبر، كذلك كتاب مناقب ابن شهرآشوب، وأمالي الصدوق، وغيرها من كتب الشيعة المصدرية، وقد جمع هذه الأخبار العلامة المجلسي في كتابه الكبير (بحار الأنوار)، الجزء التاسع عشر من الطبعة الحديثة.

بعض هذه الأخبار مسندة - ولا يعني هذا أنها صحيحة بالضرورة - وبعضها بلا إسناد، وهي خليط مشوش، تتداخل أحياناً وتفترق أخرى، ونحاول هنا جاهدين وضع خلاصة لأهم المفاصل في هذا الكم من الأخبار.

تتحدث بعض هذه الأخبار عن فكرة المؤامرة، وتورد موضوع

إبليس المتنكر، حيث كان حاضراً في صورة (أعور ثقيف)^(١) وبعض المصادر توعد فكرة الإغتيال الجماعي إلى إبليس وليس إلى أبي جهل في الأساس^(٢) فيما يحتل أبو جهل موقع المؤسس للخطة المذكورة في مصادر أخرى^(٣) حيث يستحسن إبليس الفكرة ويدفع بإتجاهها، وتتطرق المصادر الشيعية إلى الجانب الإعجازي في نجات الرسول الكريم، وتكاد لا تختلف عن المصادر السنية في النقاط الأساسية، فالرسول خرج من الباب، وقد نثر التراب فوق رؤوسهم، وكان يقرأ سورة يس المباركة، وتشير إلى موضوع إبليس الذي أخبرهم بخروج الرسول الكريم، وتباين المصادر في الوقت الذي اختاره الرسول ﷺ للإسلاف من الدار، وذلك من العتمة الأولى إلى العتمة الآخرة، وتفصل بإسهاب عن اللقاء الذي حصل بين النبي وعلي، وما جرى بينهما من حديث وحوار، حيث نلتقي بإعجاز هنا وإعجاز هناك، وبمنظومة من الفضائل الكريمة التي اختص بها الامام علي عليه السلام، ولكن هذه المصادر تلغي الصفة الإعجازية للبردة، وتثبت أن علياً تعرض للقف بالحجارة وأنه كان يتلو من الألم، ومن الواضح أن الحالة الأولى تريد تجريد علي من فضيلة التحمل فيما الثانية تهتف العكس، وتشير بعض المصادر إلى أن أشرف قريش هاجموا البيت فعلاً، فلما فاجأهم علي قاومهم بالسيف^(٤) ومنها ما لا يشير إلى شيء من

(١) البحار ١٩ نقلا عن الخصال.

(٢) نفس المصدر ١٩، ٤٩ ح ٩ نقلا عن قصص الانبياء وتفسير علي ابن إبراهيم.

(٣) نفس المصدر ١٩ ص ٥٩ عن أمالي الشيخ الطوسي.

(٤) نفس المصدر ١٩ ص ٤٦ نقلا عن أمالي الطوسي.

هذا القبيل (. . . فلما أيقظوه - أي أيقظ المتآمرون عليا - فأواه علياً تركوه . . .)^(١) وتعرض لنا هذه المصادر أكثر من صورة لعلاقة أبي بكر بالرسول في هذه اللحظة : -

الصورة الأولى

أن رسول الله إلتقى أبا بكر في الطريق فأخذه معه إلى الغار مباشرة (. . . وكان أبو بكر استقبل رسول الله ﷺ فردّه معه)^(٢) .

الصورة الثانية

جاء في البحار (. . . ثم ضمّه النبي - علياً - إلى صدره وبكى إليه وجداً به ، وبكى عليّ ﷺ جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستتبع رسول الله ﷺ أبا بكر بن أبي قحافة وهند بن أبي هالة ، فأمرهما أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار ، ولبث رسول الله ﷺ بمكانه مع علي ﷺ يوصيه ويأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين . . .)^(٣) وتفيد الرواية أن النبي تجاوز المتآمرين ، ومرّ على المكان الموعود فاصطحب الاثنین إلى الغار ، وهناك صرف هند إلى مكة ، مكلفاً أياه بعض المهمّات ، وهند هذا لم يرد في كتب السيرة المعروفة ويذكر عادة أريط بن عبید الله ، والرواية غامضة في بيان تضاعيف الحدث الذي نحن في صده ، إلا أنها تكشف عن لقاء بين رسول الله ﷺ وأبي بكر وهند قبل توجهه إلى الغار ، وأنه إتفق معهما

(١) نفس المصدر ١٩ ص ٥٥ .

(٢) نفس المصدر ١٩ ص ٥١ نقلا عن الخصال .

(٣) البحار نقلا عن امالي الشيخ الطوسي .

على مكان محدّد بالاسم، ولكن أين حصل هذا اللقاء ومتى وكيف،
الخبر يسكت عن هذه التفاصيل، الأمر الذي يزيد من غموض الصورة
وإبهام الموقف، ويعقّد الوسيلة إلى تكوين فكرة واضحة عن الموضوع.

الصورة الثالثة

إنّ أبا بكر رضي الله عنه كان قد وقف على مؤامرة قريش، وكان
يتحسّس الأمر حول بيت الرسول الكريم، فلمّا خرج النبي إلتقاه (. . .)
وفتح رسول الله ﷺ الباب وخرج عليهم جميعاً وهم جلوس ينتظرون
الفجر . . . ومضى وهم لا يرونه، فرأى أبا بكر قد خرج في الليل
يتجسّس خبره، وقد كان وقف على تدبير قريش من جهتهم فأخرجه معه
إلى الغار^(١)، والرواية تحمل طعناً خفياً بابي بكر، وربما تفيد بأن
النبي أخذ أبا بكر معه احتياطاً من الغدر به، فإنّ الرواية تفيد إطلاع أبي
بكر الشخصي على المؤامرة من طرف خفي دقيق، أو تفيد بأنه يعلم
بها.

الصورة الرابعة

يذكرها صاحب (إقبال الأعمال) موافقاً ما جاء في الطبري
ومستدرك الحاكم وتذكرة الخواص، ومن أنّ أبا بكر كان جاهلاً بتوجه
النبي الكريم، وإنّه جاء عليّاً فسأله عن الرسول فأخبره بذلك، فتبعه
حتى لحق به في الطريق إلى الغار^(٢) وقد ورد في تفسير العياشي مثله^(٣)

(١) البحار ١٩ ص ٧٣ نقلاً عن الخرائج.

(٢) نفسه ص ١٩ نقلاً عن إقبال الاعمال.

(٣) نفسه عن العياشي ١٩ / ٧٩.

وهي رواية تقلل من أهمية أبي بكر في عملية الهجرة، وتقلص من حجم وأهمية الصحبة، بل إنّ أبا بكر لم يحظ بحظ الصحبة في الغار لولا علي! وذلك في التحليل الأخير لجوهر الرواية.

تحدّث هذه المصادر عن موضوع الراحلتين بصيغ متعدّدة أيضا، منها، أنّ الرسول وأبا بكر قابلا للدليل بعد خروجهما من الغار، فقال له النبي (. . .) يابن أريقط أتمنك على دمي، فقال : إذا والله لأحرسك واحفظك، ولا أدل عليك، فأين تريد يا محمّد؟ قال : يثرب، قال «لأسلكنّ بك مسلكا لا يهتدي فيها أحد، فقال له رسول الله ﷺ أئت عليّا وبشره بأن الله قد أذن لي بالهجرة، فهيئ له زاداً وراحلة، وقال له أبو بكر : أئت بأسماء ابنتي وقل لها تهیی لي زاداً وراحلتين، واعلم عامر بن فهيرة أمرنا . . . وقل له أئتنا بالزاد والراحلتين، فجاء ابن أريقط إلى علي وأخبره بذلك، فبعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بزاد وراحلة، وبعث ابن فهيرة بزاد وراحلتين . . .»^(١) والنص واضح الاضطراب والتشتت، وقد أورداه بلا سند، ولكن من الواضح أيضا أن عليّا تجاهل هنا أبا بكر، فإنّه لم يبعث سوى راحلة واحدة، بل النص يوحي بأنّ النبي كان يريد إبعاد أبي بكر من الصحبة، ولكن الأخير كان قد تدارك الأمر بطلبه من أريقط بوصيته إلى عامر بن فهيرة، وبذلك يكون النص عبارة عن مرآة للصراع الدائر بين إتجاهين، كل منهما يمثل مصالح طرف معيّن! وقراءة التاريخ في هذه الحالة صعبة المراس، ومن الصعب الخروج

(١) البحار ١٩ ص ٧٠ نقلا عن إعلام الوری وقصص الانبياء.

بنتيجة طيبة سوى توكيد حالة الصراع. ومن غرائب هذا النص أن عملية التهيئة هذه تارة كانت في طريق الرسول إلى الغار، ومرة بعد خروجه من الغار^(١)، ومنها ما ينقله الشيخ الطوسي في أماليه (... فأذكت قريش عليه العيون وركبت في طلبه الصعاب والذلول، وأمهل علي حتى إذا أعتم الليل من الليلة القابلة، أنطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله ﷺ في الغار، فأمر رسول الله ﷺ هندا أن يتناح له ولصاحبه بعيرين، فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب، فقال إنني لا آخذهما أو أحدهما إلا بالثمن، قال: فهي بذلك، فأمر عليًا فأقبضه الثمن^(٢) ونفهم من هذا النص أن عملية التدبير تمت بعد خروج علي من مكة وأثناء المكوث في الغار، وإن عليًا كان يعرف بمكان رسول الله وصاحبه، ويمضي الخبر إجمالاً إعداد أبي بكر للراحتين من قبل، وأنه كان يعلم بموضوع الهجرة، ولكن في الخبر غمز بأبي بكر، وذلك لما رفض الرسول قبول الراحلة إلا بثمن، وتزداد كثافة الغمز بأن يكون علي هو الذي ينقده ثمن الراحلة!

لا تتعرض هذه المصادر إلى مجريات الحادثة بين بيت النبي والغار، وإشارتها إلى نسج العنكبوت والحماطين والشجرة يكاد أن يكون لمما، وأشارت إلى هوية المتآمرين الذين حاصروا بيت الرسول الكريم، وتذكر منهم خالد بن الوليد^(٣) ولا تشير المصادر كما هي لدي

(١) البحار ١٩ ص ٧٠ الهامش، كذلك ص ٧٠.

(٢) نفس المصدر ٩ / ٦٨ ح ١٨ نقلا عن أمالي الشيخ.

(٣) البحار ١٩ ص ٦٢ ح ١٨ نقلا عن أمالي الشيخ.

إلى دور أسماء أو عبد الله بن أبي بكر، ولا تشير إلى زيارة النبي بيت أبي بكر في النهار الذي يلي ليلة التصميم على الهجرة.

قصة العنكبوت والحمامتين والشجرة

من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على غار ثور ما جاء في مسند أحمد [قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر، أخبرنا عثمان الجزري، أن مقسما مولى ابن عباس في قوله تعالى (وإذ يمكر الذين كفروا ليشبثوك) قال تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم : إذا أصبح الصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، قال بعضهم : بل أقتلوه، قال بعضهم بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك، فبات علي على فراش النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا عليًا ردّ الله مكرهم، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدري، فأقتفوا أثره، فلما بلغوا الجبل أختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا : لو دخل هنا أحد لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال^(١).

قال ابن كثير (. . . وهو أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله صلى الله عليه وسلم)^(٢).

(١) صحيح مسلم.

(٢) سيرة ابن كثير ٣ / ٢٣٩.

في سند الرواية (مقسم) الذي يُقال أنه مولى ابن عباس للزومه إياه. وقد جاء في حقه في طبقات ابن سعد أنه كثير الحديث ضعيفاً، وعن الساجي أن الناس تكلموا في بعض روايته، وذكره البخاري في الضعفاء، وأما ابن حزم فقد قال فيه ليس بالقوى^(١).

لقد روى قصّة النسيج هذه بسند آخر وبزيادة في المعاني والوقائع وقد أخرجها كل من أبي نعيم في دلائل النبوة، والنويري في نهاية الأرب، وابن كثير في السيرة، وابن عساكر في تاريخه، وابن سعد في طبقاته، وكلهم عن الراوية (أبي مصعب المكي).

قال البيهقي (. . . حدّثنا عون بن عمرو القيسي قال : سمعتُ أبا مصعب المكي قال : أدركت أنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يقولون : في ليلة الغار أمر الله بشجرة فنبتت في وجه النبي فسترته، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا في فم الغار، وأقبل فتیان قريش من كل بطن رجل، بعصيههم وهرواتهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم بقدر أربعين ذراعاً، فجعل رجل منهم ينظر في الغار فرأى حمامتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه فقالوا له : مالك لم تنظر في الغار؟ فقال : رأيت حمامتين بفم الغار، فعلمت ليس فيه أحد، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم ما قال، فعرف أنّ الله عزّ وجل قد درأ بهما، فدعاهنّ النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٨٨ رقم ٥٠٧.

فسمت (بارك) عليهنّ وفرض جزاءهنّ، وإنحدرن في الحرم^(١).

فمن هو (أبو مصعب المكي)؟

قال في لسان الميزان (.. . وأبو مصعب لا يُعرف)^(٢)، وقد أورد تضعيفه هذا في سياق حديث الغار^(٣)، هذا فضلاً عن أنّ عون بن عمرو أو عوين في مصادر أخرى هو الآخر محل كلام، فقد قال عنه يحيى بن معين لا شيء، وقيّمه البخاري قائلاً: منكر الحديث^(٤).

هناك زيادات في روايات آخرين من المستحسن الإشارة إليها، ففي سيرة ابن كثير (.. . فعرف الله قدراً عنهما بهما، فسمت عليهما، أي بارك عليهما، وأحدرهما إلى الحرم، فأفرخا كما ترى.. .)، والزيادة تخصّ الحمامتين، ويعلّق ابن كثير قائلاً (وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه، قد رواه الحافظ أبو نعيم من حديث مسلم بن إبراهيم وغيره من عون بن عمرو، وهو الملقب بعوين بإسناده مثله، وفيه: إن جميع حمام مكّة من نسل تينك الحمامتين)^(٥).

كانت موضوعة نسج العنكبوت في رواية أحمد، أمّا في الرواية الجديدة فإننا نلتقي بزيادات مهمّة، فبالإضافة إلى هذا الحدث، هناك الحمامتان الوحشيتان، ثم الشجرة، والحمامتان في رواية البيهقي

(١) البيهقي ٢ / ٤٨٢، سيرة ابن كثير ٢ / ٢٤١، تاريخ الذهبي ٢ / ٣٢٣، دلائل النبوة لابن ميثم، الطبقات ١ / ٢٢٨.

(٢) لسان الميزان ٤ / ٣٨٨ رقم ١١٧٤.

(٣) نفس المصدر ٤ / ١٠٦.

(٤) لسان الميزان ٤ / ٣٨٨.

(٥) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٤١.

إنحدرتا إلى الحرم، فيما في رواية أبي نعيم وأفرختا فيه أيضا، بل وجميع حمائم مكة منهما! والشجرة هي الأخرى خضعت لحركة الإستزادة من الإضافات، إذ لم تعد مجهولة الحقيقة والهوية، ففي رواية أن هذه الشجرة (الراء) وهي معروفة، لها خيطان وزهر أبيض كالريش، مثل قامة الإنسان طولاً^(١). هذه هي عمدة الروايات في قصة العنكبوت والغريب أن السيرة الهشامية لم تروها.

وفي الحقيقة أن مثل هذا الحدث ليس بالبسيط والعادي، ولذلك يمكن للمرء أن يسجل إستغرابه إذا لم يروه كبار الرواة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاصة وأنه يحمل كرامة للرسول وصاحبه أبي بكر، والرواة حريصون على مثل هذه الظواهر ذات الطابع الإعجازي الغيبي، وهذا الحرص يبلغ أشده إذا إتصل بصاحب الرسالة أو أحد الخلفاء الراشدين، وعلى الأخص الشيخين الجليلين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

تجاذبت قصة النسج هذه حظها من التصوير القائم على المبالغة والتهويل لحالات تتصل بعوالم الغيب المستور والأحداث الخارقة، فقالوا: نسج العنكبوت على غار النبي صلى الله عليه وسلم وعلى غار عبد الله بن أنس لما بعثه النبي لخالد الذهلي، فقتله وحمل رأسه ودخل به في غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن الحسين عليه السلام لما ضُلب عرياناً، وأنها نسجت مرتين على دواد حين كان جالوت يطلبه^(٢)،

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢ / ٤٨٢.

(٢) المستطرف من كل فن مستطرف ٢ / ٢٥٩.

وتجاذب العنكبوت نفسها مزيداً من مستحقات الأثر والمأثور، فقد قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل العنكبوت وقال إنها جند الله^(١)، وإن رسول الله كان يقول جزى الله العنكبوت خيراً، لأنها نسجت عليه فأنقذته من أعدائه، ولكن يروى عن علي أنه قال (طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيت يورث الفقر)^(٢)، فيما كان أبو بكر يحب العنكبوت منذ أن نسج عليه مع النبي في الغار^(٣)، وفي مراسيل أبي داود عن يزيد بن يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن العنكبوت شيطان فأقتلوه)^(٤)، ويستطيع الناقد أن يستشم الأغراض والغايات السياسية التي تكمن وراء هذه المأثورات، فإنها ذات طابع سياسي وقبلي دعائي واضح.

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٣٨.

(٢) الحيوان للدميري ٢ / ٩٠.

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٣٨.

(٤) الحيوان للدميري ٢ / ٩٠. السيرة الحلبية ٢ / ٣٨.

محمد ﷺ ويهود قريظة / دقة القراءة

لا بد من بداية!

لا توجد بداية صريحة، ولا توجد بداية خالصة، خاصة على صعيد الحدث التاريخي، وقد أبدع أيما إبداع المفكر الفلسطيني أدوارد سعيد في تجلية هذه الفكرة. ولكن كل ذلك لا يمنع من بداية ما، بداية هادية في حدود ما، ليست خالصة، ليست حدية بشكل فاصل، ولكن بداية قد تتيح لنا أن نتسلسل في عرض الحدث بطريقة هادية، تحمل بعض صفات الموضوعية والمنطق.

فمن أين نبدأ ونحن نريد أن نعالج قضية العلاقة بين محمد ﷺ وبين يهود قريظة التي أنتهت بـ (غزوهم) وما ترتب على ذلك من نتائج؟

أين هي البداية؟

أعتقد أن بداية المشكلة تبدأ من لحظة وصول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، حيث هناك كتب وثيقة العهد، وهي

وثيقة توافقية بين القوى الفاعلة في المدينة، ومنهم اليهود بفرقهم
 الثلاث (بنو قينقاع، بنو النضير، بنو قريضة...)، وتنص هذه الوثيقة
 على موادة اليهود على أن لا (يحاربوه، ولا يظاهروا عليه أحد، ولا
 يوالوا عليه أعداءه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم،
 وأموالهم...)^(١)، وسيكون من المستحسن أن ندرج بعض فقرات هذه
 الوثيقة فيما نحن في صدد، حيث جاء فيها (... وأنه من تبعنا من
 يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم...
 وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين... لليهود دينهم،
 وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم... وإن على
 اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب
 أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم...
 وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة
 مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة...)^(٢).

فهي وثيقة توافق، عهد على السلام، والتواصل من أجل بر
 المدينة، وحمايتها من الغزو الخارجي، وعهد يحفظ المدينة بالتعاون
 والتفاهم...

وقد كان اليهود على العموم فريقين، منهم بنو قينقاع، حلفاء
 الخزرج، ومنهم بنو النضير وقريضة وهم حلفاء الأوس، وقد شهدت
 المدينة معارك بين اليهود تبعاً للمعارك بين القبيلتين المذكورتين، سالت

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٦.

(٢) السيرة ج ٢ ص ١٤٨ - ١٥١.

فيها دماء غزيرة^(١) ولكن رغم هذه الوثيقة الصريحة لم تكن العلاقة بين محمد ﷺ وبين يهود المدينة سالكة. ومن مراجعة موقف اليهود من الدين الجديد نستطيع أن نلتقط المشاهد التالية : -

الأول : هو التشكيك العقيدي بالدين الجديد، سواء فيما بينهم، أو لدى المشركين أو لدى المسلمين، وقد سجل القرآن الكريم بعض هذه المشاهد.

الثاني : تحفيز قريش للقيام بعمل حربي حاسم ضد الرسول، وكانت معركة الخندق مثلاً صارخاً في هذا المجال.

الثالث : إثارة الفتن داخل الصف المسلم، الجسم المسلم، ومن أمثلته إثارة الفتن بين الأوس والخزرج التي وصلت مرة إلى حد الحرب المستطيرة الشرر لولا تدخل الرسول الكريم.

وكان موقف محمد ﷺ هو موقف الحوار الفكري عبر آيات القرآن الكريم، حيث أدان بني إسرائيل عقيدة وتاريخاً وسلوكاً، ولكن هنا أسجل نقطة مهمة، بل في غاية الأهمية... ذلك أن الإدانات القرآنية لبني إسرائيل بعد قراءة دقيقة تكشف عن أنها ليست لكل اليهود، بل بحق طبقة معينة، هي طبقة علمائهم، وبالذات من وصل إلى الحقيقة ولكن أخفاها، وسوف أخصص في موقع إيلاف يوماً لأجلاء هذه الحقيقة المهمة.

فلم تكن العلاقة بين اليهود والنبي علاقة ود، أو علاقة صفاء رغم عهد الصحيفة، بل وصل الأمر إلى غاية في الخطورة لَمَّا نكث اليهود

(١) المصدر ص ١٨٨.

بنود الصلح، فكانت القطيعة، ويلخص لنا ابن القيم الجوزية المسألة بعرض جميل مشوق، فيقول (فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فحاربتهم بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر، وشرقوا بوقعة بدر... ثم نقض العهد بنو النضير... وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر... وأما بنو قريظة، فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأغلظهم كفرا...^(١)، حيث كانوا قد جمعوا الأحزاب وقريش لقتال النبي، وكانت معركة الخندق...، وكل ذلك أدى إلى صدام النبي باليهود، بطوائفهم الثلاث، وكان نتيجة بني قينقاع بعد الصدام، أن أمرهم النبي بالخروج من المدينة، فخرجوا إلى (أذرع) من أرض الشام، حيث كانت دارهم في طرف المدينة. وبالنسبة لبني النضير فقد أجلاهم النبي أيضا، ولهم أن يحملوا كل شيء ما عدا السلاح، وكانت قصتهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة. أما قريظة فقد غزاهم النبي في سنة خمس للهجرة - وفي هذه الصيغة من البيان نظر كما سنبينه في وقته - حيث وقع فيهم قتل ودماء.

هذه هي بداية المشكلة بين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين بني قريظة، وهي جزء من قضية أكبر، تلك هي مواقف اليهود بشكل عام من النبي الجديد، ومن الدين الجديد، وتتنصب مسألة نقض العهد في صلب القضية كما سنرى أكثر في السطور التالية.

(١) المصدر ص ١٢٧ - ١٢٩.

مصادر القراءة

المصدر الرئيسي لقصة الرسول الكريم مع يهود قريظة هي سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨، التي هي بالأساس سيرة محمد بن إسحق المدني المتولد في المدينة سنة ٨٥، والمتوفى نحو ١٥٢، جده من سبي عين تمر، وسيرته هي التي كتب لها الذيوع والانتشار، وقد ألفها بن اسحق في أوائل العصر العباسي، بطلب من المنصور رغبة منه في تعليم ابنه المهدي تاريخ البشر، منذ أن خلق الله آدم، وقد طلب منه أن يختصرها بعد أن شق عليه طولها وضخامتها، وقد استقرت هذه السيرة لدى بن هشام، فاختصرها، وهذبها، وأضاف إليها... وربما يعتبر بعضهم هذا العمل إيجابياً من قبل ابن هشام، فيما هو في تصوري خطأ كبير، كان من الأجدر به أن يحتفظ بالنص كما هو، ثم يعمل عملاً آخر، بموازاة السيرة الأصلية، فهو بهذه الطريقة فوت علينا علماً كثيراً، تماماً، كما هو خطأ عثمان بن عفان لما استغنى عن كل المصاحف واكتفى برسم واحد. وبصرف النظر عن قيمة ابن اسحق الرجالية، إلا أنّ هناك خلافاً فيه، فإن روايته لا تخرج بطبيعة الحال عن كونها رواية شفوية، ثم دوت، أي دون ما سمعه، ولم يرجع إلى نص مكتوب، والرواية (الشفاهية) تعرضت اليوم لنقد حاد، كشف الكثير عن مشاكلها الدقيقة. فإذا كانت الذاكرة الكتابية يمكنها الرجوع إلى (المكتوب) كي تتأكد من سلامة حفظها، أي هناك إحالة مادية مبصرة فإن الذاكرة (الشفاهية) لا تملك مثل هذه الإحالة المرئية المثبتة. ولقد ثبت أن الذاكرة تعمل انتقائياً، وعند استرجاعها لمخزونها من التاريخ

والمعلومات تتأثر بالواقع الذي يكتنفها في الحال، فهناك ثمة تفاعل بين التذكر الشفاهي والواقع الحي. ومن الطبيعي أن يخضع الحفظ الشفهي حرفيا كان أم غير حرفي للتغيير نتيجة للضغوط الاجتماعية المباشرة. وذلك بصرف النظر عن السند، وعن المتن... من هنا ينبغي أن نحذر من الاعتماد الكلي على الذاكرة (الشفاهية) في تقرير التاريخ وكتابة التاريخ.

رواية ابن هشام هي العمدة في حرب بني قريظة - بل في كل سيرة المصطفى ﷺ - نقلها عنه الطبري، وابن كثير، وغيرهما من المؤرخين الكبار. على أن هناك مصدراً آخر، ذلك هو مغازي (الواقدي)، لصاحبه مولى ابن سهم، محمد بن عمر بن واقد، المولود في المدينة سنة ١٣٠، والمتوفى سنة ٢٠٧، والرجل متهم بمدى واسع من النقد والتجريح، ويستغرب الكثيرون عدم رواية الواقدي عن ابن اسحق، حيث يعلل بعضهم أن ذلك قد يرجع إلى كون أهل المدينة كانوا يشككون بنزاهة بن اسحق، وعلى رأسهم الإمام مالك، فيما يتهم علماء مستشرقون الواقدي بأنه سرق من السيرة الهشامية، نتيجة لتطابق النصوص بين السيرتين إلى حد كبير. وفي الحقيقة أن قراءة متأنية لمغازي الواقدي تكشف عن حس تأريخي أنيق، فهو يتدرج بالحدث زمنيا، بل يحرص على التتابع المنطقي للحدث، ويشفعه بمعلومات جغرافية، وبيئية، وقبلية... ومن الملاحظ حقا، أن الطبري ينقل عنه المغازي مباشرة، فيما كان يحرص على نقل أخبار الجاهلية عنه أيضا، ولكن بواسطة تلميذه ابن سعد، وسر هذا التباين يكمن في ثقة الطبري

بالواقدي في هذه المادة خصيصاً، أي المغازي. وقد نسبه بعضهم إلى الشيع ولکن لم یصح ذلك لدى الكثير من العلماء.

إن حسن الكتاب، وتسلسله، ودقته في العرض... كل ذلك لا يكفي اعتماده مطلقاً، بل لابد من نقد السند ونقد المتن، وقراءة الظروف التي تحيط بالحدث، ومجرياته، ولابد من مقارنة ما جاء في رواية الواقدي بغيره من الروايات، خاصة السيرة الهشامية، وطبقات بن سعد، فإن ابن سعد هو تلميذ الواقدي الوفي.

ويأتي كتاب الطبقات لابن سعد مصدراً مهماً في السيرة النبوية، خاصة الجزئين الأوليين، فقد خصصهما الرجل لهذا الغرض بالذات، وابن سعد من تلاميذ الواقدي صرفاً، فقد أفاد من (المغازي) حتى يمكن القول أنه ابن سعد قد ضمّن كتابه (الطبقات) كتاب أستاذه! ورغم ما حصل عليه ابن سعد من توثيق ومدح معتد به من قبل علماء الرجال، إلا أن يحيى بن معين ضعفه، وآخرون. على أن عيباً كبيراً يسجله الناقدون على ابن سعد، وأستاذه الواقدي، ذلك أنهما يجمعان أسانيد كثيرة لمتن واحد، وإدخال روايات الرجال بعضها ببعض، وهذا يخل بموضوعية الرواية شئنا أم أبينا.

إن مطالعة المغازي لا تغني عن مطالعة كتب التاريخ المعتمدة، كتاريخ الطبري والمسعودي واليعقوبي وغيرها، كذلك ما ورد من خبر في كتب الحديث والسنة. ولا يكفي نقد السند والم متن، بل ينبغي القيام بجهد جبار، يشكل نقد السند والم متن أحدها، كما سنرى في هذا البحث.

دقة القراءة

اللغة تشكل عقل الرواية، روحها، باطنها، هناك تختفي أشياء كثيرة، تختفي ثقافات وذكريات، تختفي مطاعم ومطامح، وعليه، يجب تفتيت اللغة بدقة، وسوف نرى أن خلافا يبدو بسيطا بين كلمة وأخرى من رواية لأخرى، ولكن بعد قراءته بدقة يكشف لنا عن أسرار مهمة، وغايات ليست بريئة. كما أن الاختيار العشوائي أو الاختيار السائد مجتمعا، الطاعني عرفيا لهذه الكلمة أو تلك قد توقع في لبس تاريخي خطير...

إن مفردة (غزو...) قد تفيد قصد الحرب ابتداء، هذا ما يرد على الخاطر عندما نقرأ مثلا (غزوات النبي / غزوة بني قريظة) حيث يسند الفعل ضمنا، أو سياقاً، أو عنواناً إلى الرسول الكريم، فيما ليس الأمر كذلك بالضرورة، فقد تكون الغزوة رداً على غزوة، قد لا تكون ابتدائية، وفي هذا يقع لغط كثير.

لقد سميت الحرب بين محمد وبين ويهود بني قريظة بـ (غزوة بني قريظة)! حيث صُنِّفت تحت (غزوات النبي)، ويستفيد كثير من الناس لعدم وعيهم اللغوي، وبسبب تطورات المعنى بمرور الزمن، وربما لغاية في نفس يعقوب... يستفيد من الصياغة الأخيرة، أي صيغة (غزوات النبي)، أن محمداً ﷺ كان هو البادئ بهذه الغزوات، لأنها مضافة إليه، فيما لم يكن محمد يبدأ الحرب، بل كان يرد عليها! والتحليل البسيط لغزوة بني قريظة يفيد أن محمداً لم يبدأ حربهم، بل هم الذين بدأوا، وهم الذين شرّعوا لأصل الغزوة! فمن المعروف أن

النبي قرر غزوهم بعد أن ثبت له أنهم وراء حرب الخندق، أو الأحزاب، وقد جاء ذلك بعد عهد المدينة، الذي تصالحا بموجبه، وقررا الدفاع سوية عن المدينة تجاه أي اعتداء، فهم من هذه الناحية يكونون قد ارتكبوا مخالفتين ابتداء! مرة التخطيط للحرب، ومرة خيانة العهد!. وكانت حرب الخندق من أشد الحروب التي هدت محمدا وأصحابه، فقد اجتمعت فيها (قريش) و(تهامة) و(كنانة) و(غطفان) و(نجد) في عشرة آلاف مقاتل، كانوا قد أعدوا كامل العدة للقضاء على محمد بضربة قاضية... نعم، كان قتلى الطرفين على عدد الأصابع، ولكن لو تم لقريش الظفر آنذاك، لكان الإسلام في خيبر كان، ولكن شاء القدر أن يسلم الإسلام ونبيه من هذه الحرب التي حشدت لها قريش بفضل وتخطيط بني قريظة فرسان العرب، وأبطالهم. ولي كلام طويل حول قصة الخندق، سوف أتناوله يوما من الأيام إن شاء الله تعالى. فغزوة بني قريظة هي نقض عهد بمن نقضه، وليس حربا من الرسول على نحو الابتداء. فإن رسول الله لم يوقت عهده مع يهود المدينة، بل أطلقه ما دام الآخر ملتزم به، غير محارب، ولا ناكث.

نقرأ في السيرة مثلا أن سعد بن معاذ حكم في أسرى قريظة [أن تُقتلَ (الرجال) وتقسّم الأموال...]^(١)، ولكن نقرأ نصا آخر ورد في البخاري ينص [تُقتل (المقاتلة) وأن تسبى النساء والذرية]^(٢) وقد يتصور البعض أن لا خلاف بين النصين! فيما هناك خلاف كبير، فإن النص

(١) السيرة ٣ ص ٢٥١.

(٢) البخاري غزوة الاحزاب ح ٤١٢٢.

الأول يفيد حكم سعد بقتل كل رجال بني قريضة الذين وقعوا في الأسر، فيما يفيد خبر البخاري أن القتل جزاء (المقاتلة) فقط، أي الذين قاتلوا فعلا. من هنا نذكر على أهمية دقة القراءة، وما أكثر الذين يغفلون هذه النقطة المهمة الحساسة عند الكتابة.

ولم تقتصر دقة القراءة على النظر داخل النصوص والمقارنة بينها، فنحن نعلم أن الشافعي مثلاً إنما خص نقض العهد بمن نقضه فعلاً، ولا يسري ذلك إلى من لم ينقضه، وإن كان ضمن جماعة ناكثة، وهذا الموقف من الشافعي إذا كان له سند من رواية أو سيرة أو آية يجعلنا نشك برواية ابن اسحق التي يقول بها (أن تُقتل الرجال) ويجعلنا نرجح الرواية التي يرويها البخاري والتي فيها يقول (أن تقتل المقاتلة).

إن دقة القراءة تتعدى لآفاق مهمة، فإن النظر إلى موقف النبي الكريم من يهود قريظة هنا يجب أن ندرسه ليس في ضوء نقضهم العهد وحسب، وليس في ضوء تجييشهم قريش وغيرها على النبي والإسلام، بل على ضوء مقتربات أخرى لا تقل أهمية عما سبق، من ذلك خطورة الحرب، وما يمكن أن تؤول إليه من نتائج لصالح العدو، حيثُ باتفاق الآراء إن حرب الخندق كانت حرباً مخيفة في شكلها، في الإعداد لها، في ما ألقته في روع المسلمين، وقد كانت أشبه بالمصيرية بالنسبة للطرفين كما تفيد الأخبار، وبالتالي، يجب أن نقيس موقف المسلمين من صنّاع هذه الحرب في ضوء هذا المقرب المهم، ذلك نحن نتعامل مع حقائق بشرية، وليس مع حقائق ملكوتية.

وتتطلب القراءة الدقيقة النظر الواعي في الاختلافات ذات المسافة

البعيدة، فنحن نقرأ في سيرة بن هشام مثلاً أن النبي حاصر قريظة (خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار...) (١)، فيما نقرأ مثلاً في طبقات ابن سعد أن مدة الحصار كانت خمس عشر ليلة في رواية، وفي رواية لابن سعد أربع عشر ليلة، وفي مغازي الواقدي خمس عشر يوماً (٢)، وفي رواية بضع عشرة!

هل نمضي دون سبر حقيقة هذا الاختلاف؟ هل نمضي دون سبر سند كل رواية من هذه الروايات؟ لا بطبيعة الحال، فقد تكشف بعض الخفايا المهمة في تضخيم العدد أو في تنقيصه، وهو الأمر الذي يصادفنا أيضاً في خصوص عدد من ضربت أعناقهم من بني قريظة، فالمكثر يقول بين الثمان مئة والتسع مئة، والمقل يقول بين ستة مئة أو سبع مئة (٣).

سردية ابن هشام

يبدأ ابن هشام القصة بقوله (فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثني الزهري، معتجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، وعليها قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبرائيل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمشير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم، فمزلزل

(١) المصدر ص ٢٤٦.

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ٤٩٦.

(٣) المصدر ص ٢٥٢.

بهم...)). . . ويستمر بالسردية على شكل حكاية متسلسلة، يقطعها بين الحين والآخر بخبر عن شخص أو حدث له علاقة بالغزوة بشكل وآخر. . .

الزهري كما نعلم تابعي مكّي، فالسردية هنا من بدايتها مرسلّة. . . وتستمر السردية الشفاهية فتحدثنا عن (دحية بن خليفة الكلبي) الذي تمثله جبرائيل عليه السلام تنفيذًا للوعد الذي قطعه جبرائيل في البداية للنبي بأنه مزلزل الأرض بقریظة تشجيعًا له على قتالهم.

تمضي السردية الهشامية لتقص علينا بأن يهود قريظة بعثوا على رسول الله بأن يرسل لهم أبا لبابة^(١) ليستشيره في أمرهم، فأرسله لهم، فاستشاروه أن ينزلوا على حكم محمد، فكان جوابه أن : (قال : نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح . . .) فكأن أبا لبابة أشار إليهم أن لا ينزلوا على حكم الرسول الكريم. ثم نلتقي بكسرٍ حادٍ في السردية، حيث تحكي لنا ندم أبي لبابة واعتزاله ومن ثم توبته، ويستمر الكسر في داخل السرد ليتصل بأوله من جديد، حيث تقول السردية (. . . قال : فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس، فقالوا يا رسول الله، إنهم موالينا - لقد كانت قريظة حليفة الأوس، وبنو قينقاع والنضير حلفاء الخزرج - دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس، ما قد عملت - وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، وكانوا

(١) وهو : أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري المدني، واختلف في اسمه، فقيل رفاعه، وقيل مبشر، وقيل بشير، وهو أحد النقباء، عاش إلى خلافة علي.

حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي سلول فوهبهم له - فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ ...) وتستمر السردية لتقول لنا تم الاتفاق بين الرسول الكريم والأوس، على أن يحكم فيهم سعد بن معاذ الذي جرح في معركة الخندق. وتقول السردية إن يهود بني قريظة أقدموا مع سعد إلى رسول الله وهم يقولون (يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاءك ذلك لتحسن إليهم، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد...)، وتستمر السردية لتخبرنا أن الجميع إنتهى إلى رسول الله، فقام الأنصار والمهاجرون إلى سعد يقولون له (إن رسول الله قد ولاءك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهده وميثاقه، أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا : نعم... قال : فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبى الذراري والنساء...^(١))، ثم يكسر السارد الحكاية ليروي (حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقاص الليثي، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبعة أرقعة)^(٢) أي السماوات! وقد ضعفه العلماء.

(١) ص ٢٥٠.

(٢) نفس المصدر.

يعود السارد ليحكى لنا (ثم أستنزلوا، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة بني النجار، ثم خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخذق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخرج بهم إرسالا، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب...^(١))، وتستمر السردية بعد إنكسارات حادة لتقول (قال ابن اسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل كل من أنبت منهم...^(٢)) ثم يكسر السرد بالرواية التالية (قال ابن اسحق : وحدثني شعبة بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل من أنبت منهم، وكنت غلاما، فوجدوني لم أنبت، فخلوا سبيلي...^(٣)) ثم يستمر السارد ليحكى عما جرى لنساء بني قريظة فيقول (... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسّم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين...^(٤)).

كل هذا برواية محمد بن اسحق، عن أبيه، وهو اسحق بن يسار، عن معبد بن كعب بن مالك الأنصاري... والرواية مرسلّة، لأن معبد بن كعب تابعي.

رواية ابن اسحق سردية تفصيلية، ليس لنا شغل بمستهلها الذي يتحدث عن هاتف جبرائيل الذي يدعو الرسول ﷺ إلى قتال بني

(١) ص ٢٥٣.

(٢) ص ٢٥٥.

(٣) ص ٢٥٥.

(٤) ص ٢٥٦.

قريظة، فذلك أكان صدقا أم حكاية لا مجال له في التاريخ، لأنه ليس
زمنيا، كما أن قصة تمثل جبرائيل بـ (دحية الكلبي) هي الأخرى لا
تهمنا... .

موقف الطبري من سردية ابن هشام

أورد الطبري سردية ابن اسحق برمتها، تحت عنوان غزوة بني
قريظة، بسند محمد بن إسحق، عن أبيه، عن معبد بن كعب بن مالك
الأنصاري، ثم كسر السرد بروايته عن وكيع قال : (حدثنا محمد بن
بشر، قال : حدثنا محمد بن عمرو، قال : حدثني أبي، عن علقمة،
عن عائشة، قالت (لما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على
سعد قبة في المسجد، ووضع السلاح - يعني رسول الله صلى الله عليه
وسلم - يعني عند منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق
- ووضع المسلمون السلاح، فجاءه جبرائيل عليه السلام، فقال : أوضعتم
السلاح، فوالله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، أخرج إليهم
فقاتلهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلامته فلبسها، ثم خرج
وخرج منه المسلمون، فمر في بني غنم، فقال : من مرّ بكم؟ قالوا :
مر علينا دحية الكلبي، وكان يشبه سنّته ولحيته ووجهه بجبريل عليه السلام -
حتى نزل عليهم وسعد في قبته التي ضرب عليه رسول الله صلى الله
عليه وسلم في المسجد، فحاصرهم شهرا - أو خمسا وعشرين ليلة -
فلما اشتد عليهم الحصار قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فأشار أبو لبابة بن عبد المنذر إنه الذبح، فقالوا : ننزل
على حكم سعد بن معاذ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

انزلوا على حكمه، فنزلوا، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمار بإكاف من ليف، فحمل عليه. قالت عائشة: لقد كان برأ من كلمه حتى يرى منه مثل الخرص^(١) ثم يعود الطبري إلى سردية ابن اسحق ليورد ما تبقى منها كاملة!

ولم يعلق الطبري على سردية ابن اسحق بشي، بل أوردتها بسندها المرسل، وهو يعلم بأنه مرسل، وكسر السرد بروايته المتصلة عن ابن وكيع والتي ينتهي بها إلى عائشة رضي الله عنها.

لم يرد الطبري قول سعد في سردية ابن اسحق (فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال...)، واستبدلها بروايته (قال أبو جعفر: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم...)^(٢)، فلماذا عدل عن رواية ابن اسحق بهذه القطعة المهمة من الرواية؟ فإن (المقاتلة) مصطلح يعني الذين يشاركون في القتال فعلا، والذين يبدأون به، فيما مفردة (الرجال) كلمة عامة!

ابن اسحق ثقة عند الطبري، ولكن ليس بالضرورة إرساله ثقة أيضا لدى هذا المؤرخ الكبير، ومن ثم، إن الطبري قد لا يتعامل مع سيرة ابن هشام بلا نظر، لكونها تعرّضت لاختيار واختصار ابن هشام. وسوف أتناول راويات الطبري عن ابن اسحق في محاولة لاحقة إن شاء الله تعالى.

في مغازي الواقدي

قال الواقدي (... قال إبراهيم بن جعفر، عن أبيه... قال سعد :

(١) الطبري ج ٣ ص ١٨١.

(٢) ص ١٨٥.

فإني أحكم فيهم أن يُقتل من جرت عليه المُوسَى ، وتسبى النساء والذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمتَ بحكم الله عز وجل من فوق سبعة ارقعة . . . ثم غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السوق ، فأمر بخدود فُحِّدَت في السوق . . . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عِلِيَّة أصحابه ، ودعا برجال بني قريضة ، فكانوا يخرجون رسلا رسلا ، تضرب أعناقهم . . . فلم يزالوا يُقتلون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الذي قتلهم علي والزبير . . .^(١) .

هذه الرواية مرسلة!

أورد الطبري في تاريخه (وكان فتح بني قريظة في ذي القعدة أو في صدر ذي الحجة في قول ابن إسحق. وأما الواقدي فإنه قال : غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة لئلا يبقين منه ، وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يشق لبني قريظة في الأرض أخاديد ثم جلس ، فجعل علي والزبير يضربان أعناقهم بين يديه . . .)^(٢) ، فالطبري في هذا النص يصدر خبر الواقدي بموضوع شق الأخاديد والقتل الجماعي بكلمة (زعم) ، وهي لا تفيد اليقين ، بل هو كلام عهدته على راويه. وبهذا يمكن أن نقول بشي من الاطمئنان أن الطبري كان مترددا ، أو متوقفا أمام هذه النقطة ، فهو أورد سردية ابن إسحق دون أن يعلق عليها ، بما في ذلك قضية شق الأخاديد وقتل

(١) ص ٥١١ .

(٢) المصدر ٣ ص ١٩٠ .

الأسراب المزعومة، وهي سرديّة مرسلّة أصلاً كما مر بنا سابقاً، وأورد خبر الواقدي في هذه النقطة مُصدراً بكلمة (زعم...).

في طبقات ابن سعد

(أخبرنا عمرو بن عاصم، أخبرنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال... فنزلوا على حكم سعد بن معاذ من بين الخلق... فحكم فيهم أن يُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم...^(١)) في السند حميد بن هلال، قال القطان كان ابن سيرين لا يرضاه، وفي أحاديث القهقهة من السنن للدارقطني من طريق وهيب عن ابن عون عن ابن سيرين قال: كان أربعة يصدّقون من حدّثهم لا يبالون ممن يسمعون، الحسن وأبو العالية، وحميد بن هلال^(٢)، والرواية مرسلّة.

ابن سعد يقع في تناقض كبير في روايته، ففي هذه الرواية يقول (فحكم أن تقتل مقاتلتهم...) فيما في روايته المرسلّة التي بدأ فيها كلامه عن القضية يقول (... فحكم فيهم - حكم سعد على بني قريظة - أن يُقتل كل من جرت عليهم المواسي، وتُسبى النساء...)^(٣).

في البخاري

في البخاري، باب المغازي نقرأ (حدثني محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن سعيد قال: سمعت أبا إمامة قال سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد، فأتى على حمار،

(١) طبقات ابن سعد ص ٧٧.

(٢) تهذيب التهذيب ج ٣ رقم ٨٧.

(٣) ص ٧٥.

فلما دنا من المسجد قال للانصار : قوموا إلى سيدكم - أو إلى خيركم - فقال : هؤلاء نزلوا على حكمك فقال : تُقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم. قال : قضيت بحكم الله، وربما قال : بحكم الملك^(١).

في البخاري أيضا (. . . عن أبي سهل بن حنيف، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . . . فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم. قال : لقد حكمت فيهم بحكم الملوك^(٢) وللحديث أطراف كلها برواية أبي سعيد الخدري.

وفي صحيح مسلم (. . . تُقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قضيت بحكم الله، وربما قال : قضيت بحكم الملك . . .)^(٣).

وسوف نقوم بعملية تفكيك لروايات البخاري في سطور لاحقة إن شاء الله تعالى.

دقة القراءة مرّة أخرى

والآن، وبعد هذه الجولة من الروايات في كتب السيرة والأحاديث، نسأل وببساطة، من الذي كان مورد الحكم بالقتل في قرار سعد بن معاذ من أسرى بني قريظة؟

المقاتلة؟

أم الرجال؟

(١) البخاري ح ٤١٢١.

(٢) المصدر ح ٣٠٤٣.

(٣) ح ١٧٨٦.

أم من جرت عليه المواسي؟

في كتب السيرة يتراوح القول بين هذه الصور الثلاث، فيما كتاب البخاري ومسلم تشخص الصورة الأولى، أي المقاتلة منهم، وهم الذين يقاتلون فعلا، بدلالة الصرف، من مفاعلة، وهناك من يفسر (المُقاتلة) بعمر معين، ويستند في ذلك إلى حديث نبوي، وهو تفسير غريب، ذلك أن صفة المقاتل لا تتحقق بالسن، وإنما تتحقق في الفعل، أي بتلبس عملية القتال. وأما من جرت عليه المواسي، فهو مشكل جدا، لأن ذات المصطلح عليه خلاف كبير، يتعلق بنوع الشعر وكثافته وغزارته!

وبنو قريظة لم يحنثوا العهد كلاميا، بل حنثوا العهد عمليا، ذلك أنهم جيشوا قريش والأحزاب على المسلمين، وكانت حقا معركة تنذر بخطر جسيم على الإسلام والمسلمين، وأثناء محاصرتهم تراشقوا مع المسلمين بالنبال، وقتلوا من المسلمين، وكان من القتلى (خلاد بن سويد)^(١)، فهم دخلوا في قتال فعلي، لم يستسلموا، وبذلك يسجل القوم سلسلة من المواقف التي تدينهم، وأنا أسجل هذه الملاحظات بصرف النظر عن أي اعتبار ديني أو عقيدي، بل من منطلق الواقع، الواقع الفعلي، لا علاقة لذلك بدين أو حق أو باطل.

ويحدثنا الواقدي أن يهود خيبر كانوا يتحسبون خبر يهود بني قريظة، فلما بلغهم خبر حصارهم قالوا (الشر! قُتِلت مُقاتلة قريظة...)^(٢).

(١) الواقدي ص ٥٢٩.

(٢) المصدر ص ٥٣٠.

ملاحظة مهمة

من الضروري أن أشير هنا إلى ملاحظة مهمة، بل في غاية الأهمية أن ترجيح كون حكم سعد بن معاذ الأوسي، كان (قتل المقاتلة)، وليس الرجال منهم، لا يعني بالضرورة وقوع أصل القتل، فقد تكون عملية القتل سواء على نطاقها المرَّجَح أو على نطاق من جرت عليه المواسي، قد يكون أصل القضية مُخْتَلَق، فلم يحصل قصاص في أي من هؤلاء أو هؤلاء، فإن تفسير نص تاريخي حتى إذا كان مصيباً على درجة كبيرة، لا يعني أن لهذا النص واقعا على سبيل الحتمية.

وليس سرا أن اختلاق أحداث وحوادث كبيرة ضخمة ليس أمرا غريبا في التاريخ، فقد ثبت كذب حرق مكتبة الإسكندرية، وتغيرت كثيراً الأحكام والتصورات التي تحكي عن الحروب الصليبية، وأتذكر أن المؤرخ العربي المشهور الدكتور إحسان عباس كان يقول ما معناه أن جرجي زيدان يختلق تاريخاً خيالياً، أو شي قريب من هذا. ولذلك قد لا أفاجئ القارئ بالقول أن قصة القصاص قد تكون مختلفة برمتها، أو قد تكون مبالغ فيها لحد كبير.

تراجيديا مذهلة

رواية يهود بني قريظة في نصوص السيرة تنطوي على ظاهرة ملفتة للنظر جدا، بل غريبة جدا من نواحي كثيرة، ولكن ترى ما هي الظاهرة بالضبط؟

إنها تراجيديا!

فقد سردت علينا هذه الرواية تراجيديا يهودية متعددة الجوانب،

كلها تدعو إلى الإعجاب والانبهار بيهود بني قريظة، أكثر من خبر،
وبأكثر من صورة، تراجيديا دينية، وطقسية، وبطولية... هل يعقل أن
راوية مسلماً يروي مثل هذا؟

تراجيديا نموذج (١)

جاء في رواية الواقدي أن أحد رجال اليهود (كعب بن أسد) كان
قد دعا يهود قريظة وقد شد عليهم الحصار، وأيقنوا أن الخطر
يдахمهم، دعاهم إلى الإيمان بالنبى، خاصة وأن كتبهم أشارت إليه
ودلت عليه، فيأمنون على دمائهم وأبنائهم ونسائهم وأموالهم، ولكن
يهود بني قريظة أجابوا بكلمة واحدة (... لا نكون تبعاً لغيرنا، نحن
أهل الكتاب والنبوة، ونكون تبعاً لغيرنا؟... لا نفارق التوراة، ولا
ندع ما كنا عليه من أمر موسى...) (١)، والرواية ضعيفة بـ (الضحاك بن
عثمان)، وأصل الرواية في السيرة ولكن هنا زيادة من الضحاك بن
عثمان!

الرواية بلا شك تكشف عن تمسك يهودي صلب بالتوراة، في
وقت صعب، بل تكشف عن عقائدية صلبة، تتحدى الموت، وكان
ذلك بصوت واحد كما يبدو، أي رأي الجميع.

تراجيديا نموذج (٢)

جاء في رواية الواقدي السابقة أيضاً أن (كعب بن أسد) اقترح أن
يستغلوا السبب ويهجموا على النبي محمد والمسلمين بغتة ويقتلونهم،

(١) ص ٥٠١.

ذلك أن النبي ومعه صحبه يكونون في السبت في مأمن من هذا الهجوم يوم السبت باعتباره يوما مقدسا لديهم، ولكن كان الجواب (نفسد سبتنا، وقد عرفت ما أصابنا فيه؟)^(١)، وأصل الرواية في السيرة، وهنا شيء من الزيادة!

الرواية تكشف عن تمسك طقوسي مذهل، حتى على حساب الدم والعمر والحياة! يعني خيانة سبت واحد مستحيل فيه كما تبرز لنا الرواية، حتى وإن كان في ذلك حياتهم، وقد عللوا ذلك بتجربة دينية سابقة! ترى هل كان هناك إخلاص يهودي خالص ليوم السبت، منذ أن شرع لحد هذه اللحظة؟

تراجيديا نموذج (٣)

وهذا (حيي بن أخطب) زعيمهم الذي ورطهم بخرق العهد الذي بينهم وبين النبي يقول لمن يقترح عليهم طرائق الخلاص (... هي ملحمة، وبلاء كتب علينا...)^(٢).

الرواية تكشف عن ارتباط مصيري بين القتل واليهودي، ارتباط قدري، مربوط بالسماء، إنها قضية غيبية لا فكاك منها، تذكرني هذه الرواية بما يروى في حق الحسين عليه السلام، وكيف أن قتله كان قضاء مبرما، ومثل ذلك جاء في رواية أخرى.

تراجيديا نموذج (٤)

وتقول رواية الواقدي أن يهود بني قريظة لما جيء بهم للقتل

(١) نفس المصدر ص ٥٠٣.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(جعلوا ليلتهم يدرسون التوراة، وأمر بعضهم بعضا بالثبات على دينه، ولزوم التوراة...^(١)) الرواية ضعيفة، وهي تكشف عن تراجيديا دينية مذهلة، تمسك، وصلابة، وروح مطمئنة من النجاة في يوم آخر! وهي تذكرنا أيضا بالروايات التي تتحدث عن أصحاب الحسين عليه السلام كيف أنهم كان لهم دوي كدوي النحل في ليلة العاشر من المحرم، وذلك بقراءتهم للقرآن الكريم في تلك الليلة.

تراجيديا نموذج (٥)

ويذكر لنا الواقدي في روايته أنه لما أوتي به (حبي بن أخطب) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (. . . يا أيها الناس، لا بأس بأمر الله، قدر وكتاب، ملحمة كُتبت على بني إسرائيل...^(٢)) والرواية ضعيفة السند، وحبي هذا هو الذي ورط اليهود بنقض العهد، وهو الذي عمل مع قومه على تجميع قريش والأحزاب لغزو المدينة! والرواية تظهر حياً بطلا تراجيديا لا يخاف الموت، وهي تذكرنا ببعض الروايات التي تروى بحق شهيد كربلاء المعلى الإمام الحسين عليه السلام، خاصة تلك الروايات التي تفسر ملحمة كربلاء بأنها ربانية، قدرية، كتبت علي ابن بنت النبي الكريم، ولا مناص منها.

تراجيديا نموذج (٦)

وهذا (الزبير بن باطا القرظي) أحد شيوخ بني قريظة، يفوز بحياته بتوسط أحد المسلمين، ولكن لما يرى أن بعض القريبين منه قد قتلوا

(١) نفس المصدر ص ٥١٣.

(٢) نفس المصدر ص ٥١٤.

يقول لمن فداه واسمه ثابت (. . . أني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر والله قتله دلو ناضح، حتى ألقى الأحبة، فقدمه ثابت، فضرب عنقه^(١)) والرواية كما هو معروف ضعيفة، وهي تكشف عن إخلاص الذات اليهودية، وعمق ارتباطها بقومها.

هذه نماذج من حضور يهود بني قريظة في النصوص التي تعالج ما نحن فيه، ومن الملاحظ بشكل صارخ، وقوي، أن النماذج تحكي بقوة وإشراق عن إخلاص يهود بني قريظة للتوراة، وأن تمسكهم بالتوراة يعادله الاستشهاد، وإن هناك تعاهداً يهودياً / يهودياً، ينم عن تأزر يُضرب به المثل، ولم يهابوا الموت، وأنهم قوم قد ابتلاههم الله، وما عليهم سوى أن يقبلوا هذه البلاء عن طيب خاطر، كما أن هناك إشارة إلى البطولة اليهودية، بطولة في مواجهة السيف، وفي مواجهة القتل، والصبر على القتل في سبيل العقيدة!!

جاءت هذه النماذج تارة في روايات مستقلة، وأخرى في روايات عامة، ولكن نلاحظ أن التراجم تشغل مكاناً مهماً من السردية أو الرواية العامة، يأتي نظمها في منتصف الطريق، وتتجلى في اللحظة التي يصل فيها الحدث إلى الذروة.

هل هي رواية مسلم؟

أنا أشك في ذلك، فإن المسلم كغيره من الناس، لا يكون حيادياً خالصاً في الروي، ليس ذلك طعنا في دينه وصدقه وتقواه، بل هذه

(١) السيرة الهشامية ص ٢٥٤.

طبيعة البشر، من الصعب أن يروي مسلم كل هذه المشاهد، التي تنطوي على مدح راق ليهود بني قريظة بشكل وآخر، هناك مستوى عقائدي راق هنا، قد لا يصله نفس المسلم في بعض الأحيان، ولذا من الصعب أن يكون الراوي المسلم نافذة دعاية ومديح وثناء عقيدي لمن هم يروجون ضد دينه، ويعملون على قتله، وقد خانوا العهد معه، وهيج العرب لطرده من المدينة.

ثم هنا نقطة ثانية، أن بعض النماذج السابقة تظهر لنا يهود بني قريظة وكأنهم مخلوقات عُجِنَتْ بالإيمان عجنا، ليس هناك أجساد بشرية، بل هناك أرواح خالصة، مجبولة على الإيمان بالتوراة من الأزل! هناك مبالغة واضحة على صعيد الصمود والصبر والمواساة العقيدية والدينية!

من كل هذا أعتقد أن هذه النماذج ربما دُست دسًا بالنصوص الأصلية، وتناولها الناس عبر التواصل الشفهي، زادت ونقصت حسب الأهواء والمطامع والغايات، وجاء ابن اسحق وقد جمع بينها وبين روايات الرواة الأصليين للسيرة، خاصة وأن هناك قول بأنه كان يدخل المتون بعضها ببعض! ولا ننسى أن من رواة ابن اسحق في السردية كان بالفعل أحد القرظيين، أقصد محمد بن كعب القرظي!

إنها تراجيديا مصنوعة بدقة، تراجيديا دينية وبطولية وإنسانية، ترغمك على أن تسمها بالسمو، وترغمك أن تمجد وتخلد أهلها في ذهنك وذاكرتك.

ولكن هل هناك ما يكمل هذا التصور؟

الجواب نعم ...

إذن لنمضي في التحري عن الأسرار، أسرار النصوص، فإن ما بين السطور هو النص الحقيقي وليس هذه القشرة الخارجية العادية.

الحضور (القرظي) في السند

رأينا في السطور السابقة أن هناك حضوراً متميزاً ليهود بني قريظة في المتن، في النص من حيث هو مضمون، حضور معنوي راق، يتجاوز الفضيلة الشخصية العادية، ليصب في ضمير جماعة، في بنية عقدية، حتى شكل الحضور تراجيدياً تاريخية عقدية، يمكن أن تكون إحدى مواد الاستشهاد الروحي الغيبي التاريخي... ولكن هذا الحضور لم يقتصر على المضمون، بل هناك حضور آخر إلى جانبه، لقد كان هناك حضور في السند! فإن من رواة الحدث في أوج ذروته المأساوية من بني قريظة!

نقرأ في مغازي الواقدي (حدثني إبراهيم بن ثمامة، عن المسور بن رفاعه، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قُتِلوا إلى أن غاب الشَّفَق، ثم رد عليهم التراب في الخندق، وكان من شُك فيه منهم أن يكون قد بلغ، نُظر إلى مؤنزره، إن كان أنبت قُتل، وإن كان لم ينبت طُرح في السبي)^(١).

الرواية مرسلة، ولكن سندها (قرظي) بنسبة قوية، فإن (المسور بن رفاعه) قرظي، فهو: (المسور بن رفاعه بن أبي مالك القرظي... روى

(١) المصدر ص ٥١٧.

عن عمه ثعلبة بن أبي مالك...^(١)، وأما محمد بن كعب فهو قرظي من ذكر السند كما هو واضح، وأبوه (كعب) من سبي بني قريظة.

لا يهمني هنا عدالة المسور ولا عدالة محمد بن كعب، ولكن الذي أقوله، إن لحن الرواية وهي مرسلة، يكشف عن عرض مأساوي، عن عرض تراجيدي، عرض مشاهدي... مسرحي... تمثيلي... خاصة وهو يقتصر على مشهد الدم والمواراة بالتراب، هناك تصعيد بالحدث، ثم تأتي إشارة لَمَّا حة إلى عملية الاستئصال كما هو واضح!

الرواية مرسلة، وفي متنها (راويتان قرظيان) وهي تتصل بمقتلة بني قريظة، فهل ننفي دور الانتماء النسبي في تصعيد وتلوين الأخبار والأحداث خاصة إذا كانت تدور حول قضية الدماء؟ لا يمكن عزل هذا الانتماء عن طبيعة المروي، ومضمونه، فإن الانتساب العشائري والأسري والديني والمذهبي من أهم المؤثرات في المروي من الأخبار والأحداث، بين تفصيل واختزال، بين نفي وإثبات، بين تعزيز وتمريض، بين تضخيم وتهوين.

حضور في المتن، وحضور في السند، وفي سياق تراجيدي تصعيدي مذهل، هل العملية خالصة تماما؟ مسألة فيها نظر.

ولم يقتصر الحضور القرظي في السند على المسور بن رفاعه، ولا محمد بن كعب القرظي، فإننا نقرأ في سيرة ابن هشام (قال ابن اسحق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل كل من

(١) تهذيب التهذيب ج ١٠ رقم ٢٨٦.

أنبت منهم. فحدثني شعبة بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بالقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاماً فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي^(١).

ها هي الرواية قرظية، فإن مصدرها الأصلي هو (عطية القرظي... قال أبو القاسم البغوي، والطبراني وابن حبان سكن الكوفة، وقال ابن عبد البر : لا أقف عليه...)^(٢).

فالخبر هنا يفيد قتل كل رجال بني قريظة، فيلتقي هذا التصعيد مع سابقه الذي يوحي أن عملية القتل مسيرة من زمن دموي استمر حتى الشفق من الليل!

من هو المُنَفَّذُ؟

هناك خلاف حول مُنَفَّذِ الحِكمِ بعد إصداره من قبل سعد بن معاذ، فقد أصدر سيد الأوس سعد أمره بقتل (مقاتلة) بني قريظة، فمن سوف يقوم بتنفيذ الحكم؟

لم تتفق الروايات على ذلك، ففي السيرة الهشامية نقرأ (... حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٣)، والرواية تفيد أن النبي الكريم نفذ الأمر بنفسه، يعني أن سعداً حكم والرسول نفذ، فيما تشير بعض المصادر أن النبي تولى أمر بعضهم، وهم رؤساء القوم وحسب!

(١) السيرة ص ٢٥٥.

(٢) تهذيب التهذيب ٧ رقم ٤٢١.

(٣) المصدر ص ٢٥٢.

وفي رواية أن النبي يأمر بفلان أو فلان فيقتل، ومنهم حيي بن أخطب، وغزال بن سموأل، ونباش بن قيس^(١) وفي رواية أخرى نقرأ (حدثني عتبة بن جبيرة... لما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم حيي بن أخطب، ونباش بن قيس، وغزال بن سموأل، وكعب بن أسد، قام وقال لسعد بن معاذ: عليك بمن بقي، فكان سعد يخرجهم رسلاً رسلاً يقتلهم)^(٢) ولكن هناك رواية أخرى تقول (... فلم يزالوا يُقتلون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الذين يلون قتلهم علي والزبير...)^(٣).

والحقيقة قد يقال لا قيمة لهذا الاختلاف، ولكن في تصوري له قيمة مهمة، فهو يبين لنا قيمة الرواية الشفهية، حيث انعدام المصدر الكتابي الذي يمكن الرجوع إليه لاختبار الذاكرة، يخلق لنا مشاكل كثيرة ومعقدة. وإن الرواة الذين اختلفوا حول تشخيص المُنْفَذ هم أنفسهم الذين رووا لنا تفاصيل الحكم على (مقاتلة) بني قريظة، وهم أنفسهم الذين رووا لنا كيفية القتل!! وللعلم أن من يتولى القتل وبهذه الكمية المربية يشخص في الذاكرة ربما أكثر من شيء آخر يحدث في تلك اللحظات، لأن الذاكرة هنا تختلط بالدم والرؤوس والسيف والصراخ والتوسل وغيرها من تداعيات ومفارقات القتل، وهي لا تحصى في مثل هذه الحالة التي يعرضها لنا الرواة، فكيف تغيب الذاكرة هنا؟ بل كيف لا تحفظ هذا السيِّف المهور؟ ربما يحاول

(١) الواقدي ص ٥١٤.

(٢) نفس المصدر ص ٥١٦.

(٣) نفس المصدر ص ٥١٤.

البعض الجمع بين الأخبار، وهو دأب صاحب السيرة الحلبية، وفي تصوري أنها محاولات يائسة باردة، لا تصمد أمام النقد، لأن الخلاف الوارد في هذه المسألة من الصراحة والوضوح والعينية بدرجة يصعب معها كل محاولة مهما كانت ذكية.

إن اختلاف هؤلاء الرواة في تعيين مُنفذ الحكم هنا، وذلك بين نفي وإثبات أو تعزيز وتمريض يمكن الاستفادة منه بتقييم ما ينقلون لنا من أخبار في مجالات أخرى، كأن يكون عدد القتلى، أو ذات القتل بحد ذاته كقصاص صادر عن سعد أو الرسول الكريم، لأنهم نفس الرواة! فكيف الحال إذا عرفنا أن جل الروايات في مذبحه بني قريظة مراسيل مثلاً؟ وهناك في روايتها من نسل بني قريظة، كان آباؤهم من سببا قريظة؟

إن مفارقات وتناقضات وعلامات استفهام كثيرة تعتري هذه الحادثة، تثير الشك في الكثير من مفاصلها الجوهرية. ولنا عودة أيضاً.

والخلاف في عدد القتلى

جاء في السيرة الهشامية (... ثم بعث إليهم - أي الرسول على بني قريظة - فضرب أعناقهم... وهم ستة مئة أو سبع مئة، والمكثرت لهم يقول: كانوا بين الثمان مئة والتسع مئة...^(١)) والفارق كبير بين هذه الأرقام بطبيعة الحال، وهو شاهد آخر على صعوبات الذاكرة الشفهية، ولكن نجد هناك رقماً آخر، في رواية أخرى، فنحن نقرأ في البداية

(١) المصدر ص ٢٥٢.

والنهاية (وقال الإمام أحمد... فحكم * سعد بن معاذ* أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذرايرهم... وكانوا أربعمائة...) (١)، والرواية مسندة، نجدها في مسند أحمد وسنن الدارمي. وفي التنبيه والإشراف للمسعودي نقرأ (... فقتل من قريظة سبعمائة وخمسين رجلاً...) (٢).

والآن أين هو العدد الحقيقي؟

لا شك أن الفارق كبير بين ست مئة وأربعمائة، فكيف هو بين هذا العدد الأخير والتسع مئة؟ وبالتالي، هل يمكن الاطمئنان إلى مثل هذه الروايات؟ وهل من مخرج يقينا الوقوع بالاستنتاج الخاطئ كي لا نظلم التاريخ؟

إن عملية التصعيد من ست مئة إلى سبع مئة، تبيح المجال للتصعيد بين السبع مئة إلى الثمان مئة، وتبيح التصعيد من الأربع مئة إلى التسع مئة! هناك خيال جماعي، هناك عقلية روائية مغرمة بعدد القتلى، هناك عقلية روائية مغرمة بفضن التسلية والحكايات الغريبة، هناك عقلية روائية مصابة بالتهويل والتضخيم، خاصة فيما يتعلق بقضايا الحروب والمعارك والدم والقتل، عقلية تراجيدية، تشبّع تسليّة ورضا بالتضخيم والتهويل. فهل هناك مانع من القول في مثل هذه الحالة أن نقول أن مثل هذه التصعيدات المذهلة تبيح لنا الاستنتاج أن العدد ربما لا يتجاوز رؤوس القوم؟

والخلاف في عدد أيام الحصار

(١) المصدر ج ٤ ص ١٢٤.

(٢) ص ٢١٧.

وهناك خلاف كبير في عدد أيام الحصار التي ضربها المسلمون على حصن بني قريظة، ففي السيرة الهشامية أن عدد أيام الحصار كانت (خمس وعشرين ليلة)، وفي الواقدي (خمس عشر يوما) وعليه ابن سعد في الطبقات يبدو نقلا عن أستاذه الواقدي، وفي خبر له عن سعيد بن المسيب (. . . حاصر نبي الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة أربع عشر ليلة)^(١)، وفي الحلبية (. . . وقيل شهرا)^(٢).

ولا شك أيضا أن الفارق كبير بن شهر وخمس وعشرين ليلة، والنقطة التي نريد الإشارة إليها هنا، هي خلو الأصل الذي يمكن العودة إليه في ضبط المعلومة التاريخية، ولا نحسب أن الخلاف في الأيام أو في عدد الأيام، أي أيام الحصار أمر سهل، لا أثر له في استنتاجات الأفكار، فإن طول الحصار قد يؤشر على قوة بني قريظة واستعدادهم، وبالفعل، فهناك ما يشير إلى أن هذه الجماعة كانت بؤرة مسلحة خفية، وسوف نتطرق إلى هذه المسألة عندما نجلي حقيقة أو هوية الصراع بين النبي الكريم واليهود بشكل عام.

مشهد بائس وشاهد أكثر بؤسا

من خلال استعراض الحقائق أو بالأحرى المقتربات السابقة نستطيع أن أوجز قضية بني قريظة في معادلة طرفيها مشهد بائس وشاهد أكثر بؤسا . . .

كيف؟

(١) المصدر ٢ / ص ٧٦.

(٢) المصدر ٢ / ص ٣٣٤.

تقول الروايات أو بالأحرى الرواية الواحدة أن بني قريظة نزلوا على حكم النبي، فسيقوا إلى بيت خاص، وهناك احتجزوا في بيت امرأة مسلمة، موثقين، وفي هذه الأثناء، وبعد نقاش مع النبي الكريم تم الاتفاق على تحكيم سعد بن معاذ فيهم، وقد جيء بسعد ومعه الأوس والخزرج، فلما حكم فيهم بحكم الملك، ذهب النبي وحفر خنادق أو خندق في سوق المدينة، ومن ثم سيقوا رسلا... رسلا... من أربع مائة إلى تسع مائة بين يدي الرسول الكريم، وكان علي والزبير أو السيف المجهول يقتل بهم واحدا بعد الآخر، ثم تُورى الجثث في الخنادق، ومن حول المشهد يقف الأوس والخزرج، يرون بأم أعينهم ما يحصل!

شي مهول!

مشهد لا يمكن أن ينسى، حاضروه بالمتات، بل ربما بالألوف، ومنهم الأوس الذين كانوا حلفاء بني قريظة، بل شفعوا لهم عند سعد...

هذا هو المشهد...

ولكن أين الشاهد؟

رواية مرسلة، في متنها خلاف في عدد أيام الحصار، في عدد القتلى، في السيف الذي تولى ذبح هؤلاء...
رواية في سندها قرظي هنا أو هناك...

رواية مرسلة مليئة بالغيب، ومليئة بما أسميه (لعبة المفاجأة السارة) التي سوف أبين معناها في سطور لاحقة إن شاء الله تعالى.

لا يوجد هناك أي تكافؤ بين المشهد والشاهد ...

إن مثل هذا المشهد يملأ ذاكرة الآلاف، فأين منه عشرات الرواة؟ ليس لأنه مشهد مهول، ضخم، صارخ وحسب بل لأن هناك مئات الشاهدين، وعن حب، فإن جو الرواية يشير إلى أن الأوسيين كانوا في غاية الحزن والتأثر، بل وقد بذلوا ما بوسعهم لإنقاذ حلفائهم!!!

تفكيك خبر البخاري

أولاً : الروايات

١ : [حدثني محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن سعد، قال : سمعت أبا أمامة قال سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : عن أبي سعيد الخدري . . . فقال (سعد بن معاذ) : تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم. قال (النبي ﷺ) قضيت بحكم الله. وربما قال : بحكم الملك]^(١).

٢ : [حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبي سعيد الخدري . . . قال (سعد) إني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية. قال (النبي الكريم) لقد حكمت فيهم بحكم الملك]^(٢).

٣ : [حدثني محمد بن عرعة، حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن إمامة بن سهل بن حنيف، عن أبي سعيد الخدري رضي الله

(١) ح ٤١٢١.

(٢) ح ٣٠٤٣.

عنه... قال (سعد بن معاذ) فإني أحكم فيهم أن أقتل مُقاتلتهم... قال
(النبي الكريم)

حكمت بحكم الله أو بحكم الملك^(١).

٤ : [حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن
أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبي سعيد عن سعيد الخدري...
قال (سعد) فإني أحكم أن تقتل مُقاتلتهم، وتسبى ذراريهم... فقال
(النبي الكريم) لقد حكمت بما حكم الملك^(٢).

ثانياً : السند

هي رواية آحاد، فلا يغشنا هذا التعدد الظاهري، فكلها عن شعبة
عن سعد بن إبراهيم عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبي سعيد
الخدري، والآن نتناول بعض رجال هذه الرواية في قراءة سريعة، حيث
لا نكتفي بما ورد في حقهم في كتب الرجال.

* في السند : شعبة بن الحجاج.

تشني كتب الرجال على شعبة، وتعتبره من الرواة المعتمدين في
الرواية، ولا أريد أن أناقش هنا معايير علماء الرجال في تقييماتهم،
ولكن هناك أكثر من نقطة مهمة في خصوص شعبة نفسه، يذكرها علماء
الرجال أنفسهم، فهو رغم كونه ثقة ممدوحاً كما يقول هؤلاء العلماء،
ولكن يستدرك بعضهم ليقول (... وكان يخطئ في أسماء الرجال
قليلاً...)، وفي نص آخر (... كان شعبة يخطئ في أسماء الرجال

(١) ح ٣٨٠٤.

(٢) ح ٦٢٦٢.

لتشاغله بحفظ المتون^(١) والسؤال الذي يمكن أن ينبثق من هذه الملاحظة هو هل ضعف الذاكرة في حفظ الأسماء والخلط بينها لا يوازيه ولو بنسبة قليلة ضعفاً في ذاكرة المتن؟ إن هذا الضعف ينعكس بطبيعة الحال على قيمة المتن، خاصة إذا تدخل السند. ورغم أن الرجال يقولون إن شعبة هذا (جانب الضعفاء والمتروكين)^(٢)، إلا أنه يروي عن (جابر الجعفي) الذي هو مرفوض تماماً عند السنة، وعند أغلب الشيعة^(٣)! ثم يروي كثيراً. لا أريد أن أحكم بسقوط هذا السند من هاتين الملاحظتين، ولكن دعنا نضمها لملاحظات أخرى سوف تأتي عليها.

* وفي السند : سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف.

وثقه رجال السنة ولكن هنا نقطتان مهمتان في خصوص هذا الراوي، الأولى أن (مالك) وهو قاضي المدينة لم يرو عنه! وقد قالوا إن مالك لم يرو عنه لأنه تحدّث في نسب مالك، وفي ذلك دلالة أخلاقية لا تشرفه، والنقطة الثانية أنه لم يحدّث في المدينة، ولذلك لم يكتب عنه أهلها، فيما يُنسب إليها أصلاً، فهو (سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف... مديني، روى عن ابن عمر...)^(٤)، وإنما سمع منه شعبة وسفيان بواسط، وابن عيينة بمكة. وعدم تحديّثه بالمدينة يثير الشك في كونه ثقة لدى أهل المدينة، وإلا لماذا؟ خاصة وهو مديني،

(١) تهذيب ٤ / رقم ٥٨٠.

(٢) ص ٣٤٥.

(٣) ص ٣٣٩.

(٤) الجرح والتعديل ٤ / ٧٩.

وجده عبد الرحمن بن عوف، وكان قاضيا في المدينة!! هل لأن أهل المدينة كانوا قد رأوا منه ما لا يسر، ولا ننسى أنه كان قاضيا في الخلافة الأموية.

* وفي السند : أبو سعيد الخدري.

أبو سعيد الخدري عُرض على رسول الله يوم أحد وكان عمره ثلاث عشر، فأمر بعدم إشراكه بالحرب، وحرب أحد كانت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وهذا يعني كان عمره في حرب قريظة أقل من خمس عشر سنة! ومن ثم لم يرد ذكره في حرب قريظة، رغم أنه شهد الخندق، حيث لا يدل ذلك ضرورة على أنه شهد قريظة، وأنا أعطي أهمية لمثل هذه الأمور في تصويب وتدقيق الأخبار والروايات، أي السن والحضور في محل الحدث. رأوا منه في المدينة ما يشين؟

وفي تصوري أن هذه النقاط على نحو الجمع تقلل من احتمال صدق هذه الرواية، لأنها رواية آحاد، فإن شك أهل المدينة بسعد بن إبراهيم، ونسيان شعبة للأسماء، وحادثة سن أبي سعيد، تتعاضد فيما بينها لتشكل حصيلة ناقدة في النتيجة النهائية.

ثالثا : متن الرواية :

إن أول ما يلاقينا في المتن هذا الترديد بنوع المسموع عن النبي الكريم (لقد حكمت بحكم الله أو الملك^(١))؟ وهذا التردد يُحسَم في روايتين، حيث قال النبي الكريم لسعد بن معاذ (لقد حكمت بحكم

(١) ح ٣٨٠٤.

الملك)^(١) وفي رواية لا يبعد احتمالها (وربما قال بحكم الملك)^(٢)، وبالتالي، تكون النتيجة لصالح (حكمت أو قضيت بحكم الملك)، ومما يؤيد ذلك ما جاء في صحيح مسلم حيث نقرأ (. . . عن سعد بن إبراهيم . . . سمعت أبا سعيد الخدري . . . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قضيت بحكم الله، وربما قال : قضيت بحكم الملك . . .)^(٣)، كذلك ما جاء في مسند أحمد بن حنبل، حيث نقرأ في الحديث رقم (١١١٤٧) ورقم (١١٦٨٦).

لقد حكم (سعد بن معاذ) في بني قريظة بحكم الملك فأمضاه رسول الله ﷺ . . . ولست أدري لماذا لم ينتظر الرسول حكم الله فيهم؟

أليس هذا هو منطق النبوة في المنظور الديني والقرآني والإسلامي؟

ما هي الدواعي التي اضطرت محمداً ﷺ وهو النبي إلى مثل هذا السلوك الذي يتناقض مع كونه نبياً، يحكم بحكم الله، وبأمر الله، وحكمه مطابق لما يريد الله تعالى؟

هنا السر الخفي

لقد أمضى النبي الكريم حكم (سعد بن معاذ) وهو حكم الملك، فلماذا لا يكون ذلك حجة لتأسيس حكم سلطاني، ملوكي، يسري فيه

(١) ح ٣٠٤٣، ٦٢٦٢.

(٢) ح ٤١٢١.

(٣) ح ١٧٦٨.

حكم الملك؟ اجتهاد الملك؟ رؤية الملك؟ خاصة أن مثل الوليد بن عبد الملك يحتاج لمثل هذا التبرير!

لقد سيقت الرواية لتبرير الذبح الزبيري، الأموي بالناس، ولو رجعنا إلى أصل الرواية لوجدناها في كتب السيرة، وفي المقدمة سيرة ابن اسحق، ففي هذه السيرة أن سعد بن معاذ لما حكم بقتل مُقاتلة قريظة قال النبي الكريم (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)^(١)، وقد ضعفوه.

يبدو لي أن هذه الرواية كانت شائعة في الحكايات الشعبية، فاستفاد منها بنو الزبير، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أو غيره من الرواة، بنو الزبير لتبرير ما سفك عبد الله ومصعب الزبيريين، والثاني لتبرير جرائم الخلفاء وتسلطهم على رقاب الناس، حيث يظفران برضا رسول الله كما ظفر سعد بن معاذ!!

نقرأ في صحيح مسلم أيضا (حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام، قال: قال أبي، فأُخْبِرْتُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل). والرواية مقطوعة، كما هو واضح عند هشام بن عروة بن الزبير، وعليه تبقى عبارة (لقد حكمت بحكم الملك) هي الغالبة على الحضور، ولكن حتى مع القول أن حديث النبي كان (لقد حكمت بحكم الله)، فإنما النبي هنا أنزل حكم سعد بمنزلة حكم الله تبارك وتعالى.

هل نحتاج إلى مزيد من المقترحات كي نكتشف إن الرواية مساقاة

(١) السيرة ص ٢٥١.

كي تبرر أحكام الملوك والخلفاء والسلاطين في قتل الناس ، قتل عامة الناس .. مساقاة لبناء أو لتشييد قضاء ملوكي سلطاني ، خلفائي ، خاصة وأن سعد بن إبراهيم كان قاضياً لزمين في ظل الخلافة الأموية.

محاولة لإنقاذ الموقف

هذه الثغرة انتبه لها بعض الأساطين ، فحاول علاجها ، فإننا نقرأ في طبقات ابن سعد بدل قولهم : (حكمت بحكم الله أو الملك حكمت بحكم الملك ...) صيغة أخرى تتفادى السؤال عن مصدر التشريع ، وكيف يتولى ذلك سعد بدل الرسول ، حيث أورد على لسان عائشة رضي الله عنها حكاية طويلة وفيها يصف النبي حكم سعد (.. . لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله)^(١) وهو تحريف عن الأصل كما هو واضح ، وفي سند الرواية المزعومة (محمد بن عمرو بن علقمة) وهو رغم توثيقه من بعض الرجال ، ولكن (.. . سئل ابن معين عن محمد بن عمرو فقال : ما زال الناس يتقون حديثه .. . وقال الجوزاني ليس بقوي .. وذكره ابن حبان في الثقات وقال يخطيء .. . وقال ابن سعد كان كثير الحديث يُستضعف .. .)^(٢) وفي سندها أيضا أبو الموما إليه وهو (عمرو بن علقمة) لم يوثقه احد غير ابن حبان وهو لا يعتمد على توثيقاته لأنه كان يتساهل^(٣).

الرواية الأساس بما تحمل من هنات على هذا الصعيد يجب

(١) المصدر ٣ / ص ٤٢٣ .

(٢) تهذيب التهذيب ٩ / رقم ٦١٧ .

(٣) تهذيب التهذيب ٨ / رقم ١١٩ .

معالجتها ، ذلك أن كون سعد حكم بحكم الملك إنما تسجل لنا فضيحة شرعية لا تغتفر، هنا جاء العلاج! فنقرأ (. . . فأرسل - أي النبي - إلى سعد، فجي به محمولا على حمار . . . فقال - النبي لسعد بن معاذ - : أشر عليّ في هؤلاء - أي بني قريظة قال - سعد - : إني أعلم أن الله قد أمرك فيهم بأمر أنت فاعله. قال - النبي - أجل، ولكن أشر. قال - سعد - لو وليت أمرهم، لقتلت مقاتلتهم، وسبيت ذراريهم. فقال - النبي - : فوالذي نفسي بيده لقد أشرت عليّ فيهم بالذي أمرني الله به).

استدراك لاعبٍ لاحق على ما فات لاعباً سابقاً، يشترك وإياه بالاتجاه والقصد، فهي علاج لسؤال خطير، حيث نحن نعلم أن الرسول هو المشرع، فلماذا هذا الإيكال إلى سعد؟ فجاء الجواب، ليقول أن هناك تطابقاً أزلماً كان بين حكم الله بالأصالة وحكم النبي بالنقل عن الله ومع حكم سعد بالعرض!!

إذن هي لعبة، بدأت، فتعثرت في حدود ما، ولكن سرعان ما جاء العلاج.

لعبة المفاجأة الجميلة

كان سعد بن معاذ سيد الأوس، وبطلاً من أبطالهم، ولا نريد هنا الحديث عن منزلة الرجل بين قومه، بل تصادفنا في خصوصه لعبة المفاجأة الجميلة! فهذا الرجل كان من الذين اشتركوا في حرب الخندق كما تقول الروايات، وقد جرح فيها جرحاً بليغاً، فتأثر لذلك كثيراً وقال (اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه،

اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فأجعله لي شهادة، ولا تُمتني حتى تفر عيني من بني قريظة^(١). لقد كان جرحه بليغا كما نفهم من الرواية، فأُرْسِلَ لخيمة يتداوى فيها، حتى وقعت حرب قريظة، وأُستنزِلَ القوم لدى النبي الكريم، أرسل عليه رسول الله ليحكم فيهم، وكما مر بنا لقد حكم الرجل فيهم كما تزعم الرواية بقتل مقاتلتهم، هنا تدخل الرواية مرحلة جديدة، هي مرحلة المفاجأة السارة، حيث تلتقي المقدمات والنتائج في سياق غيبي تظهر عليه معالم الصنعة والافتعال، إذ نقرأ في سيرة ابن إسحق (فلما أنقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدا!)^(٢).

إن المفاجأة السارة في التاريخ وبهذا المنطق تثير الشك، خاصة إذا اتصل بأفق ميتافيزيقي غيبي، وفي سياق ديني بحت، فكأن هناك نعمة غيبية مصنوعة، غيب منسوج على مقاس، لقد تمنى من الله أن يمكنه من يهود بني قريظة، وكان له ذلك، وتمنى أن يسلم روحه لله تعالى بعد أن تتحقق له هذه الأمنية، وكان له ذلك!

تتصاعد هذه الظاهرة الغيبية التي هي خارج الزمن، ولا تخضع للتاريخ لما نقرأ، أن أصل الجرح قد برأ، ولكن سعد (دعا... فقال في ذلك: وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فأفجرها، وأجعل موتي فيها...)^(٣)، وذلك حتى تتوفر فرصة موته المؤكدة بعد أن ينتقم من بني قريظة، وهو الذي حصل فعلا حسب منطق الرواية!

(١) ابن اسحق ص ٢٣٨.

(٢) المصدر ص ٢٦٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٢.

(... وكانوا أربع مئة، فلما فرغ من قتلهم، أنفتق عرقه)^(١).

هذه هي إحدى الأعيب المفاجآت الجميلة، حيث تدخل الصدفة أو الغيب لتشييد التاريخ، وهي في تصوري من نقاط الضعف في الخبر التاريخي، بصرف النظر عن الإيمان بالغيب أو عدم الإيمان.

إن متابعة موضوع (سعد بن معاذ)، وعلاقته بتحكيم الأمر تكشف عن صناعته بشكل دقيق، فقد مهدوا له بالدعاء الأنف بعد جرحه، ولكي ترتفع درجة الحضور الغيبي القدسي في العملية، قالوا أن الرسول صلى الله عليه وآله هو الذي تناول ذراع سعد وطبها، وقد كان العلاج يتمشى مع هدف أو غاية مستقبلية، تلك هي أن يحكم بالنتيجة على بني قريظة، ومن ثم يموت شهيدا! (... رُمي سعد يوم الأحزاب، فقطعوا أكحله، فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بالنار، فانتفخت يده، فتركه، فنزف الدم، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة. فاستمسك عرقه، فما قطرت منه قطرة، حتى نزلوا على حكم (سعد) فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحكم أن يُقتل رجالهم...)^(٢) فهي لعبة مشدودة الحبل، تبدأ لا لتنتهي، بل لتعود من حيث ابتدأت!

ولكن ها هنا سؤال، ترى لماذا يتمنى (سعد) أن يشفي غليله من بني قريظة وليس قريش؟ وبقية الأحزاب، أليس الذي قطع كاهله هو (ابن عرقة) القرشي؟ أين أمنيته هذه من قريش، وإن كانت يهود قريظة هي المحرّضة؟

(١) نفس المصدر ص ٢٨٣.

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٣.

وفي هذا السياق تندرج لعبة الشخصية القوية في التاريخ، فعلي عليه السلام هو الذي سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ثلة من المهاجرين والأنصار - أغفلت الرواية ذكرهم ما عدا قتادة!!! - وكان سعد بن أبي وقاص سيد النابليين ومقدمهم، بأمر رسول الله وبذلك تروي ابنته عائشة^(١) هل انفصل ذلك عن كونه أول من رمى بسهم! فمن المعروف أن (سعد بن وقاص) كان قد رمى بسهم في سرية (عبدة بن الحارث) وهي أول سرية أو ثاني سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن استقر في المدينة المنورة، فكان حسب ذلك (أول من رمى في الإسلام)^(٢)، إنها لعبة المفاجأة الجميلة، فهنا تتم المعادلة بين سابق ولاحق، لعبة مدبرة بفن، وبمهارة روائية قصصية غيبية رائعة، هي مفاجأة لدي ولديك، ولكنها ليست مفاجأة لدى راويها. وعلي والزبير كانا هما بطلا عملية تنفيذ حكم سعد، وسعد بن معاذ سيد الأوس وزعيمهم كان بطل التحكيم! وحتى المرأة القرظية التي تم إعدامها بسبب ما اقترفته كانت في بيت عائشة، وخبرها عن عائشة رضي الله عنها! وفي منتصف الملحمة يبرز (دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي القضاعي) الذي تميز على أقرانه من الصحابة بالجمال الساحر الأخاذ، حتى كان الناس يتساجلون في جماله، فقد (قال عبد الله بن صالح العجلي، قال رجل لعوانة بن الحكم : أجمل الناس جرير بن عبد الله البجلي؟ فقال. بل أجمل الناس من نزل جبريل على صورته، أي دحية)^(٣) فقد كان للجمال دوره في

(١) الواقدي ١ ص ٥٠٠.

(٢) السيرة ٢ / ص ٢٤١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / رقم ١١٦.

الخبر، فقد نزل جبريل على صورة دحية وهو في طريقه إلى قريظة سابقا رسول الله، ليزلزل بهم حصونهم قبل بدء الحصار^(١).

هذا هو التاريخ كما يعرضه لنا الواقدي وابن اسحق وغيرهما...
يبدأ من القوة والجمال والسبق في الإسلام ويختتم بالقوة والجمال
والسبق في الإسلام، فالتاريخ يدور حول ثوابت لا تتزعزع، ولا يخلق
خارج أسماء معينة!

لعبة!

وأى لعبة؟

لعبة القوة الخفية، تكمن ما بين السطور، لتهمين على الذاكرة،
وتشطب كل ما عداها، ترى هل غاب الآخر هناك حقا؟

وهل تضيع مثل هذه الفرصة؟

تذكر الرواية أن (ثابت بن قيس الشماس) كان قد استشفع للقرظي
أبي عبد الرحمن الزبير بن باطا بن وهب، وهو من يهود قريظة بسبب
منة له عليه... استشفع له عند رسول الله ﷺ فوهبه النبي الكريم بدمه
وماله وأهله^(٢)، وللعلم أن هذا الشيخ اليهودي كان من المحاربين اليهود
الأشداء ضد الرسول والإسلام^(٣) وقد استشفعت سلمى بنت قيس أم
المنذر إحدى خالات الرسول الكريم لرفاعة بن سموأل القرظي عند النبي
الكريم فوهبه^(٤) وهاتان الحالتان تكشفان عن إمكانية نجاة الكثير من

(١) ابن هشام ص ٢٤٥.

(٢) السيرة ص ٢٥٣.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٥٤.

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٥.

هؤلاء الذين سوف يقتلون كما تزعم الرواية الركيكة، فلماذا لم تتحرك مشاعر الأوسيين تجاه الكثير منهم، أي من بني قريظة، خاصة أن الأوس كانت حليفة بني قريظة، وكان الأوسيون يوصون سعداً بأن يتقي الله بهم، وأن يكون لنا معهم (يا أبا عمرو أحسن لمواليك)^(١).

لقد شفع شيخ مسلم لشيخ يهودي فاستجاب الرسول، وشفعت امرأة مسلمة لشاب يهودي فاستجاب الرسول، فما بال زعماء الأوس، وكبارهم، لم يكرروا هذا الطلب من النبي؟ هي فرصة حياة كبيرة، فرصة نجاة سانحة، فما الذي لم يحرك فيهم ساكننا؟ وهم الذين يوصون سيدهم سعد بأن يكون رحيماً، باراً، في مواليه؟ فقد كانوا يقولون له (يا أبا عمرو، أحسن في مواليك وحلفائك، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب البقية! نصروك يوم البُعاث والحداثق والمواطن، ولا تكن شراً من ابن أبي)^(٢) فأين هذه العاطفة الجياشة من دور الشفاعة والفداء؟ ربما يقولون لأن سعد أخذ عهداً على أن يكون حكمه نافذاً، ولكن كيف يُنقض هذا الحكم بالشفيعين، أي ثابت بن قيس الشماس وخالة النبي الكريم؟

هذه ثغرة تسمح بالطعن في الكثير من مجريات الرواية، بما في ذلك هذه الصورة التي تعرضها الرواية بالنسبة لقتل القرظيين، سواء على صعيد العدد أو على صعيد الكيفية.

إن الحادثتين تكشفان عن كون الشفاعة كانت باباً عريضاً، وأن كل

(١) نفس المصدر ص ٢٥٠.

(٢) الواقدي ص ٥١١.

ممكناها موجودة، خاصة كما قلنا أن بني قريظة كانوا حلفاء الأوس، ليس ليوم أو يومين، ولا لسنة أو سنتين، وكان قريظة تستعين بالأوس على الخزرج، وفي حروبها الأخرى، ومهمات كثيرة، والعكس بالعكس، وربما نستذكر هنا يوم (بعث) كشاهد على ما نقول. وكانت أسباب المودة ما زالت موجودة بين الأوس ويهود قريظة حتى بدء النبوة الكريمة.

فهل كانت هناك صور أخرى من الشفاعة لم تصلنا عبر التاريخ؟ وهل منع كل يهود قريظة في تلك اللحظة الحرجة أنفسهم من طلب الشفاعة من هذا الأوسي أو ذاك؟

حالة غير معقولة أبدا، وتتضاد مع طبائع الأشياء إن كان لها طبائع، ومع حرص الإنسان على حياته، سواء كان مسلما أو يهوديا، وهو حرص غالب إلى حد ما، بل حرص مؤكد بين كل بني البشر.

إنّ الحادثة، حادثة القتل المزعومة مشكوك فيها، فهي إما لا وجود لها أصلا، أو مبالغاً فيها، وربما نلتقي مرة أخرى لبيان مفارقات من غير التي ذكرنا، فإن السند مخدوش، والتفاصيل غريبة ومستبعدة، والاختلافات في أهم عناصر الرواية مستشرية، ولغة المصادفة موجودة، والغيب يستأثر في الكثير من نقاطها المهمة، والروايات التي جاءت في شأن أهم حدث فيها (هوية حكم سعد) مصنوعة لهدف التبرير والتسويق، وهناك حضور يهودي طاغ في تضاعيفها وفي سندها.

وأخيرا وليس آخرا، تتناقض تماما مع سماح الإسلام العظيم، ولا تلتقي مع ذلك القلب الكبير الذي يحمله رسول الله ﷺ، وتتضاد مع

سلوكه تجاه يهود بني النضير ويهود بني قنيقاع، ولنا عودة إلى بعض النقاط التي لم نتطرق إليها في أثناء حديثنا عن محمد ويهود بني النضير إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

سرايا الرسول منذ دخول المدينة حتى معركة بدر

أربع سرايا

كثيراً ما يخلط الناس بين الغزوة والسرية، فيما هناك فرق بين المصطلحين، فإن الغزوة بقيادة النبي الكريم نفسه، كما هي غزوة بدر وأحد وغيرهما، فيما السرية هي بقيادة أحد أصحاب الرسول الكريم ﷺ، ويحصي المؤرخون ثمان وعشرين غزوة للنبي أو سبع وعشرين تسع منها قتالية، وحققت تسع عشرة منها مقاصدها بدون قتال، وقد استغرق ذلك سبع سنين من سيرة النبي. فيما كان عدد السرايا سبعا وأربعين سرية، في غضون تسع سنين.

يتعرض كتاب السيرة إلى السرايا التي بعثها رسول الله منذ دخوله المدينة وحتى معركة بدر التي اختلف في توقيتها بالضبط، ويختصر لنا ابن حجر العسقلاني الاختلاف بقوله (أما غزوة بدر فمتفق عليه بين أهل السير: ابن إسحاق وموسى بن عقبة وأبو أسود وغيرهم، واتفقوا على أنها كانت في رمضان، قال ابن عساكر: والمحفوظ أنها كانت في يوم الجمعة، وروي أنها كانت في يوم الاثنين، وهو شاذ، ثم الجمهور على أنها كانت سابع عشرة، وقيل ثاني عشرة، وجمع بينهما بأن الثاني ابتداء الخروج والسابع عشر يوم الواقعة^(١))، وهي وقعت في

(١) تلخيص التعبير ٤ / ٨٩.

السنة الثانية للهجرة كما هو معلوم. وقد أحصى هؤلاء الكتاب أربع سرايا قد بعث بها الرسول خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة نسيباً. وهي كما وردت في كتب السيرة، ما يلي : -

الأولى : سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب... ويجعلها ابن إسحق السرية الأولى، فيما خالفه الزهري وموسى بن عقبة والواقدي، فذهبوا أن بعث حمزة كان قبل بعث عبيدة بن الحارث

قال ابن اسحق : (فكانت راية عبيدة بن الحارث - فيما بلغني - أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام)^(١).

الثانية : سرية حمزة بن عبد المطلب بن هاشم... ويؤرخها الواقدي بقواه (وكانت سرية حمزة بن عبد المطلب في رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبي صلى الله عليه وسلم)^(٢). ويعلق ابن اسحق على ذلك بقوله (وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معا، فاشتبه ذلك على الناس...)^(٣).

الثالثة : سرية سعد بن وقاص حسب تصنيف ابن اسحق (وقد كان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيدا)^(٤) ويضيف الواقدي بأن هذه السرية

(١) سيرة ابن هشام ٢ ص ٢٤٥.

(٢) ص ٩.

(٣) ص ٢٤٦.

(٤) ص ٢٥١.

كانت على رأس تسعة أشهر من مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرابعة : سرية عبد الله بن جحش، وفيها نقرأ في سيرة ابن هشام (وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب... وبعث معه ثمانية من رهط المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد...)^(١)، وكانت على رأس سبعة عشر شهرا من مهاجرة الرسول الكريم على حد ذكر الواقدي^(٢)، تسمى سرية (نخلة)، لأنها متوجهة إلى هذا المكان بالذات بأمر النبي الكريم، ونخلة هذه، بستان ابن عامر الذي يقرب من مكة.

مناقشة الواقدي

يورد الواقدي خبر سرية حمزة بن عبد المطلب بلا سند، ويذكر في تضاعيف روايته (بعثه في ثلاثين راكبا شطرين، خمسة عشر من المهاجرين، وخمس عشر من الأنصار^(٣) ويفصّل في الأسماء، ولكن الواقدي نفسه يروي بما يناقض هذا الكلام، وذلك في نهاية حديثه عن سرية حمزة بالذات (حدثني عبد الرحمن بن عياش، عن عبد الملك بن عبيد، عن ابن المسيب وعبد الرحمن بن سعيد بن يربوع، قالوا : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الأنصار مبعثا حتى غزا بنفسه إلى بدر، وذلك أنه ظن أنهم لا ينصرونه إلا في الدار، وهو الثبت^(٤))، وكرر الرواية في حديثه عن سرية سعد بن أبي وقاص، ولكن

(١) سيرة ص ٢٥٢.

(٢) الواقدي ص ١٣.

(٣) الواقدي ص ٩.

(٤) الواقدي ص ١٠.

بصيغة تعليلية أخرى (. . .) وذلك لأنه شرطوا له أن يمنعه في دارهم^(١). وهناك ثمة فرق بين الصورتين من التعليل، ولكن الرواية مرسلة كما هو واضح، لأنها تنتهي عند سعيد بن المسيب، وهو تابعي، كذلك عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع، فقد توفي في سنة تسع ومائة عن عمر وهو ابن ثمانين سنة^(٢)، فهو ليس صحابيا. وهنا ملاحظة دقيقة، أن الواقدي صَدَّر الرواية بصيغتها الثانية، أي كما رواها في حديثه عن سرية سعد بن أبي وقاص بقوله (فيقال . . .)، مما يعني أنها ضعيفة أو ليست ذات ثقل يقيني لديه، فكيف نجتمع بين هذا التصدير التمريضي وبين قوله (وهو الثبت . . .)، في نهاية الرواية في صيغتها الأولى أي في مجال كلامه عن سرية حمزة ابن عبد المطلب؟

إنَّ هذا الاختلاف ليس سهلا، فهو دليل على ارتباك الواقدي في اتخاذ الموقف الأخير، فهو بدايةً يُمضي ما يفيد المناصفة بين الأنصار والمهاجرين في السرية، ثم ينقض ذلك بروايته عن سعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن سعيد بن يربوع، ثم يتردد في ذات الرواية أثناء إيرادها في كلامه عن سرية سعد بن أبي وقاص الصحابي المعروف؟

هل هذا تاريخ؟

وهل هذه مادة تاريخية يمكن تشييد بناء تاريخي متين بالاتكاء عليها؟

يرى صاحب الطبقات ما عليه ابن اسحق، من أن النبي الكريم لم يغز في الأنصار حتى بدر (قال بعضهم: كانوا شطرين من المهاجرين

(١) الواقدي ص ١١.

(٢) التهذيب ٦ / ٣٧٦.

والأنصار، والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدرًا، وذلك أنهم اشترطوا له أنهم يمنعونهم في دارهم، وهذا ثبت عندنا^(١).

من كل هذا الاستعراض يمكن الاطمئنان إلى أن الرسول لم يغز بأنصاره من أهل المدينة، حتى غزا بدرًا، والتعليل هو التعاهد الذي كان بين النبي والأنصار، ذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه في دارهم.

بين الواقدي وابن اسحق

هناك خلاف بين المصدرين في زمن السرايا الثلاث، أي سرية الحارث بن عبيدة، وسرية حمزة بن عبد المطلب، وسرية سعد بن أبي وقاص، ففي حين يجمعها الواقدي في السنة الأولى من مهاجرة الرسول الكريم، يجعلها ابن اسحق في السنة الثانية، ويعلق الطبري على ذلك بقوله (قال أبو جعفر: وقال ابن اسحق في أمر كل هذه السرايا التي ذكرت عن الواقدي قوله فيها غير ما قاله الواقدي، وأن ذلك كله كان في السنة الثانية من وقت التأريخ^(٢)). والطبري يشير بقوله هذا إلى ما جاء في السيرة لابن اسحق (وبعض العلماء يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه - يقصد عبيدة بن الحارث - حين أقبل من غزوة الأبواء، قبل أن يصل المدينة^(٣))، ولما كانت سرية الحارث هي

(١) الطبقات ص ٦.

(٢) الطبري ٣ / ١٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٥.

الأولى في رواية ابن اسحق، يثبت لديه أن السرايا الثلاث هذه كانت في السنة الثانية من المهاجرة الشريفة.

ولكن الزعم يطلق على الظن، وفي مصباح اللغة أكثر ما يكون الزعم فيما يشك فيه، ولا يتحقق... وأخيراً هو اعتقاد لا يبتني على أساس موثق!

أورد ابن اسحق خبر سرية سعد بن أبي وقاص بلا سند، وفي عرض خاطف لا يتجاوز بعض كلمات، ولكن الواقدي يقول (فحدثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد، عن أبيه، عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج يا سعد حتى تبلغ الخرار، فإن عيراً لقريش ستمر به، فخرجت في عشرين رجلاً أو أحد وعشرين على أقدامنا، فكنا نحن نكمن في النهار، ونسير في الليل، حتى صبّحناها صبح خمس، فنجد العير قد مرّت بالأمس، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عهد إليّ ألا أجاوز الخرار، ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم^(١)، مما يعني أن خبر الرواية مسند لدى الواقدي، فهل يجبر ذلك النقص في رواية ابن اسحق؟

رواية الواقدي صحيحة السند حسب معطيات علم الرجال السني لولا أن يكون راويها الواقدي، فالرجل متفق على ضعفه عند السنة^(٢)، لأن بقية السند ثقة في كتب الرجال السنية، ولكن رغم ذلك أشك فيها، لأن كل رواة السند ينحدرون من صلب سعد بن أبي وقاص، ومثل هذه الظاهرة تثير الشك، مهما قيل عن توثيقهم. ف (أبو بكر

(١) الواقدي ص ١١.

(٢) أعلام الذهبي رقم ١٧٢.

إسماعيل هو بن محمد بن سعد بن أبي وقاص^(١)، و(عامر بن سعد بن أبي وقاص هو عم إسماعيل ومن ثم شقيق محمد بن سعد أبي وقاص^(٢)). على أن ابن إسحق كما قلْتُ يأتي على ذكر سرية ابن سعد في سطرين، فيما فضّل الواقدي إلى حد ما، ويتوسط ابن سعد بين الاختصار والتفصيل^(٣).

حول سرية عبد الله بن جحش

أولا : مسألة السند

تعتبر هذه السرية من أهم السرايا الأربع، سندها يتمتع بشي من القبول، وفيها نزل وحي مبارك، وجاء ذكرها ليس في كتب السيرة والتاريخ وحسب، بل في كتب السنة والفقهاء، وقال عنها صاحب البداية والنهاية بما معناه أنها كانت سببا لحرب بدر الكبرى^(٤)، وقد قال عن أميرها (عبد الله بن جحش) بأنه (أول أمير في الإسلام^(٥))، وربما تنبع أهميتها أيضا لما حصل فيها من قتال في الشهر الحرم على بعض الأخبار، وهو محرم عند العرب، وتأسست على ضوءها كما يقولون أحكام شرعية مهمة في تاريخ الإسلام المدني، وكان فيها أول قتيل قتله المسلمون، وأول غنيمة غنموها.

يروى ابن إسحق خبر السرية مفصلا، ثم يقول في نهاية الخبر (قال ابن إسحق : والحديث في ذلك عن الزهري، ويزيد بن رومان، عن عروة

(١) تهذيب ١ / ٥٩٢.

(٢) تهذيب ص ١٠٦ / ٥.

(٣) الواقدي ص ٧.

(٤) البداية والنهاية ٣ / ٢٤٧.

(٥) المصدر ص ٢٥٠.

بن الزبير^(١)، ويعلق صاحب البداية والنهاية على ذلك بقوله (وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه، عن الزهري، وكذا روى شعيب عن الزهري، عن عروة نحو من ذلك^(٢))، وبالتالي، هي رواية مرسله هنا، لأن عروة تابعي. ويرويها الطبري بقوله (حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السُّدي^(٣)) ثم يسرد الحكاية مع اختلاف جوهرى مع ابن إسحق والواقدي جميعاً، كما نص الطبري على ذلك^(٤))، سوف نأتي على تجلية هذا الاختلاف، و(السُّدي) هذا هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، نسبة إلى سُدَّة باب مسجد الكوفة، يبيع السدي فيها المقانع^(٥))، مات سنة ١٢٧ للهجرة، وهو مفسر كبير، يروي عن ابن عباس، ولكن المشكلة أن السُّدي مختلف فيه بين السنة والشيعة، كما أن جل روايته عن ابن عباس، وابن عباس كان عمره لا يتجاوز الخمس سنوات لما وقعت سرية عبد الله بن جحش، لأنه ولد في ثلاث سنوات قبل الهجرة، وسرية بن جحش كانت في السنة الثانية للهجرة، وفي سنه المذكور هنا (أسباط)، وهذا الرجل لم يتفقوا عليه، وهو أسباط بن نصر الهمداني ضعفه كثيرون^(٦))، ولم يرد فيه توثيق في كتب الشيعة^(٧) والطبري ينقل رواية السدي هنا مرسله. وقد روى الواقدي بعض جزئياتها مسنداً، كما سنرى، وأخرجها البيهقي في سننه الكبرى،

(١) البداية والنهاية ص ٢٥٦.

(٢) البداية والنهاية ٢٤٩/٣.

(٣) الطبري ص ٢٥.

(٤) الطبري ص ٢٥.

(٥) فهرس مشاهير القراء، ص ألف.

(٦) تهذيب ١ / ٣٩٦.

(٧) المعجم ٣ / ٢٨.

بسند عن الزهري عن عروة مرسلًا^(١)، وقد وصله هو وإبن حاتم من طريق سليمان التميمي عن الحضرمي، عن أبي السوار، عن جندب، ولكن ليس فيه قول النبي الكريم (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام)، وجندب هو بن عبد الله، ليس له صحبة، أو كان صغير السن، وهناك شك في الحضرمي بين كونه (ابن لاحق) أو غيره، حيث يرجح الحافظ في التهذيب أنه ليس (ابن لاحق) وبذلك يكون السند مجهولاً. ورواها الطبري في التفسير^(٢)، كذلك أبو يعلي (١٥٣٤)، والطبراني الكبير (١٦٧٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد^(٣)، ومهما يكن فالرواية مرسلة في النتيجة النهائية، أو في حكمها.

ثانياً: اختلافات ذات مغزى

هناك اختلاف حول بعض مجريات هذه السرية، أول اختلاف حول الأمير، ففي بعض الروايات أن النبي كان قد كلف بها في البداية أبا عبيدة الجراح، ولكن لما (ذهب بكى صباية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش^(٤) على أن الطبري يوردها وهو غير مطمئن إليها، ويوردها صاحب البداية والنهاية^(٥)، والرواية تنتهي عند (جندب بن عبد الله)، وهذا الرجل ليست له صحبة قديمة كما يقول العسقلاني في تهذيب التهذيب^(٦)، فمن

(١) سنن البيهقي ٩ / ١١ - ١٢.

(٢) تفسير الطبري ٢ / ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٣) مجمع الزوائد ٦ / ١٩٨.

(٤) الطبري ص ٢٦.

(٥) البداية والنهاية ص ٢٥٠.

(٦) تهذيب التهذيب ٢ / ١٨٨.

الصعب إمضاء هذا الخبر، أو ربما جيء به لرفع شخصية عبيد الله الجراح. لقد بدأ المسلمون في هذه السرية قتال المشركين، وكان ذلك في الشهر الحرام، رجب، ففي الاستيعاب (والأكثر أن سرية عبد الله بن جحش... كانت في سنتين في غرة رجب إلى نخلة، وفيها قتل بن الحضرمي ليلية بقيت من جمادي الآخر...) (١) من رجب، وفي البخاري (والمراد هنا... سرية عبد الله بن جحش... الأسدي رضي الله عنه، وكانت في رجب سنة الثانية قبل بدر الكبرى...) (٢). ولكن بعض كتاب السيرة لا يريدون إحراج الصحابة هنا، أرادوا دفع تهمة عنهم، لأنهم في ذلك خالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقاليد العرب التي احترمها الإسلام، وقد تعددت صور الدفاع أو التمويه، ففي رواية [قال أبو جعفر: وخالف في بعض هذه القصة محمد بن اسحق والواقدي جميعاً السدي، حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال، حدثنا إسباط، عن السدي (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتل كبير وصد عن سبيل الله) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية، وكانوا سبعة...] ثم يسترسل ببيان حوليات (السرية) ليصل إلى نقد المشركين للنبي بأنه سمح لأصحابه بخرق أحكام وتقاليد الأشهر الحرم ليقول (ف فجر عليه المشركون - أي فجروا على رسول الله - وقالوا: محمد يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب، فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادي... وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل رجب، فأنزل الله عز وجل يعير أهل مكة:

(١) الاستيعاب ١/١٥.

(٢) نفس المصدر.

يسألونك عن الشهر الحرام... ص ٢٦)، وقد أشار إلى هذه الرواية صاحب البداية والنهاية^(١)، برواية السدي عن ابن عباس، ويعلق على الخبر (قلت : لعل جمادي كان ناقصا، فاعتقدوا بقاء الشهر ليلة الثلاثين، وقد كان الهلال رؤي تلك الليلة فالله أعلم، ومنهم من قال إن القتل صار في شهر شعبان^(٢))؟

وفي تصوري هذه محاولات عاطفية لتبرئة صحابة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من هذا الموقف، وما جاء من روايات في هذا المعنى ضعيفة.

ثالثا: ملابسات في قضية الغنائم

نقرأ في الواقدي (حدثني عمر بن عثمان الجعشي، عن أبيه، عن محمد بن عبد الله بن جحش، قال : كان في الجاهلية المرباع، فلما رجع عبد الله بن جحش من نخلة خمس ما غنم، وقسم بين أصحابه سائر المغانم، فكان أول خمس في الإسلام حتى نزل بعد : وأعلموا إنما غنمتم من شي فإن لله خمس^(٣))، والرواية نقرأها في سيرة ابن هشام ولكن في صيغة أخرى (وقد ذكر بعض آل جحش : إن عبد الله قال لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم، فعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير، وقسم سائرهما بين أصحابه^(٤)).

هناك اختلاف واضح بين الروایتين، ففي الواقدي، إن عبد الله بن

(١) البداية والنهاية ص ٢٥٠.

(٢) النهاية ص ٢٤٩.

(٣) الواقدي ص ١٨.

(٤) سيرة ابن هشام ص ٢٥٤.

جحش لم يخمس لرسول الله ، بل خمس لنفسه ، ثم قام بتوزيع باقي الغنائم على الآخرين ، أما في رواية ابن اسحق أو نقل ابن اسحق أن عبد الله بن جحش خمس بداية للرسول ، ثم أن الرسول أخذ خمسه ، ثم قسم الباقي بين أصحابه!

في البداية يجب أن ندرس السند ..

إن سيرة ابن هشام توعد ذلك إلى (بعض آل عبد الله بن جحش^(١)) ، أما الواقدي فيروي ذلك بقوله (فحدثني عمر بن عثمان الجحشي ، عن أبيه ، عن محمد بن عبد الله بن جحش ، قال : كان في الجاهلية المربع^(٢)) ، حيث أول ما نلاحظه هنا أن مصدر الرواية ورواتها هم بنو جحش ، مما يثير الشك فيها ، فقد تكون سيقت لمدح وتعظيم الجدد ، خاصة وهو قد أخل بوصية النبي الكريم ، ومن الواضح أن الرواية تنتج تطابقا بين موقف الجدد عبد الله بن جحش وبين الوحي فيما بعد ، وهنا نقطة تزيد من الشك! وهو ما كان يشير إليه آل جحش فعلا على نحو الافتخار ، ففي السيرة الهشامية (قال ابن إسحق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش : إن الله عز وجل قسم الفيء حين أحله ، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه الله ، وخمسا إلى الله ورسوله ، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير^(٣)) ، وبالتالي ، يجعلنا هذا نشك في ملاسبات توزيع الغنيمة. من الصعب هنا تكوين نتيجة تاريخية في هذا الخصوص.

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٥٤.

(٢) الواقدي ص ١٧.

(٣) سيرة ابن هشام ص ٢٥٦.

تقول رواية ابن اسحق بعد ذكر تخميس ابن جحش (. . . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقّف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا وعضفهم أخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال^(١) ، وكلام ابن اسحق مرسل . وفي الواقدي (. . . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّف العير فلم يأخذ منها شيئاً ، وحبس الأسيرين ، وقال لأصحابه : ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام^(٢) . ويروي ذلك في مكان آخر مسنداً (فحدثني محمد بن يحيى بن سهل ، عن محمد بن سهل بن أبي خثمة ، عن رافع بن خديج ، عن أبي بردة بن نيار ، أن النبي صلى الله عليه وسلم وقّف غنائم أهل نخلة ، ومضى إلى بدر ، حتى رجع من بدر فقسّمها مع غنائم بدر ، وأعطى كل قوم حقهم^(٣) ، وسند هذه الرواية تالف ، فإن كلا من محمد بن يحيى بن سهل ، ومحمد بن سهل بن أبي خثمة مجهولان ، وقد أوردهما الحافظ شيخ الإسلام في كتابه الجرح والتعديل^(٤) ولكن غنائم سرية عبد الله بن جحش كانت قبل أن يفرض الله الخمس في الغنائم ، فضلاً عن أن تلك الغنائم كانت بسبب قتال مخالف لأوامر وتوجيهات الرسول الكريم ، فكيف تخضع لحكم لاحق ؟

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٥٤ .

(٢) الواقدي ص ١٦ .

(٣) الواقدي ص ١٨ .

(٤) الجرح والتعديل رقم ٥٥٠ ، ١٥٠١ .

يبدو لي أن مصير الغنائم مجهول، والقدر المتيقن أن رسول الله ﷺ رفض أخذها.

رابعا : نظرة فاحصة في الوحي الذي نزل

تقول الرواية أن الرسول الكريم لم يرتض الغنائم، وحفظ العير والأسيرين، حتى نزل وحي سماوي يعالج القضية، فقد قال الله تعالى في ذلك (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله... .)، والآية تشير إلى معنى دقيق، ليس فيه تبرئة للذين قاتلوا وغنموا في الشهر الحرام كما يتصور البعض، بل الإدانة ما زالت، هي موجودة، فهؤلاء المسلمون خرجوا على الشريعة هنا، انتهكوا حرمة، الشهر الحرام، ولكن عمل المشركين أكثر جرما، أكثر إيغالا في الجريمة، فالمعنى والله العالم (إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله، وإخراجكم أهل المسجد منه كما فعلتم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكثر جرما عند الله^(١)) فليس في التنزيل تبرئة، ولا تبرير، ولا تسويغ، بل الجرم موجود ومثبت، ولكن جرم الذين كفروا مضاعف، مضاعف في كفه، وفي الآثار التي تترتب عليه. ولكن بعض المفسرين بل حتى وكتاب السيرة يعدون هذا التنزيل بمثابة عفو عن السرية بما قدمت عليه بما يتنافى مع الأوامر النبوية، تلك الأوامر التي لم تتخط الرصد والتحسس والإتيان بالخبر.

(١) القرطبي ٢ / ص ٤٤.

الهدف من السرايا

ماذا كان يهدف النبي الكريم من بعث هذه السرايا ؟

إن مراجعة بسيطة لمضامين النصوص التاريخية المتعلقة بهذه السرايا تكشف لنا عن الهدف بشكل واضح، فنحن نقرأ مثلاً عن سرية عبد الله بن جحش في الواقدي (. . . عن سليمان بن سحيم قال : ما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال في الشهر الحرام ، ولا غير الشهر الحرام ، إنما أمرهم أن يتحسسوا أخبار قريش^(١) ، وفي سيرة ابن إسحق (فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فأمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم من أخبارهم^(٢) ، ولم تتضمن تلك السرايا أي توصيات بالقتال ، وهذا طبيعي ، لأن المسلمين لم يصلوا إلى مستوى من القوة والمكنة من القتال ، قتال قريش. ولم يحصل قتال بين السرايا وقريش ، بل كانت هناك مناوشات كلامية ، وما حصل في سرية عبد الله بن جحش كان خطأ من المسلمين وخلاف وصية النبي الكريم.

يبدو لي كان النبي يرسل هذه (السرايا) من أجل معرفة أخبار قريش ، حماية للمدينة ، وأن النبي الكريم كان يتوجس خوفاً من هجوم قرشي مباغت يسبب له المتاعب والمشاكل. وما قام به سعد بن أبي وقاص كما يقال من رميه المشركين في سرية عبدة بن الحارث اجتهد شخصي لا أكثر ولا أقل من قبل سعد ، ولم يكن القائمون على تلك السرايا ملائكة ، بل كانوا بشرا ، تتحرك فيهم في لحظة ما غرائز الملك والسلطة والقوة ،

(١) الواقدي ص ١٦ .

(٢) الواقدي ص ٢٥٢ .

وهذا ما يمكن تسجيله في سرية عبد الله بن جحش، فإن الحوار الذي دار بين رجال السرية في صدد الموقف من عير قريش التي مرت بهم في (نخلة) إنما يكشف عن تحرك تلك الغرائز، غير أبهين بتوجيهات النبي الكريم، تلك التوجيهات التي اقتصر على مهمة التحسس، ونقل الأخبار، ولم تتضمن أي أمر بالقتال. تقول الرواية في هذا المجال إن رجال السرية لما رأوا نفراً من قريش في نخلة (. . . وتشاور الصحابة فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب فقالوا والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، فكانت هناك مطامع دنيوية وراء القتل، ولذلك استحقوا تقريع النبي الكريم (. . . ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام^(١) .

لقد تجلت مظاهر الغريزة على حساب العقيدة أكثر من مرة، فليست محصورة في هذه النقطة وحسب، حيث كان سعد بن أبي وقاص وعتبة بن رضوان قد أضلأ بعيراً لهما، فما كان منهما إلا أن يتركا السرية ويمضيان وراء البعير المفقود! لقد صرف الصحابيان الجليلان يومين يتعقبان البعير، فيما سرية النبي مضت لحالها! وبالتالي لم يشهدا نخلة^(٢) .

هذه أمور طبيعية، فإن العقيدة ليست دائماً حاکمة، ورخاوة القبضة العقيدية أمر عادي ومألوف في كل البشر في لحظة من اللحظات، وفي

(١) سيرة ص ٢٥٤.

(٢) الواقدي ص ١٧.

حالة من الحالات ، سواء كان مع سعد بن أبي وقاص أو مع غيره. وإن المبالغة التي أضفيت مؤخراً على الصحابة ساهمت في تزوير التاريخ، وترميمه من طرف الباحث أو المؤرخ العقيدي.

إن انحراف هؤلاء الصحابة عن الالتزام بتوجيهات النبي الكريم لا يخرج السرية عن مهمتها الأساسية، التي هي باختصار متابعة أخبار قريش لا أكثر ولا أقل.

بل نقول ما هو أكثر من ذلك، إن السرية كانت في الفهم التقليدي العشائري في زمن الجاهلية، عصابة، تقنص، وتنهب، فيما أن الرسول حول هذا المفهوم، وغير في جوهره، فجعله استطلاعاً، وحسب، ولعل وصايا النبي التي مرت بنا كافية للدلالة على ذلك.

(سهم) سعد بن أبي وقاص

كان سعد بن أبي وقاص أول من رمى في تاريخ الإسلام، كان ذلك في سرية عبيدة بن حارث، أي السرية الأولى حسب سيرة ابن إسحق والسرية والثانية حسب الواقدي وغيره، ولكن ابن إسحق في روايته يوردها مبنية للمجهول (فكان أول سهم رُمي في الإسلام)، فيما في المصادر الأخرى (كان أول سهم رمى في الإسلام)، ويبدو من مراجعة النصوص التاريخية... إن الرواية الأصح هي التي جاء فيها الفعل مبنيًا للمعلوم.

ليس في ذلك ما يثير الغرابة أو شيئاً من الاستفسار، ولكن هذا السهم دخل التاريخ ليس لأنه أول سهم رمى في الإسلام، بل لأنه تحول إلى سهم تاريخي باستمرار، أي كان لها تاريخ مستمر، لقد كان سهمًا مباركا، بفضل هذه الأسبقية، فهو محل افتخار وزهو بالنسبة لسعد (وإنّي

لأوّل المسلمين رمى المشركين بسهم^(١) ولسعد أن يفتخر بذلك، ولكن نجد هناك عملية تصعيد قدسي، خارق، لهذا السهم، فنحن نقرأ في صحيح مسلم (قتل سعد يوم أحد بسهم رُمي به، فقتل، فرد عليهم فرموا به، فأخذه سعد، فرمى به الثانية، فقتل، فردّ عليهم، فرمى به الثالثة، فقتل، فعجب الناس ما فعل...) والرواية عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب، مما يعني أن إسنادها منقطع. وفي يوم أحد أيضا (... فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناولني النبل ويقول: إرم فداك أمي وأبي، حتى أنه لناولني السهم ما له من نصل فأرمي به...) والرواية عن بعض آل سعد! ومجهول أيضا. ونقرأ أيضا في صحيح مسلم (حاتم بن إسماعيل: عن بكير بن مسمار، عن عامر بن سعد، عن أبيه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له أبويه. قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله: إرم فداك أمي وأبي. فنزعت بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جبهته، فوقع وانكشفت عورته، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه^(٢)... وهي رواية (وقاصية) إذا صح التعبير، لأن عامر هو ابن سعد بن أبي وقاص، أضف لذلك في السند (بكير بن مسمار الزهري) وقد قال فيه البخاري (... فيه نظر^(٣)...) والرواية ذاتها يرويها أحمد بن حنبل، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أيضا^(٤)، فهي رواية (وقاصية). وفي رواية (يونس بن بكير، عن عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، عن الزهري، قال بعث

(١) النبلاء ص ٩٨.

(٢) ح ٢٤١٢ من مناقب سعد

(٣) تهذيب ١ / ٩١٤.

(٤) أحمد ١ / ٨٦ نقلاً عن سير النبلاء ١ / ص ١٠٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها سعد بن أبي وقاص، إلى جانب الحجاز، يدعى رابع، وهو من جانب الجحفة، فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ بسهامه، فكان أول قتال في الإسلام^(١)... فهذا السهم كانت له أولوية الحضور العملي، الحضور الجهادي، الحضور الذي من شأنه خلق تاريخ جديد، كان صاحب الأولوية في تاريخ السهام الإسلامية، فهو (أول) سهم رمى في الإسلام، وقد تحول إلى سهام في (أول) مقاتلة بين المسلمين والمشركين، حيث لعبت هذه السهام (الوقاصية) دور تخليص المسلمين من المشركين، الرواية منقطعة، وفيها (وقاصي) وهو عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، ولكن الرجل مرفوض لدى علماء أهل السنة (لا يكتب حديثه، كان يكذب... ضعيف جدا...^(٢)).

لقد دخل (سهم) سعد عالم المثال، كان السهم الأول دائما، له شرف الأولوية، حضورا، قتلا، تصويبا، مباركة من لدن رسول الله ﷺ، تطور من أول سهم رمى في الإسلام، إلى السهم المبارك، السهم الذي لا يقهر...

تطور، تصاعد، خطوة... خطوة... تلك من معالم، وخصائص الثقافة الشفهية، تنمو، تثري، مع الزمن، تحت تأثيرات وعوامل كثيرة، ولعل إصرار بعض أقارب سعد على (سهم) سعد من الملاحظات المهمة التي يجب أن تؤخذ هنا في نظر الاعتبار...

ترى هل هي محاولة لموازنة سيف ذي الفقار؟

(١) طبقات بن سعد ٣/١ / ١٠٠.

(٢) تهذيب ٧ / ٢٧٩.

المصادر

- ١ - صحيح البخاري طبعة المكتبة السلفية، القاهرة، سنة ١٤٠٠ هجرية.
- ٢ - طبقات بن سعد طبعة دار صادر سنة ١٩٨٥م أجزاء متفرقة.
- ٣ - صحيح السيرة النبوية تأليف إبراهيم العلي، طبعة دار النفائس، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٦م.
- ٤ - مغازي الواقدي / مجلدان/ تحقيق الدكتور مارسدن جونس، نشر دانش اسلامي، بلا تاريخ.
- ٥ - زاد المعاد، لابن القيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤط، طبع مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨٧م الطبعة الخامسة عشر.
- ٦ - سير أعلام النبلاء، للذهبي، طبع مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٩٢م، الطبعة الثامنة.
- ٧ - صحيح أحمد/ طبع دار الحديث سنة ١٩٩١م، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٨ - تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، طبع دار صادر، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦ هجرية.
- ٩ - الكامل في التاريخ لابن الأثير طبع دار صادر في بيروت، سنة ١٩٧٩م.
- ١٠ - الطبري، طبع دار الفكر، سنة ١٩٨٧م، الطبعة الأولى.
- ١١ - صفوة الصفوة لأن الجوزي، طبع دار الكتب العلمية في بيروت سنة ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

- ١٢ - سيرة بن هشام، تحقيق كل من مصطفى السقا، إبراهيم الايباري،
عبد الحفيظ شلبي.
- ١٣ - البداية والنهاية طبع دار الكتب العلمية في بيروت، ١٩٨٨م، الطبعة
الثانية.
- ١٤ - بحار الأنوار، للمجلسي، طبعات متعددة.
- ١٥ - دلائل البنية للبيهقي، طبع دار الفكر، ١٩٦٩م. تحقيق محمد
عثمان عبد الرحمن.
- ١٦ - أسد الغابة، لابن الأثير، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت،
بلا تاريخ.
- ١٧ - تاريخ الإسلام للذهبي، نشر دار الكتاب العربي ١٩٩٠م، الطبعة
الثانية.
- ١٨ - المنتظم لابن الجوزي، طبع دار الكتب العلمية في بيروت سنة
١٩٩٣ الطبعة الأولى.
- ١٩ - أنساب الأشراف للبلاذري، تحقيق محمد حميد الله، ذخائر
العرب / ٢٧، طبع دار المعارف، الطبعة الثانية.
- ٢٠ - السيرة الحلبية وبهامشها سيرة دحلان بلا تاريخ.
- ٢١ - لسان الميزان.
- ٢٢ - المغني في الضعفاء للذهبي، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، طبع
حلب.
- ٢٣ - تفسير الميزان، طبعات متعددة.
- ٢٤ - مجمع البيان، طبع دار المعرفة ١٩٨٦م.
- ٢٥ - المحبّر، لابن حبيب، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، بلا
تاريخ.
- ومصادر أخرى ذكرناها في الهوامش.

الفهرس

٥	المقدمة
٩	الفصل الأول: البشارات اليهودية بميلاد النبي الكريم ﷺ
٢١	الفصل الثاني: معجزات الولادة المباركة (إطلالة سريعة)
٢٦	رواية النور (مصفوفة المتون)
٣٠	الينابيع الأولى لرواية النور
٣٣	هل هناك غاية مبطنة؟
٣٧	رواية السجود والختان
٤٠	الفصل الثالث: زواج عبد الله بن عبد المطلب
٤٨	الفصل الرابع: لحظة الوحي الأولى وقصة الغار
٤٩	الروايات المعالجة
٦٥	فرز الروايات المعنّية
٦٧	مسانيد الروايات غير المعنّية
٧٠	قراءة في المتون السابقة
٨١	تصفية الروايات
٨٤	تحليل عنصر المفاجأة
٨٧	استراتيجية النص

٨٩	في التراث الشيعي
٩١	الفصل الخامس : دور ورقة بن نوفل في توجيه النبوة المُحمدية
٩٢	محطات مفصلية
١٠٥	سيرة ورقة بن نوفل
١٠٧	الزبيريون وقصة ورقة بن نوفل
١١١	وقضية عدّاس ايضاً
١١٥	الفصل السادس : محمّد وجبرائيل
١١٩	إشكالية الجنون
١٢٤	الفصل السابع : سفرات النبي الثلاث (السفرة الأولى وقصة بحيرا الراهب)
١٢٥	موقف الرواة ملخصاً
١٢٧	التفصيل الروائي
١٣٢	تحليل الروايات
١٣٥	نظرة في المسانيد
١٣٧	الرواية العُمدية
١٤٠	مفارقات الأسماء والعنوانين الكبيرة
١٤٤	السفرة الثانية إلى الشام
١٤٦	الروايات والنصوص التاريخية
١٤٩	تنقيب في مضمون النصوص
١٥٢	معاينة السند وفحصه
١٥٥	المصادر الشيعية
١٥٧	الفصل الثامن : زواج الرسول من خديجة
١٦٥	قصة للسمر
١٦٩	نظرة في المضامين
١٧١	ارتباك الينابيع !

١٧٣ حول خديجة رضي الله عنها
١٧٥ مؤامرة الإسكار
١٧٧ خطبة أبي طالب
١٨٠ الفصل التاسع : مؤامرة قريش لقتل الرسول ﷺ
١٨٤ دقة الدور الأبليسي
١٨٧ المعالجة القرآنية
١٨٨ النجاة من المؤامرة
١٩٦ الفصل العاشر : من البيت إلى الغار (رواية عائشة أم المؤمنين)
١٩٩ حول العنصر الجوهري في الرواية
٢٠٢ قضية الراحلتين
٢٠٣ فضائل أسماء
٢٠٦ دور عبد الله بن أبي بكر
٢١٥ الفصل الحادي عشر : نحو الغار وفي فوائده
٢٢٢ الفصل الثاني عشر : من البيت إلى الغار / الرواية الشيعية
٢٢٨ قصة العنكبوت والحمامتين والشجرة
٢٣٣ محمد ﷺ ويهود قريظة / دقة القراءة
٢٨١ سرايا الرسول منذ دخول المدينة حتى معركة بدر / أربع سرايا
٢٨٧ حول سرية عبد الله بن جحش
٢٩٤ الهدف من السرايا
٣٠٠ المصادر